

القسم الثاني

عصور أوروبا الأقطاعية والإسلام التركي وآسيا المغولية

(منذ القرن الحادي عشر حتى القرن الثالث عشر)

الفصل الأول

تحوُّل أوروبا (القرنان الحادي عشر والثاني عشر)

طالما نظر المؤرخون الى السنة ١٠٠٠ نظرتهم الى فترة رعب وظلمة وفتور واعتقدوا ان مسيحيي الغرب ، الذين اقتنموا بدنو نهاية العالم ، قد عاشوا هذه الفترة منكشين على ذعرهم عاجزين عن النهوض باي عمل ، اجل ، كل هذا لك يحمل على الاعتقاد بان ارتقاب نهاية الازمنة ، في طبقات عريضة من المجتمع ، قد غدا ، بفعل التأمل المتواصل في كتاب الرؤيا ، اشد افضاضاً في اواخر الالف الاول من العهد المسيحي ، ولكن بما لا شك فيه ايضاً ان كبار المسؤولين في الكنيسة قد حاربوا هذه الاعتقادات وان سواد المؤمنين قد تغلبوا على مخاوفهم واستمروا في مسيرتهم قدماً الى الامام . ولا تبدو السنة ١٠٠٠ في الواقع ، ككشف حسيير بسـل كفجر لامسح : ففي ذلك التاريخ توطدت نهضة اوروبا ، في كافة الحقول ، بعد مرحلة اعداد طويلة الامد . أبعد خطر الغزور الذي تشاقلت وطأه منذ قرون وزال نهائياً ، واقام انضمام الشعوب البولونية والتشيكية والهنغارية الى المسيحية سوراً دفاعياً منيعاً ، في وجهه الشعوب الرحل من سكان الفيا في ؛ وبينما كانت آثار الغزوات الاخيرة في طريق الزوال ، برزت حركة توسعية لن تعرف الوهن طيلة مائة وخمسين سنة ونيف .

بيد ان هذا النمو ، حتى منتصف القرن الثاني عشر ، قد سار سيراً مطرداً دون ان يدخل على الانظمة السياسية والاجتماعية التي قامت في اواخر الانحطاط السكارولنجي اي تبدل يذكر . فالاقطاعية - وهي الاسم الذي اطلقته التقليد على هذه الانظمة - قد توطدت ثم استفادت من التقدم الشامل لمحة قت ، في آن واحد ، مزيداً من المرونة والاقدام .

١ - المجتمع الاقطاعي

لم يبق في اوروبا ، في القرن الحادي عشر ، من وجود لتلك السيطرات السياسية العظمى

التي يتوفق سيدها ، بواسطة وكلائه المحليين الامناء ، الى بسط النظام والامن على اقاليم واسعة الارحاء . فان آخر هذه الامبراطوريات ، تلك التي اسسها ملوك الدانمرك ، حوالي السنة ١٠٠٠ ، على شواطئ بحر الشمال وبحر البلطيك ، لم تلبث ان تفسخت . وفي جرمانيا نفسها ، التي حرصت على الاحتفاظ بالتقاليد السياسية الكارولنجية ، وحيث تحالفت العظمة الامبراطورية مع الملكية ورفعت من شأنها ، نرى السلطة الملكية تنفتت بسرعة بعد ان انهكها اتساع مهامها المتنوعة وتنازعها وتفاقمها روما والولايات السلافية المتاخمة ؛ فمئذ السنة ١٠٧٥ ، نرى هنا ، كما في فرنسا او ايطاليا قبل ١٠٠ سنة ، ان السيادة اخذت بالتجزؤ . ففي كل مكاتب ، نرى المناصب العليا والملكيات تفقد ، دون ان تزول ، كل سلطة فعلية ، ولا تلبث ان تصبح مجرد اساطير . اما الملك ، وهو المكرس ، فيحتفظ في عين الجميع باولوية تميز بطابع لغائق الطيبة ، واحاطت مسيح الرب بهالة عجائبية مجموعة من الاساطير تكونت وانتشرت انذاك ؛ فالزيت الذي يمسح به يوم التكريس يأتي مباشرة من السماء ؛ وهو يستطيع ، بمجرد لمسة من يديه ، شفاء بعض الامراض ؛ ومن حيث هو نصف كاهن ، ويحتل مرتبة دونها مراتب كافة البشر ، لا يستطيع احد ان يعتدي عليه بالضرب ؛ وهو اخيراً تجسيد للنظام الالهي . ولكن على الرغم من رأي العالم الاقطاعي هذا في الوظيفة الملكية ، فان الملوك قد فقدوا في الواقع حقيقة سلطتهم . ولم تعد سلطتهم الفضلى ملكية بل اقطاعية او عقارية ؛ فالملك الذي ليس تابعاً لاحد موضوع احترام عظماء المملكة ؛ وهو ، الى ذلك ، شأن الاسياد الاخرين ، سيد اراضيه العائلية واملاكه الوراثية وحامي الفلاحين المباشرين فيها . ولكنها في اغلب الاحيان سلطة هزيلة جداً . ويكفي هنا ان نقدم مثل ملك فرنسا لويس السادس الذي كنعيد ، في اوائل القرن الثاني عشر ، بمعاونة بعض التبعة المنزليين ، في اخضاع بعض صغار حكام الحصون في « جزيرة - فرنسا » *Ile - de - france* ، ووضع حد لتجاوزاتهم . والمضادة بين واقع ضعف الملك وبين الرسالة السامية الملقاة على عاتقه هي بالضبط احد مواضيع الاعاني الالهائية الفرنسية وتلك التي تعبر بامانة عن مشاعر كبار الارستوقراطيين العلمانيين من امثال « عربية نيم » او « تنويج لويس » .

بيد ان الشيء المهم ، اذا غدت الملكييات مناصب روحية غير ذات فعالية ، ان تؤمن مهمة الهية هي مهمة الامن والعدالة الضرورية للمحافظة على المجتمع المسيحي . فقد امتنتها في الدرجة الاولى ، وبصورة عامة ، الكنيسة التي سارعت منذ العهد الكارولنجي الى الحلول محل الملوك المستضعفين ؛ كما امتنتها بعد ذلك ، تحت اشد الاشكال اليومية حقارة ، القوى المحلية الخاصة واسياد الحصون .

في السنتين ٩٨٩ و ٩٩٠ ، روج المسؤولون الكلسيون في مجمي شارو السلطات الجديدة وبوي - وكلاهما من اعمال الأكيوتين ، تلك المقاطعة المسيحية التي بدا فيها الانحلال السياسي أقوى منه في سواها - حركة سلام الرب التي ما لبثت ان انتشرت في صحافة أنحاء غاليا الجنوبية والشرقية وتسربت ، بموافقة الاسياد انفسهم ، الى مناطق شمالية ارسخ

تنظيماً كامارات متراسة . تستثنى من ذلك جرمانيا حيث ما زال الملك ينعم بقوة تسمح له بالدفاع عن السلام بنفسه - وفي هذا دلالة على حقيقة الغاية من هذه المحاولة : فالمقصود هو ان تستبدل ، حيث تصاب بالوهن ، جمعيات السلام المشكلة بصورة طبيعية بين الرجال الاحرار في اطار الممالك البربرية والموضوعة تحت اشراف الملوك ، بجمعية جديدة يكون الاحبار رؤساءها وتكون وسائل العقوبة فيها العقوبات الكنسية ، أي الحرم والابسال . ويشترك في عضويتها كل الاسياد ، و « كل من أوتي سلطة من الله » ، وكل الأغنياء ، الذين تنحصر وظيفتهم في الحرب وقد يصبحون خير سجن وبليلة ، ويمقدون جمعية فليمية احتفالية ويقسمون مينا جماعية تجدد كل جيل . ويتمهد الجميع بالامتناع عن القيام بأعمال العنف حيال الأشخاص الكنسيين والممتلكات الكنسية أولاً ، والفقرء الذين ليس من يدافع عنهم ثانياً ، ويتمنون بالإضافة الى ذلك ، في علائقهم المتبادلة ، عن اللجوء الى السلاح خلال شطر من كل اسبوع . وخلال بعض ايام الروزنامة الطقسية ، أي ايام « الهدنة الالهية » ، ويتكتلون جميعهم اخيراً ضد من قد يخالف الميثاق المشترك . ان هذا التنظيم الذي ارتكز الى احدى أقوى المواطف الجماعية في طبقة المحاربين ، أعني بها احترام اليمين ، لم ينجح ، والحق يقال ، في الحؤول دون كل اضطراب ؛ بيد انه ، دونما ريب ، قد فاق الادارة الكارولنجية فاعلية ؛ وقد توصل طيلة قرن ونصف (لقد عقدت اجتماعات سلام الرب الاخيرة في فرنسا حوالي السنة ١١٥٠) ، بانتظار اعادة السلطة الملكية ، الى تأمين السلامة اللازمة . وبالفعل نفسه ، وسمت حركة السلام شقة الخلاف بين فئة رجال الحرب اعضاء الحلف السلمي ، وفئة رجال الكنيسة الذين يؤلفون مجتمعاً خاصاً يخضع لنظام مستقل يصونه ، وبين جمهور الوضعاء من احرار وغيرهم . فقد فرضت على هؤلاء ، حيلة لما قد يقدمون عليه من اعمال عنف ، عقوبات أشد صرامة ؛ وبينما لم يتعرض الفلاحون الاحرار ، في الماضي ، وفي الظروف العادية ، الا للجزاء النقدي ، تعرضت جرائمهم ، في القرن الحادي عشر ، للعقوبات الجسدية ، وأسندت مجامع السلام تنفيذ هذا القانون الاستثنائي ، أعني به قضاء الدم ، الى وريثة قوة الملوك العسكرية ، أي حكام الحصون .

فان الحصن ، ذلك البرج المربع المؤلف من طبقتين او ثلاث ، الذي شيد في السابق بالاشخاب واخذ يشيد آنذاك بالحجارة ، والذي يعلو مرتفعاً طبيعياً او صنعياً تحيط به أسوار من أوتاد خشبية ، قد بقي ، بعد زوال السادات الاقليمية ، رمزاً ومركزاً للسلطة الفعالة ، أي « للحكم » . اما هذه الابنية العسكرية ، وهي قليلة العدد نسبياً ، لأنها ، في أغلبيتها ، ابنية عامة قديمة (وعلى المغامر الذي تحدته نفسه باقامة حصن جديد ان يحسب حساباً للصعوبات المادية ، ومقاومة الاهالي ، وغارات حكام الحصون المجاورة الذين يقفون صفاً واحداً في وجه الدخيل الذي يتناول على حقوقهم) ، فهي في الدرجة الاولى ملاجئ . يحتوى فيها ساعة الخطر ، ونقاط تجمع فيها الفرق العسكرية المحلية . وان مهمة تأمين السلام - وبالفعل نفسه ، اصدار الاحكام الزجرية في القرى العشر او العشرين التي تحيط بالحصن وتقوم ، كما درج التعبير ، تحت حمايته ،

او تحت كابوسه ، او تحت سلطانه ، تعود بصورة طبيعية الى سيد الحصن ، أي الى ذاك الذي يبدو وكأنه السائد بالذات ، أعني به السيد . ليس لهذا الأخير ، مبدئياً ، وفقاً لتنظيم السلام الجديد ، أي حق على ما قد يوجد في اراضي الحصن من رجال الكنيسة وامتلاكاتها ، فيتكون من ثم عدد مواز من الاقطاعات والحصانات الصغيرة . وينتظر هذا السيد ، من الاسياد المجاورين المساوين له ، ومن كافة العلمانيين الذين يتمتعون بوسط من الثروة يتيح لهم الاشتراك في الحرب على سهوة جيادهم والقيام بخير قيام بوظيفتهم العسكرية ، احترام العهود التي قطعوها في جمعيات السلام على الاقل ، والصدقة وتأدية الخدمات الموعود بها ، مقابل مجاملات متبادلة ، حين تعديم الاحترام والدخول في طاعة السيد ، على الاكثر ؛ ولكنه لا يارس حياهم أية سلطة قسرية . اما كافة علمانيي الطبقات الدنيا المقيمين في نطاق الحصن فتحت سلطته المطلقة .

يتضح من ثم ان توزيع السلطات بعد اننيار السلطة الملكية قد فرض تنظيم المجتمع . توزع الناس في ذاك العهد ، وفقاً لموقفهم من القوى الرادعة ، الى ثلاث « طبقات » . والمقصود بذلك فئات محددة ، ثابتة ، اوجدها الاله نفسه ، منذ الخلق ، وباعتراف الجميع ، لتأمين انتظام العالم ، يقابل كل منها « حالة » خاصة او رسالة معينة . احل في الطبقة الاولى اولئك الذين يصلون وتنحصر مهمتهم في التغني بمجد الرب وبالاحسول على خلاص الجميع ؛ وجساء بعدهم اولئك الذين يحاربون ، وقد اسند اليهم امر الدفاع عن الضمءاء ونشر السلام الالهي ؛ واحل ، تحت هاتين النخبتين ، العمال الذين يتوجب عليهم ، وفقاً لأحكام العناية الالهية ، الاسهام بمعلمهم في اعادة اختصاصي الصلاة والحرب . ذاك هو المخطط الموز الذي رشح في اذهار الجماهير حوالى السنة ١٠٠٠ ، وعبر عنه منذئذ في كل مكان ، في الابحاث التعليمية او الماعط وفي تنظيم الاحتفالات العادية ، وانتقل من جيل الى جيل ، فاصبح طيلة قرون عدة الهيكل الاساسي للمجتمع الغربي .

كانت اولى هذه الطبقات نفسها مؤلفة من فئتين : فئة الكهنة برئاسة الاساقفة ، وفئة الرهبان التي اعوزها التلاحم ، ولكن اصلاحات تدريجية ادخلت عليها مزيداً من الوحدة وجمعت عدداً من الاخويات الكبيرة في عدد مواز من « الجمعيات » الخاصة . وكانت هذه الطبقة قديمة العهد تؤلف وحدها جسماً حقيقياً له تقاليده واجهزته وقوانينه الخاصة . وتجدر الاشارة منذ الآن الى ان حركة تجديدية وتطهيرية بطيئة ، تنزع الى التمييز تمييزاً افضل بين الروحانيات والزمنيات ، كانت آخذة تدريجياً بطبعها بمزيد من الفردية واحكام الفصل بين العلمانيين والاكليركيكنيين . ومن حيث ان هؤلاء الاخيرين مكرسون لخدمة الله ، فانهم يمتششون من احسانات المؤمنين ، لا الاعشار التي تعود بمظلمها للاسياد العلمانيين الذين اسس اجدادهم الكنائس القروية ، بل التقادم الطقسية او الفصلية التي يستفيد منها خدام الخورنيات ، ولا سيما دخول الاراضي التي تقدم هبات تقوية للمؤسسات الدبائية ؛ ولعل الاعتقاد بما للاعشار من فعالية فدائية لم يكن يوماً اعتمق منه في الفترة الممتدة من اواخر القرن العاشر حتى اوائل القرن الثاني عشر ، وقد طمت خلال هذه المدة نسبة مرتفعة من ممتلكات

اللمانين المقدمة للاله وخدامه الارضيين الى ممتلكات الكنيسة . والطبقة الكهنسية طبقة غير مقفلة : فكل انسان سيد نفسه يستطيع الدخول اليها بعد ان يتغلى عن اسلحته اذا كان من طبقة المحاربين ، ويجب عليه في الظروف العادية ان يقدم مهراً « لللبسة » ، ويتوقف المركز الذي سيحتله في سلم الوظائف الروحية ، بصورة عامة ، على اهمية هذه التقدمة الاولى . فهناك تفاوت ظاهر في فئة « المصلين » ، والمسافة العائقة بين مجالس الكهنة القانونيين في الكاتدرائيات ، وكلهم ابناء اسياذ يعيشون في مجبوحة كاسياذ من محاصيل دخلهم القانوني ، وبين الكليريكيين الوضعاء القاعين بالخدمة الروحية في الارياف ، وكلتهم ابناء فلاحين يستفيدون من دخل عارض ضئيل وغالباً ما يضطرون الى ان يدفعوا المهرات بانفسهم في اراضي الخورنيات الضيعة ، هي بالضبط تلك التي تفصل بين الاغنياء والفقراء ، وبين فئة المحاربين المحترفين وفئة العمال . وان هذا التمييز الاجتماعي الاخير هو في الواقع اعرق تمييز لان له انعكاسه داخل الكنيسة اللمانية نفسها ، وحتى في الاخويات الرهبانية : فقد اخذوا في القرن الثاني عشر ، يفصلون فصلاً واضحاً في اديرة البندكتيين ، بين رهبان الترتيل ، اخوة الفرسان ، وبين الرهبان المساعدين ، اخوة الفلاحين . ونحن هنا امام تمييز حديث العهد يسدل الستار تدريجياً على التمييز القديم بين الانسان الحر وبين العبد ، ولكنه تمييز واضح جداً يمين حدّاً لا يمكن تحطيه في الظروف الطبيعية .

الفرسية جمع في هسائين الفئتين الرئيسيتين اولئك الذين تطلق عليهم النصوص اللاتينية المعاصرة اسم « الجنود » ، بينما تطلق عليهم اكثر اللغات الشعبية الغربية اسم « الفرسان » . وبالفعل بات مفهوماً محارب والفراس مترادفين خلال القرن العاشر ، حين اصب دور المشاة الرئيساً في المعارك وتوقف المسؤولون عن اللجوء بصورة منتظمة الى استدعاء بعض الرجال الاحرار ، الذين لا يستطيعون تأمين عدّة الفراس الكاملة بسبب فقرهم المدقع . فكان على كل جندي ، في الواقع ، ان يتسلح وفقاً لثروته ، ولذلك كانت فئة المحاربين المحترفين ، في الدرجة الاولى ، طبقة اقتصادية ، وقد توجب ، حوالى السنة ١٠٠٠ ، للانتساب اليها ، اقتناء حصان وشئى الاسلحة الهجومية والدفاعية اولا ، والقدرة ، بعد ذلك ، على التمرن على مسافة الفرسان الشاقة ، وتخصيص وقت كاف ، اخيراً ، لتلبية الدعوات الى الاجتماع والاشتراك في الحملات العسكرية . وكان لزاماً عليه بالتالي ان يكون لديه رأس مال هام (فقد كان ثمن الدرع وحده ، في القرن الحادي عشر ، يوازي ما يتطلبه مشروع استثمار زراعي على بعض الاهمية) ومتسع كاف من الوقت بنوع خاص . فامتنن الفروسية ، من ثم ، كبار الملاكين العقاريين ، اولئك الذين يحصلون دخل املاك واسعة بحرثها خدام كثيرون ولا يحتمساجون الى ادارة استثمارها بانفسهم ، والاتاوات المفروضة على عدد من الاراضي التابعة لهم قد يبلغ العشرين .. وبكلمة واحدة ، اولئك الذين يخدمهم عدد هام من العمال .

بيد ان طبقة الفرسان ، التي كانت في البدء مفتوحة الابواب لكافة الاغنياء ، ما عتمت ان ان اقلقت وامست طبقة وراثية ، وجاء هذا التطور طبيعياً جداً في زمن المحطاط اقتصادي

كانت فيه جميع الثروات عقارية ونادر فيه ان يتوصل احد الناس ، بمساعيه الفردية ، الى رفع او تخفيض قيمة ارثه بصورة محسوسة . وكان تطوراً سريع الخطى في فرنسا الوسطى حيث اكتمل في الربع الاخير من القرن الحادي عشر ، بينما كان بطيئاً في غير مكان وبقي ناقصاً هنا وهناك . وحين بلغ حده ، لم يعد للثروة اي شأن ، بل للنسب وحده . فورث ابناء الفرسان منذئذ - وحدهم ، باستثناء حديثي النعمة من المغامرين او الفلاحين المثرين - صفة الفروسية ؛ وحق لهم دون غيرهم ، عندما يبلغون اشدّهم ، الانخراط في فئة اختصاصيي الحرب ، بعد حفلة اشراك عائلية وبسيطة جداً يتسلطون خلالها اسلحتهم ، بعد امتحان اهليتهم العسكرية ، من ايدي احد متقدمي عائلتهم سنّاً . فكانت هذه الطبقة ، والحالة هذه ، قليلة العدد نسبياً : ويبدو ان هنالك عائلة فرسان في كل قرية على وجه التقريب .

وكان بين اعضائها تفاوت ملوس في الثروة ، فالبعض يمتلكون حصناً ، ويتمتعون من ثم بحق توزيع الاوامر على الفلاحين ومعاقتهم واستثمارهم ؛ ولكن هؤلاء الاسياد الكبار يؤلفون نخبة محدودة العدد . ويعيش معظم الفرسان ، في بيت ريفي ، حياة نصف قروية ويشرفون بانفسهم على استثمار املاكهم الصغيرة حين لا يقومون بوظيفتهم الحربية ؛ وليس من النادر ان نرى فرساناً فقراء ، هم اخوة الابكار في بعض العائلات الكثيرة العدد ، يضيق بهم ارثهم ويتعذر عليهم تمهيد اسلحتهم فيضطرون الى المغامرة وركوب الاخطار خوفاً من الانحدار الى طبقة الفلاحين . بيد ان الفرسان جميعهم ، سواء كانوا اغنياء ام فقراء ، يشتركون ، اقله في بعض المراحل ، في معيشة واحدة هي معيشة المحاربين المحترفين ، ويكتسبون العقلية الملائمة لهذه المعيشة : اعتبار خاص للقوة الجسدية ؛ ميل الى المآثر الرياضية ، في الحرب نفسها او في التمارين العنيفة التي تقوم مقامها وتمتد لها - كقنص الوحوش المفترسة الذي تخف به المخاطر ؛ والمبارزات التي تكاد لا تتميز عن المعركة نفسها والتي لم تكن لمدة طويلة . مبارزات فردية في حلبة مقفلة . بل تجاهه فرقتين من الفرسان ، في ارض واسعة الاطراف ، يتعاقب فيه الكر والمطاردة والتقتيل والفدية - واخيراً تقاليد الشرف والايان التي تستند الى قوانين الحرب . ويشكل هذا المجموع من العادات والشواعر التي ترمّز الى التخصص العسكري في طبقة الفرسان ، اول عامل من عوامل الوحدة . اما العامل الثاني فامتياز يضاف الى الارث ويحمل من الفرسان ، منذ القرن الحادي عشر ، طبقة حقيقية من النبلاء ؛ فالفرسان جميعهم ، بسبب الخدمات المفروض عليهم ان يؤدوها للجماعة كلها ، يعمفون من الفرائض والاعباء التي تنوء بثقلها على طبقة العمال ، ولا يؤدّون واجباتهم الثقافية ولا يعترفون بقاض يستطيع معاقبتهم ؛ ولا يتوجب عليهم سوى القيام ببعض الخدمات التي تعهدوا لسيد اقطاعهم ، بملء ارادتهم ، القيام بها .

ان طبقة الفرسان - وهذا ما يميزها ايضاً - محاطة كلها بالانظمة الاقطاعية .
منذ نهاية العهد الكارولنجي ، اقدم معظم الرجال الاحرار المنتمون الى مرتبة عليا ، رغبة منهم في تأمين الحماية او فوائد اخرى مختلفة ، على مقدمة شخصهم الى وليّ نصير ؛

وهكذا فان الفرسان ، المقيمين في الاراضي التابعة للحصن والمزمين بالتجمع فيه عند اول طارئ ، قد غدوا اصحاب اخادات خاضعين لسيد الحصن ؛ ومنذ انهيار القوة الملكية - اي منذ او خر القرن العاشر في غالبا ، ومنذ اوائل القرن الثاني عشر في جرمانيا - اصبحت هذه الارتباطات الشخصية الروابط السياسية الوحيدة بين اعضاء الارستوقراطية . ولكن صفة هذا الخضوع ، في الوقت نفسه ، قد تبدلت بشكل محسوس ايضا . فقد رسخ في كل مكان ، منذ السنة ١٠٠٠ ، ان خدمات التابع النبيل تستحق مكافأة قانونية ؛ فليس من واجب السيد ، خلال الجمعيات التي تضم رجاله حواله بصورة دورية ، ان يوزع عليهم الهدايا والاحصنة والاسلحة والنقود والحلي فحسب ؛ بل يحذر به ايضا ، منذ تقديم خضوعهم له ، ان يكلفهم تعهد بعض الاراضي ، طيلة اخلاصهم له ، او يخصهم باي انعام آخر - سيادة كاملة على اقطاعه ، او جزء من الاعشار او الاقوات ، او استثمار ارض بسيطة في اغلب الاحيان ، او ارض يتسلم الفلاحين - على ان يدر دخلا منظما يعوض على الرجل شقاه . وهذا الانعام هو الاقطاع . في اوائل القرن الحادي عشر كان تسليم الاقطاع يلي يمين الاخلاص مباشرة ، ثم درجت العادة على ان يدخل في احتفال تقديم الخضوع ؛ وقد اوجدت هذه الوحدة الوثيقة بين الاقطاع والخضوع تحولا في الرابطة بين رجل ورجل . ومرد ذلك الى ان تعهد الارض ، وهو المنصر المادي الملموس المشر ، قد غدا اعظم اهمية في نظر رجال الحرب هؤلاء الذين يكادون يعجزون عن التجريد ؛ وعكست اخيرا العلاقة الاصلية بين الهبة الاقطاعية والارتباط الشخصي ، فاعتقدوا بان وفاء صاحب الاقطاع وخدماته وحتى تقديم شخصه امر واجب بسبب الاقطاع وان واجبات التابع تمثل بدل هذا الاستثمار . وقد تم هذا التحول في الاعتقاد في الربع الاخير من القرن الحادي عشر : فاصبح السيد وصاحب الاقطاع مرتبطين بمحقها المشترك على ارض واحدة اكثر من ارتباطها بوعد الصداقة . فما هو والحالة هذه موقف كل منها ؟

ليس الفارس صاحب الاخذة مطلق التصرف باقطاعه : فقد يفقدها اذا لم يحترم بنود عقد خضوعه ؛ ويحجز السيد الاستثمار حال ثبوت اخلال صاحب الاخذة بواجبه امام جمعية كافة اصحاب الاخذات . اما اذا برّ التابع النبيل بيمين ولائه فلا يمكن ان يكدره مكدر في تصرفه باقطاعه ؛ ويستطيع ان يتنازل عن بعض اجزائها لاصحاب الاخذات التابعين له ؛ وينزع طبيعيا الى اعتبارها كاحد املاكه الخاصة التي لا شيء يميزها عنها في الظروف العادية ؛ وقد اعترف له ، في اوائل القرن الحادي عشر ، بصورة عامة ، بحق بيعها او نقلها الى ورثته . اجل ان هنالك بعض الاستثناءات : فالاقطاعة ، من حيث هي وراثية ، لا تقبل التجزئة ، ولا مناص بالتالي من موافقة السيد وتدخله حتى يستطيع متسلم الاقطاع الجديد التمتع بحق الاستثمار ؛ وكثيرا ما يضطر هذا الاخير لدفع رسم الانتقال ويخضع لاحتفال تقديم شخصه . ولكن هذه الضمانات لحق السيادة لا تحول دون انتقال الاقطاعات من يد الى يد ، ولا دون قيام او زوال الولاء الذي تستلزمه . فادت سهولة الانتقال هذه الى تراخ اكد في الروابط بين انسان وانسان . فلم ينتخب

السيد ، بعد ذلك ، اصحاب الاخاذات التابعين له ، بل غدت الوراثة والبيع يدخلان في خدمته اتباعاً جديداً غالباً ما لا يصلحون « لخدمة » اقطاعهم بسبب صغر سنهم او عجزهم الصحي ، او يكونون مجهولين منه ان لم يكونوا معادين له ؛ ومن حقنا الشك في حقيقة قيمة ايمان تقسمها الشفاء وحدها خلال احتفال لم يعد سوى معاملة شكلية تخضع لها علاقة عقارية بحتة . اضاف الى ذلك ان وراثة الاقطاعة وحق بيعها رفعا عدد الفرسان الذين باقوا ، بعد تسلمهم اقطاعات مختلفة بشتى الطرق ، خاضعين لخدمة اسيا د : وهم قد وعدوا كلاً من هؤلاء بالاخلاص والخدمة ؛ وجلي انه يصعب عليهم التفرغ كلياً لكل من اسيا دهم في حال انهم يزعون بالفضل الى التشجيع بتمهدهاتهم الكثيرة حتى لا يقوموا باي منها . لذلك فان الارتباط الاقطاعي ، من حيث هو خاضع للاقطاعة ، ابعد من ان يكون ابداً ، شأنه في العهد الفرنجي ، خضوعاً كلياً من الانسان لحاميه لا يحل من موجباته سوى الموت .

يجب الا نعتقد مع هذا بان خضوع صاحب الاخاذة للسيد قد فقد كل قوته ؛ فهو قد بقي مرتكزاً الى احد اخطر الافعال التي يمكن ان تصدر عن المسيحي ، اعني به القسم . ولكن قوته قد غدت اكثر تفاوتاً وتأثراً بالظروف . وهذا نحن نورد هنا ما جاء في رسالة وجهها فولبير اسقف شارتر ، حوالي السنة ١٠٢٠ ، الى دوق « أكيتين » ، الذي استشاره في هذا الامر ، حول مفهوم العلائق بين السيد وصاحب الاخاذة انذاك . هناك في الدرجة الاولى الاخلاص المتبادل من حيث ان المتعاقدين يحتلان مستوى واحداً تقريباً ؛ ف « على السيد ، في كل الامور ، ان يعامل تابعه بالمثل ، وان لم يفعل صح اتهامه بسوء النية » . واذا ما رددنا هذا التمهيد الى حقيقة جوهره ، بدا لنا انه وعد ذو طابع سلمي : فان كلا من الطرفين يتمتع عن القيام باي عمل قد يلحق الضرر بالآخر . وانما يستحسن ان تكون الصداقة اشد حرارة وان تظهر بخدمات ايجابية : « اذا كان من العدل ان يتمتع التابع عن الحاق الضرر بسيد ، فهو لا يستحق اقطاعه بهذه الطريقة ؛ ولا يكفي الامتناع عن فعل الشر ، بل يجب فعل الخير ايضاً ؛ ويتوجب من ثم على صاحب الاخاذة ان يقدم لسيد المشورة والمساعدة باخلاص ، اذا اراد ان يكون جديراً بالاقطاعة ومنسجماً مع بين الاخلاص التي اقسما . و « المساعدة » تعني تقديم العون بكل الوسائل الممكنة والوسائل التي تفرضا الظروف ، وذلك بتقديم المال ، واستخدام النفوذ ، في القضاء وغيره ، لدى خصوم « الصديق » ، وفي اغلب الاحيان بالقوة والاسلحة ، كما يليق ذلك في مجتمع عسكري . واتضحت تدريجياً خلال القرن الثاني عشر طبيعة ومدى المساعدة الاقطاعية ، وتحددت في الاعراف المحلية : وهكذا فقد بات من المعترف به في فرنسا ان من حق السيد ان يفرض على صاحب الاخاذة ، بالاضافة الى الدورات التدريبية في الحصن ، الخدمة العسكرية المجانية اربعين يوماً في السنة ؛ وان باستطاعته ايضاً مطالبة تابعه بمساهمة مالية ، حين يتوجب عليه دفع فدية او تسليح ابنه او مهر ابنته او حين يشترك في حملة صليبية . اما واجب المشورة فيجب ان ينظر اليه من زاوية عرف خاص بمجتمعات القرون الوسطى ، اعني به الشعور الراسخ بان رئيس الفرقة

لا يستطيع اتخاذ قرار خطير واصدار حكم والبت بمصير ممتلكاته ، دون عرض الامر على رجاله والاستئناس برأيهم ؛ فعلى صاحب الاخاذة ، والحالة هذه ، كلفا طلب اليه ذلك ، التوجه الى سيده والاقامة في ديوانه ؛ وان هذا الاجتماع ، من جهة ثانية ، ظرف يتيح للرجلين إعادة الاتصال بينهما وتوثيق رابطة قد يكون ارضاها البعاد . وغالبا ما تضاف الى هذه الموجبات العامة خدمات متبادلة اكثر تلقائية واعمق انمكسات ادبية : وهكذا فعالمنا ما يحدث ان يرسل صاحب الاخاذة ابنه لتمضية حدائنه وتعلم مهنة الفروسية في كنف السيد ورفقة اولاده ، لا سيما وانه سيدهم « لخدمتهم » فيرتبط بهم من ثم ارتباطا وثيقا . وليس من النادر اخيرا ان تكون العلاقة اشد وثوقا ايضا ، فلا يميز بين صاحب الاخاذة وبين اقرب اقرباء سيده ؛ اذ ان الرابطة الاقطاعية ، حين تنميتها مجاورة جسدية وروحية ، تبرز بكل قوتها وتسمي ، كالرابطة الدموية ، ملازمة وموجبة .

ان العقد الاقطاعي ، كما رأينا ، اطار مرن جدا ؛ فقد يحدث الاخلاص ، والفهم ، والنسب ان يقيم بين رجلين قرابة حقيقية ، اعني بها تلك الاخوة الممتازة التي تصلها اغان ايمائية كثيرة ؛ ولكنه قد يؤول ايضا الى مجرد ضمانة ضد الاعتداءات الممكنة حين يقوم بين قوتين غريبتين او متعاديتين . ويبدو بصورة عامة ان قوة الاخلاص منوطة في جوهرها بقوة كل من التابع وسيده ؛ فالفارسي الصغير الفقير ، التابع لسيد عظيم ، مضطر لان يخدم ، بمزيد من الانقياد ، هذا السيد الذي يخشاه والذي يستطيع ان يقدم له مساعدة فعالة . وهي تختلف باختلاف المقاطعات ايضا ؛ ففي المناطق المسيحية الجنوبية ، تبدو الموجبات الاقطاعية اكثر حصرأ واقل وضوحا . وقد تحولت اتفاقات خاصة ايضا ؛ فان بعض الوعود بالخضوع والطاعة ، لا سيما حين تقطع بين عظام الاسياد ، معاهدات حقيقية تنطوي على شروط غالبا ما تدون في وثيقة خطية وتوضع خلال مقابلة تجري في ولاية متاخمة وتحدد بالتفصيل كميّات المساعدة

غير ان سؤالاً يرتسم امامنا هنا : اذا كانت النظم الاقطاعية ، المتفاوتة الفعالية ، تؤلف الاطار السياسي الوحيد للطبقة الفرسان ، فهل باستطاعتها ان تحافظ على النظام داخل هذه الطبقة ؟ يمكننا الاعتقاد بانها تتوصل دائما الى ايثاق ارتباط صغار الفرسان الريفيين بسيد الحصن المجاور ؛ فهي تجمع حوالى الحصن ، وهو المركز الرئيسي للنشاط العسكري ، جنود الجوار في وحدة متينة تزيد في تراصها اخوة السلاح وتجتمع دوريا ، اما في التمارين الحربية ، واما في البلاط الاقطاعي ، حول السيد المشترك ، الحكم الطبيعي للخلافات الداخلية . ومن الثابت من جهة ثانية ان شهور الخضوع ، في طبقات الفرسان العليا ، يشكل حاجزا فعلا في وجه المشاهدات ؛ فان اقل اصحاب الاخاذات اكثر اناءا بروحي ضميرهم يتردد دائما في مهاجمة سيده مهاجمة سافرة ، وقد اسهم هذا الاحجام في ايقاف كثير من المعارك ورفع الحصار عن كثير من الحصون . وعلى الرغم من ذلك لم يكن التنظيم الاقطاعي كافيا ، فهو في الدرجة الاولى لم

يولف ، كما يسود الاعتقاد ، جهازاً متلاحماً يجمع في كتل متراسة ، حول كل ملك او كل امير عظيم ، كافة الموالين في الاقاليم ، بل تجزأ الى حيايات محلية كثيرة ، مستقلة عملياً بعضها عن بعض . ثم ان السيد ، وهذا هو الامم ، ما كان ليستطيع مراقبة كافة تصرفات تابعه : فبماكانه ان يعاقبه بحجز اقطاعه اذا اساء الاخلاص المتوجب عليه ، ولكن حقوقه عليه تقف عند هذا الحد ؛ وباستطاعة صاحب الاخذة ان يرتكب ابشع الجرائم ، اذا ادى لاسياده المختلفين خدمات المساعدة والمشورة ، دون ان يتمكن هؤلاء من اتخاذ اي اجراء بحقه . وقد برز بكل جلاء نقص النظم الاقطاعية في الاجراءات القضائية المطبقة هي كافة اشحاء الغرب في القرن الحادي عشر والنصف الاول من القرن الثاني عشر .

عندما يتجشم احد الفرسان ضرراً يلحقه به احد افراد عشائته ، ليس من محاكم نظامية تستطيع قبول شكواه واتخاذ اجراء مباشر ضد المعتدي ، الا اذا كان الرجلان عضوين في جمعية اقطاعية واحدة . فيتوجب على الضحية والحالة هذه ان تحصل حقها بيدها ، فتقوم بمساعدة اصديقاتها ، بعمل عسكري ضد الخصم وذويه ؛ وتبتدىء بذلك حرب قد تدوم زمناً طويلاً جداً وقد تتسع تدريجياً بحسب المصالحات ، وهذا هو البئثار الخاص . لكل خلاف وكل نزاع حول الارض وكل اهانة وكل بادرة في غير محلها قد تقضي من ثم الى نزاع مسلح يولد بدوره اسفاً اخرى وانتقامات اخرى . بيد ان الفريقين المتعادين يقبلان عموماً ، بواسطة الاصدقاء المشتركين ، وبعد مساومات طويلة ، بان يفصل في خلافهم مجلس مؤلف بالتساوي من انصار كل منهما . تعرض الضحية شكواها ، تدعيها في موقفها ايمان اقربائها واسيادها واتباعها ، ثم يتناقشون ويلتمسون غالباً حكم الاله اما بدعوة ابطال الفريقين الى المبارزة ، واما باخضاع المدعى عليه لامتحانات الماء والنار الطقسية ؛ ويضعون في النهاية تسوية تقرر بالتخلي عن بعض الحقوق . واذا كان موضوع النزاع مالاً ، تقرر قسمته بصورة عامة ؛ اما اذا كان جريمة او ضرراً جسدياً ، فيحدد « ثمن الدم » الذي يتوجب على المعتدي دفعه لجميع من الحق بهم ضرراً . وانما يتوجب على المتخاصمين ان يقبلوا كلهم بشروط الصلح ؛ فالقضاة ليسوا في الحقيقة سوى مصلحين ولا يأخذون على انفسهم فرض حكمهم بالقوة . فنحن من ثم امام قضاء بطيء وناقص وباهظ الاكلاف (بسبب الدفع للوسطاء والقضاة والشهود والابطال) وبالنسبة غير ذي فعالية لانه لا يعيد الى الضحية حقها كاملاً ويشجع على اللجوء الى العنف . وما كان التنظيم الاقطاعي بمفرده ، من ثم ، ليكفي للحفاظ على النظام والسلم ، لو لم يكتمل اطار طبقة الفرسان بوسيلتين : الاكثار من ايمان الضمانة المتبادلة ، وتوثيق الروابط المائلية .

تقسم اليمين بوضع اليد على الذخائر المقدسة او على كتاب الاناجيل ، وامن رهن النفس رهناً احتفالياً ؛ فليس من عمل آخر اكثر الزاماً لانسان بهتم لخلاصه الابدي ويخشى بالاضافة الى ذلك ، في اموره الزمنية ، نتائج الغضب الالهي . ويلفت النظر ان فارس القرن الحادي عشر محمول على اقسام ايمان كثيرة يتمتع بموجبها عن استمالة القوة والحاق الاذى بالغير . فهناك اليمين العسامة

المعسمة جمعياً في جمعيات سلم الرب ، وإيمان الخضوع التي تعددت بعد تزايد المشاركات الزراعية والإيمان الخاصة أخيراً التي تفرض في ظروف عديدة فتصدق كل اتفاق وصفقة ، ويقسمها ليس كل متعاقد فحسب ، بل كل الأصدقاء الذين يرافقونه أيضاً والذين يصحبون ، بنهدهم هذا ، شركاء له في عمله ويتمهدون بالحفاظ على السلم . فيدخل الفارس بهذه الطريقة في شبكة من الوعود التي تربطه نهائياً بكافة جيرانه تقريباً ، أي بأولئك الذين يتاح له ظروف كثيرة يقابلهم فيها ؛ فيضطر بالتالي إلى كبح نزواته والزكون إلى الهدوء .

بالإضافة إلى ذلك ينتسب الفارس إلى وحدة ضيقة ، تحميه وتراقب أعماله ، اعني بها نسبه . فقد غدت العائلة ، بعد اختلال حبل الأمن الذي عقب انهيار الملكيات ، الخلية الأساسية لمجتمع الفرسان . فامست في آن وأحد : أشد تلاحاً (ودرج استعمال اسم العائلة المشترك بين جميع الأعضاء ، وهو رمز هذا التجمع ، في الطبقة الأرستوقراطية منذ النصف الأول من القرن الحادي عشر) . وأعظم اتساعاً : فاحتفظت روابط الدم بكل قوتها طيلة أجيال عديدة جامعة ، حول الأكبر سنّاً ، الحفدة وإبناء الأخوة وإبناء الأعمام . ولا يحدث البتة أن يعمل النبيل آنذاك مستقلاً عن أقربائه ؛ وهو في الحرب وإثناء المرافعة أمام القضاء يحاط أبداً بـ « أصدقائه بالجد » الذين يقدمون له المساعدة والذين يتوجب عليه مساعدتهم بالتفضيل على اعز أسياده ؛ وهو ، إذا حرم كل فروع فردية ، حتى ولو كان متزوجاً ولم يرزق أولاداً ، يشترك معهم في تملك أرث الحدود الذي ينظم رئيس الجماعة استثماره بمشورة الجميع . وهذا التضامن الاقتصادي الذي يلزم بالتعاون الدائم هو العامل المزم الأول بين عوامل الوحدة العائلية . وجدير بالذكر أن قوة الموجبات النسبية تسهم اسهاماً كبيراً في الحفاظ على النظام . ومرد ذلك في الدرجة الأولى إلى أن الفارس غالباً ما يثليه انساباً عن تنفيذ لوائح الحربية خشية منهم من أن يجرؤوا جرأاً إلى عمل لا يوافقون عليه ؛ وفي الدرجة الثانية إلى أن تأكيد المعتدين من أن يناصبهم العداء كافة أقرباء ضحاياهم غالباً ما يحملهم على التراجع عند اعتداءاتهم المحتملة . ولذلك فإن طبقة المحاربين ، التي هي تجمع ليس قوامه الأفراد المنعزلين بل عدداً كبيراً من الجماعات المتشابكة نسباً وانتساباً إقطاعياً ، هي طبقة سجيبة وعنيفة لعمرى ، ولكنها ليست خارجة كلياً على النظام .

تختلف الظروف الاقتصادية في الطبقة الأخيرة من المجتمع اختلافها في الطبقتين الللاحين الأوليين . فبين العمال الذين لا ينتسبون إلى نخبة الفرسان ، وبين العمال الذين يحصلون من الأرض بمرق جبينهم ما يلزم لأودهم وأود غيرهم ، من لا يملكون شيئاً ويستمتعون بخبزهم على أبواب المدينة وينطلقون إلى كل جهة سعياً وراء أي عمل ممكن ويتعنون ويشقون في أملاك الأسياد الواسعة تحت إمرة الخدام المنزليين . ولكن سواد هذه الطبقة من الفلاحين الأحرار في أن يستثمروا أراضيهم العائلية على هواهم ؛ إنما يجب أن نميز ، في عداد متعاطي أعمال الزراعة هؤلاء ، بين العمال الذين يستخدمون المحراث وأولئك الذين يركشون أرضهم بالمعول .

وهناك اخيراً فئة من غير النبلاء الذين لهم شركاؤهم الخصوصيون، الحدّام، والذين يمشون حياة بطالة؛ فهؤلاء فلاحون وروثا ارضا أحسن استثمارها، او عملاء الاسياد ووكلاؤهم في ادارة خدمة منزلية او ادارة قطعة ارض ثانية كوفئوا بنصيب من الواردات التي يكلفون جمعها؛ وم من جهة ثانية على جانب كبير من اليسار، يمتلكون الجياد ويمتلكون الاقطاعات في غالب الاحيان وتتجاوز مواردهم موارد فرسان كثيرين، على انهم نادراً ما يدخلون (اقله في فرنسا) في طبقة النبلاء المغفلة اقفالا محكما في وجه حديثي النعمة .

بيد ان هؤلاء العمال، بصرف النظر عن مقدار ثروتهم - وهذا ما يميز وضعهم - قد خضعوا خضوعاً تاماً لسيّد لم يختاروه، يحميمهم ويقودهم ويماقبهم؛ والنظام المفروض عليهم نظام شديد يطبقه رئيس يتمتع بحق نفيعهم . وينتسب عدد كبير منهم، ممن دعوا بالفدائيين في القرن الحادي عشر، وبالحرّس الخاص في القرن الثاني عشر، الى رجال آخرين يزعمون ان لهم عليهم كل سلطة؛ ويخضع الباقون منهم لسيطرة سيد الحصن في الارض التي يقيمون فيها . وسواء كانوا عمالاً في القرية او اتباعاً لشخصين - وهم يتساوون في سوء المعاملة - فانهم مرغون تجاه سيّدهم بتأدية خدمات مختلفة يطلق عليها اسم « العادات » - لان مداها يحدّده العرف - او « الهدايا » احياناً، لانهم اعتبروها تقادم تلقائية من الاتباع المحميين الى حامّي السلام . فهناك الالتزامات العسكرية اولا : على الرعايا ان يؤمنوا حراسة القصر، ويقيموا في التحصينات عند حدوث اي طارئ، ويسيروا مشياً على الاقدام وراء الفرسان كي يؤدوا لهم بعض الخدمات؛ وعليهم بنوع خاص الاسهام في بعض الاعمال التسخيرية كالترميم والنقل وتقديم القرطبان او الاغذية في سبيل تمهيد الحصن وحاميته . وهناك الخضوع القضائي ثانياً : فهم تابعون لسلطة محكمة السيد التي تجازيهم، في حال الجرم، بالاضافة الى التعويض على المعتدى عليه، بفرامة مالية تتراوح بين ثلاث (٣) وستين (٦٠) محاسة، والتي ترفع قضيتهم الى السيّد نفسه اذا ارتكبوا زنى او سرقة خطيرة او جريمة قتل مقصودة . وهناك الخدمة المختلفة اخيراً : فجامعو واردات السيد الحاكم يستوفون الرسوم على الصفقات وانتقال المواد الغذائية واستخدام طاحون السيد وفرنه ومعصرته؛ والعمال القرويون ملزمون في بعض الظروف باضافة السيد ورجاله او تقديم كمية من المواد الغذائية توازي ما تكلفه هذه الضيافة : وهذا ما يعرف بحق المأوى؛ وهم ملزمون اخيراً « بمساعدة » حاميمهم الذي يدعي لنفسه بحق مصادرة المال والمحاصيل الزراعية او كل ما ينقصه وما يريدّه ايضاً في الغالب من منازلهم : وهذا ما يعرف بحق الاقتطاع .

ان هذه الحقوق السيدية، المختلفة بين سيادة واخرى، التي تنوء بثقلها على كافة الرعايا بالتساوي، سواء كانوا مالكيين او مستثمرين، وسواء كانوا احرار التصرف بشخصهم او غير احرار، تمثل في القرن الثاني عشر، بالنسبة للسيد، دخلاً اجلاً فائدة من كافة واردات الاملاك؛ فاستغلال حق القيادة انما هو ما وفر لحكام الحصون وللجمعيات الرهبانية الكبرى اهم الموارد ورفعهم الى مرتبة دونها مرتبة الفرسان العاديين الذين لم يستفيدوا الا من كراء

اراضيهم . وتشكل هذه الموجبات كذلك ، بالنسبة لمن تفرض عليهم ، عبثاً دونه الفرائض المقارية ، وينطوي بعضها على المزيد من الازعاج ، لا سيما فريضة الاقتطاع التي نظر اليها الكثيرون نظرتهم الى السرقة ، والتي ارغمت على التظاهر بالفقر وقضت على روح التوفير . انما يجب الا ننسى ان هذه « العادات » هي ثمن الضمانة والسلامة ؛ فبفضل السيد يسود النظام داخل الجماعة ؛ كما ان كل تمكبر للامن يقمع بصرامة يزيد في شدتها ان السيد ، وهو الحريص على احقاق الحق ، لا ينتظر شكاوى الضحايا كي يطلب تدخل عملائه . فلهذا السبب ، ولان الفلاح الجاضع للسيد الحاكم غير مرغى على تأمين الدفاع عن نفسه ، كانت الروابط المائلية في الطبقات الدنيا اقل منها وثوقاً في طبقة الاشراف . بيد ان التجمع هنا ايضاً امر مرغوب فيه لانه يتيح دفاعاً افضل ضد المطالب السيدية : فقد وقف الفلاحون تدريجياً ضد استخدام حق النفي ، خلال القرن الحادي عشر ، في اطار القرية ، حول المعبد ومقبرته ، وهما مكانان يحميها سلم الرب بصورة خاصة ، وباستطاعة الفلاحين ان ينجوا فيها من اشد اعمال العنف والمصادرات ازعاجاً - وحول الاخوية التي هي جمعية صلاة وتساون متبادل . وهكذا تكونت الخلية الاساسية في المجتمع الريفي ، اعني بها الجماعة القروية ، اي جمعية عمل يستمتع اعضاؤها بامتلاكات وحقوق عرقية جماعية ويتفقون على تنظيم استثمار الارض وعلى جمع القطيع المشترك في الاراضي البائرة وعلى تنظيم الدورات الزراعية - وجمعية دفاع ايضاً تحافظ على « العادة » ، وتعارض استعدادات السيد ، وتتوصل احياناً ، في القرن الثاني عشر ، الى حل هذا الاخير على تخفيف نظام النفي .

هذا هو ، بخطوطه الكبرى ، نظام المجتمع الاقطاعي . اجل ، ان هذه اللوحة الاجالية ، التي تنطبق على مملكة فرنسا ، قد لا تنطبق جملة على كل مجتمع اقطاعي ، لان اوربا متنوعة المناطق والسكان . فالانظمة الاقطاعية ، في المناطق الجنوبية مثلاً ، اقل رسوخاً الى حد بعيد ؛ وفي المانيا ، ابقى استمرار السلطة الملكية ، الى جانب نظام الاقطاع « *Lehnrecht* » الذي ينظم العلاقات الناجمة عن الاقطاع ، على القانون البلدي المقاري « *Landrecht* » ، الذي يمكن تطبيقه على كافة الرجال الاحرار ، نبلاء كانوا ام فلاحين ؛ وقد جهلت بعض المناطق الاخرى ، كنطقة الفريز ، مثلاً ، حكم السيد والاقطاع ؛ اصف الى ذلك اخيراً ان قيام العلاقات السياسية والاجتماعية في البلدان الشالية التي دخلتها النصرانية ، اي الجزر البريطانية وسكندنافيا والساكس ، لم يتحقق الا بتأخر زمني محسوس : وهكذا فقد تألفت معظم فرق الفرسان الانكلو نورمندية ، حتى السنة ١١٠٠ ، من مفارمين فقراء لا يملكون فتراً من الارض ، دخلوا الخدمة جنوداً منزليين يعيشون على طاولة اسيادهم ، ولم تصبح ارسوقراطية اقطاعية الا ببطء وبعد مرور زمن طويل .

وعلى الرغم من ذلك فقد ارتكز التنظيم الاجتماعي ، بصورة عامة ، الى تحديد النشاطات : فهناك نخبتان ، اسندت الى احدهما الوظائف الروحية والى الاخرى المهام العسكرية ،

بتعمدهما عمل جمهور الفلاحين . لذلك كان مستوى حياة رجال الكنيسة والفرسان رهن انتاج العمل الريفي ؛ وما زال هذا الاخير ، في منتصف القرن العاشر ، انتاجاً هزلياً يكاد لا يكفي لاعالة رجال الاكليروس والنبلاء ؛ فاذا ما ارتفع ، وزادت المحاصيل الزراعية ، استطاع المخصصون للصلاة والحرب الحصول على نصيب اوفر من الثروة والتصرف به لرفاهيتهم والنفقات البذخية ومشاريع الفتوحات النائية والابحاث الفنية والفكرية . وبلغت للنظر ان نقطة النشاطات الريفية تبرز بالضبط حوالي السنة ١٠٠٠ التي كانت منطلقاً للحضارة الغربية .

٢ - النمو الاقتصادي

ان استئناف النشاط الاقتصادي الذي لاحت دلائله منذ العهد الكارولنجي قد برز بصورة حاسمة ، في اوروبا ، حوالي السنة ٩٥٠ ، بعد ان حالت دونه ، طيلة قرون ونيّف ، الغزوات النورماندية والاسلامية والهنغارية . في هذه الفترة ، كما يبدو ، اي في العقود القليلة التي سبقت السنة ١٠٠٠ ، انتشرت بسرعة في الارياض المسيحية ، التي اعيد تعميرها ، عدّة اكتشافات تقنية ذات نتائج عظيمة جداً . اجل كانت هذه الاكتشافات قديمة العهد ، ولكن تطبيقها في الغرب قد بقي محدوداً حتى ذاك التاريخ . يتعذر في الحقيقة تتبع هذا الانتشار لان الادلة المباشرة ، واعني بها آثار الادوات او رسوما ، نادرة جداً ويصعب تحديد تواريخها ، ولان النصوص لا تنطوي الا على القليل القليل من المعلومات . ولكن كل شيء يحمل على الاعتقاد بان الانطلاقة الكبرى في الغرب ترتبط آنذاك ارتباطاً وثيقاً بتبدل اسامي في الطرائق الزراعية ، اي بشورة حقيقية بيطيئة اتاحت انتاج مزيد من المواد الغذائية بجهد اقل منه في السابق ، فقلبت ظروف الحياة الاقتصادية رأساً على عقب .

ان هذا التبدل على جانب كبير من التعقيد ويتناول شتى عناصر الطرائق التحسينات التقنية الزراعية ؛ بيد انه يجدر بنا ، في سبيل توضيحه ، ان نعرض التحسينات المختلفة التي تترابط في الواقع ارتباطاً وثيقاً وتتداخل تداخلاً مستقلاً . يقوم التحسين الاول في استخدام قوة المياه الجارية استخداماً افضل ؛ فيبدو ثابتاً ، منذ القرن العاشر ، ان مجاري المياه قد نظمت وحولت مياهها الى اقنية وخزانات وشلالات معدة لتحريك مطاحن الحبوب ومعاصر الزيتون . فاغتنت المطاحن المسائية عن الهواوين والمطاحن اليدوية ، ورفعت عن اليد العاملة المنزلية عبء تحضير الحبوب الذي كان عملاً شاقاً جداً ، واتاحت لها الانصراف الى مهام اخرى اعظم انتاجاً . وفي الوقت الذي استخدم فيه الناس الطاقة المائية توصلوا الى استخدام قوة الجرّ الحيوانية استخداماً افضل ايضاً ؛ فقد ظهر وانتشر في الوقت نفسه تحسين عظيم في اساليب ترويض الحيوانات ؛ فاستعاض بالطوق الصلب عن لبّ الحصان الرهل الذي كان يخنق الحيوان وينقص قوته انقاساً

محسوساً ؛ اما نير الثور الذي احكم صنعه وفاقاً لقوى الحيوان الفاعلة ، فقد نقل من الكاثبة الى القرون . ويرتبط بهذه التقدمات الاولى تحسن في الادوات : فقد استمعيض ، في المذرة والمحرقة ، عن الخشب بالحديد ، فقدت الاداة اعظم فائدة ؛ واخذ الناس يستخدمون المسلفة ؛ واستطاعوا بصورة خاصة ربط آلات زراعية اعظم طاقة الى دواب مقرونة ازدادت قوتها . فقد انتشر آنذاك في كافة مناطق اوربا الشمالية ، وفي كافة الاراضي الخصبه التي لا يخشى أن تتضرر بالحراثة العميقة ، استخدام المحراث الكبير الثقيل ذي العجلات والمقلب ؛ اما المحراث الخشي القديم ، الذي لا يقلب الا وجه الارض ، فقد خصص تدريجياً بالاراضي الحضاضة الجافة .

قلبت الارض قلباً افضل وهويت تهوية احسن ، واستفادت ايضاً من تقدم طرق اخصائها ، واصلاحها بالسجّل ، وهي طريقة انتشرت في غربي فرنسا ، وربّما الذي اعتمد على نطاق واسع في لومبارديا منذ اوائل القرن الثاني عشر ؛ فتحسن من ثم انتاج العمل الزراعي وحدثت اخيراً ثورة في تحديد مواعيد زرع الحبوب المختلفة ، فجلت تدريجياً محل نظام الدورة الرومانية التي تتجدّد كل سنتين ، ومحل طرائق بدائية اقل انتاجاً ، كالزراعة المتنقلة او المؤقتة ، او زراعة الارض المحرقة ، الدورة التي تتجدد كل ثلاث سنوات ؛ اجل لقد جرى هذا التبدّل بكل بطء (اذ ان الطرائق الجديدة قد ادخلت ، كما يبدو ، في العهد الكارولنجي وفي الاراضي الملكية والرهانية الواسعة) ولن يكون الا جزئياً ، ولكنه بشكل تقدماً حاسماً . فقد سمحت هذه التقنية بزراعة الارض سنتين من اصل ثلاث بدلاً من سنة من اصل سنتين وحققت زيادة في انتاج المواد الغذائية تعادل نصف الانتاج السابق على الاقل ، وانتشر مع الدورة الجديدة استعمال القرطمان الذي آثره الفلاحون على الشمير . فقد استخدم في اغلب الاحيان حساء لتغذية الانسان ؛ كما استخدم لتغذية الماشية جزئياً ايضاً فاسهم في رفع عددها وتحسين نوعها . وانتشرت بصورة خاصة تربية الحبول ؛ وكان لهذه الظاهرة الرئيسية ، التي غدت اساس تبدل كلي في اساليب الحرب ، ووجهت من ثم تطور الارستوقراطية الغربية ، صدها البعيد في الاقتصاد الريفي : فمنذ اواخر القرن الحادي عشر اخذ الحصان يقوم مقام ثور الفلاحة لانه يفوقه سرعة في الحركة ويساعد ، بحراثة الارض مراراً متعددة ، على زيادة الانتاج ، مع ان تعمه اعظم اكلافاً . تلك هي الاستحداثات التقنية الهامة . ولنشر ايضاً الى انها استخدمت ببطء ايضاً ، في اهم المشاريع الزراعية اولاً ، وان مركز انتشارها كان ، على ما يبدو ، السهول الغرينية الكبرى في المقاطعات الفرنجية القديمة بين نهري اللوار والرين ، وانها لم تدخل فعلاً ، خلال القرون الوسطى ، سوى ارياف جنوبي انكلترا وفرنسا والمانيا الشمالية ؛ اما جنوبي فرنسا فقد حافظ ، لاسباب مناخية مجتة ، على العادات القديمة ، اي على المحراث القديم وزراعة الارض دورياً كل سنتين .

احدثت هذه الثورة التقنية تجدداً كلياً في الحياة الريفية . فجاءت الحصاد ، في كافة المشاريع الزراعية ، وبالمجهود نفسه ، اهم منها في

الانتاج والسكان

السابق الى حد بعيد . ولم يعد للسيد من حاجة ، بغية زراعة القطع الكبرى الصالحة للحراثة في اراضيه الاحتياطية ، لذلك الجيش اللعجب من المسخرين : اذ ان بعض الافراد يكفون للقيام باعمالهم . فهو بالتالي لا يستدعي الآخرين بل يتفق معهم على ان يدفعوا له ، عوضاً عن هذه الخدمة ، بعض المال او محصولات زراعية . وهكذا زالت تدريجياً معظم اعمال التسخير التي فرضت في املاك الاسياد خلال العهد الكارولنجي . ففي السنة ١١١٧ مثلاً ، ابدلت برسم نقدي ايام العمل الثلاثة المفروضة اسبوعياً للسيد على بعض مزارعي دير « مار موتي » الالزامي . الا ان هذا الطراز نفسه من الاعمال التسخيرية قد استمر حتى منتصف القرن الثالث عشر في بعض املاك الاسياد من المنطقة الباريسية . ومع ذلك فقد توقف شيئاً فشيئاً اسهام المزارعين الزراعية التابعة للسيد في استثمار الاراضي الاحتياطية ، باستثناء بعض الايام التي تحددها روزنامة الفلاح والتي توافق نبت المزروعات ، وخلال مرحلة الحراثة بنوع خاص . ثم ان ابدال الخدمات القديمة بالآلات ، وهو نتيجة مباشرة لتحسن التقنيات ، قد درّ على سيد الارض موارد اضافية : آتاوات عينية تؤمن له قموين بيته وتتيح له انقاص مساحة اراضيه الاحتياطية وتأجير قسم منها وزيادة عدد المزارعين ومن ثم زيادة الارباح ، وآتاوات نقدية تتيح له شراء مزيد من الاراضي . ففدا السيد ، والحالة هذه ، اقل ارتباطاً بأرضه ؛ واحتل الدخل الدائم في ايراداته مكاناً متزايد الاهمية ؛ واخذت مشاريع الاعمال الزراعية ، في املاك السيد ، تنفتح شيئاً فشيئاً على الخارج .

اما في الاراضي التي يستثمرها الفلاحون ، فقد اتاح تزايد انتاج ادوات العمل وتناقص اعمال التسخير التي استأثرت دورياً في الماضي بقسم من اليد العاملة المنزلية ، الحصول من الارض على حصائد اوفر . اجل ، لقد توجب عليهم تسليم او بيع بعض هذه الحصائد لتسديد الآتاوات التي تقوم مقام الخدمات القديمة او لتلبية مطالب السيد الجديدة . بيد انهم يحتفظون بغائض كاف لتأمين تغذية أفضل لعائلاتهم التي تنعم ببعض اليسار في ارض زاد جنيها دون ان تزيد مساحتها : فكان هذا دواء ناجحاً لمعالجة سوء التغذية المزمن ، الذي ثقلت وطأته منذ قرون على العالم الريفي ، ورفع نسبة الوفيات بين الاطفال وحال دون ازدياد عدد السكان . ففدت الجماعات نادرة بعد السنة ١٠٠٠ وانتهت الى الزوال ، بينما اخذ عدد سكان البلدان الغربية يزداد باطراد . يتعذر لمعري تحديد اهمية هذه الظاهرة بسبب افتقارنا الى الاحصاءات الدقيقة ، ولكننا نستطيع ، على الرغم من ذلك ، ملاحظة مداها الهام : فبحسب احد التقديرات المقبولة النادرة جداً ، ارتفع عدد سكان انكلترا من ١١٠٠٠٠٠ في السنة ١٠٨٦ الى ٣٧٠٠٠٠٠ في السنة ١٣٤٨ ؛ واذا ما اعتبرنا ان ارتفاع عدد السكان قد سبق العقود الاخيرة من القرن الحادي عشر بزمان بعيد ، جاز لنا القول بان عدد سكان اوروبا الغربية قد ازداد ، خلال القرون الثلاثة التي عقيبت السنة ١٠٠٠ ، ثلاثة او اربعة اضعاف ما كان عليه قبل هذه السنة .

يتميز هذا الارتفاع ، في بدايته ، بارتفاع كثافة السكان في الاراضي الزراعية القديمة اولاً :

فالمساحة نفسها من هذه الاراضي قد تؤمن الغذاء ، دون جهد يذكر ، لعدد اكبر من الناس ؛ كما ان نصف او ربع الارض العائلية القديمة يكفي اليوم لتغذية عائلة من المزارعين ، لذلك فقد قسمت الاراضي التي يستثمرها الفلاحون جزأين او اربعة اجزاء ، فارتفع ، بالفعل نفسه ، عدد المساكن والسكان في القرية . ولكن ارتفاع كثافة السكان قد رافقه بسرعة توسع الاراضي المزروعة على حساب المساحات المهمة ، لانها كانت ، بسبب وضع التقنية ، اما قليلة الانتاج واما صعبة المعاملة . وهناك ثلاثة وقائع متوافقة كانت منطلقاً لنهضة احياء الارض الكبرى التي ابتدأت ، وفاقاً لمناطق النصرانية ، ما بين السنتين ٩٥٠ و ١١٠٠ : استخدام وسائل جرد وادوات حراثة اقوى من ذي قبل قادرة على استئصال الارومات العميقة وقلب الاراضي الكثيرة الاتربة التي برهن المحراث القديم حتى اليوم عن عدم جدواه فيها ، وفائض اليد العاملة التي حررها اعتماد الطرق الزراعية الفعالة ، وارتفاع عدد الولادات التي يقابلها نقصان الوفيات بين الاطفال .

اسهم الفلاحون والاسياد المقاربون في هذه المشاريع المدة لتحويل الاحراج
احياء الاراضي والمستنقعات ، شيئاً فشيئاً ، الى اراض منتجة . وغالباً ما سبق الفلاحون الاسياد الى النهوض بهذا العمل ، لان استثمار الاراضي القديمة الصالحة للزراعة يتطلب جهداً اقل منه في السابق : فبعد ان ينهي رب العائلة اعمال الحراثة يبقى امامه متسع من الوقت لاصلاح الاراضي البائرة المتاخمة لحقله ، فيتاح له بذلك توسيع املاكه تدريجياً ، فيقوم في فصل الشتاء باحراق الاشجار الصغيرة وقطع الاشجار الكبيرة واستئصال الجذور ، وتصبح هذه الارض في الربيع مرجاً اخضر يمكن في السنة التالية حراثته وبذره ، وبعد ذلك غرس جفون الكرمه فيه ؛ واذا كانت الارض تعود لسيد يقظ ، فانه يفرض اتاوة على من اصلحها ، والاطالب الفلاح بضمها الى ارضه الوراثية . وهكذا ، بفضل هذا التقدم البطيء الذي أحرز على كافة تخوم المقاطعة ، اتسعت الارض المزروعة سنة بعد سنة . وما لبثت الحقول الجديدة ان باتت نائية عن القرية ، فاقام الذين اصلحوها مساكنهم فيها ، وهكذا برزت عند حدود المقاطعة مساكن متناثرة ، وغالباً ما وجد مصلحو الاراضي انفسهم وجهاً لوجه امام غيرهم ممن اتى من القرى المجاورة ، ففدت الاراضي البائرة ، التي كانت ، فيما مضى ، تمزل القرى عزلاً تاماً ، رقماً متشعبة مجدبة جداً . اصف الى ذلك ان ابناء الفلاحين ، حين يبلغون اشدّهم ، لا يتوقعون جميعهم الى العمل في املاك آباءهم ، فيضطر بعضهم الى البحث عن الثروة في غير مكان ، ويتوجه من لا يذهب منهم نحو المدن ، او من لا ينضم الى جمهور الاخوة المساعدين في الاديرة الجديدة ، الى الاسياد ذوي الاملاك الحرجية الواسعة حيث يقيمون مع بعض رفاقهم ويكوّنون في قلب الاحراج ارضاً زراعية جديدة ، بعد اعتماد الزراعة المؤقتة على الارض المحرقة : هؤلاء هم « الضيوف » وقد ثبت الدليل على وجودهم في كافة المساحات المهمة التي الفت كلها في المهد الكارولنجي جزراً مقفرة بين الواحات الآهلة بالسكان .

اما الاسياد العقاريون فقد حدث لهم ان وسعوا استثمارهم المباشر ، كما حدث لهم ، بغية الاستفادة الى اقصى حدود الاستفادة من عمالهم الميزلين الذين اصبح لديهم متسع من الوقت ، ومن اعمال تسخير المزارعين التي لم تستبدل بالآلات ، ان اقدموا على زراعة بعض اقسام اراضيهم الاحتياطية المتروكة مراعي او احراجاً . بيد ان معظم الاسياد سعوا في الدرجة الاولى وراء زيادة دخلهم الدائم والاكثر بالتالي من المشاركات الزراعية . فقدموا لطالبي الاراضي من الفتيان قطعاً بكرة وطلبوا اليهم استثمارها ، وغالباً ما امنوا لهم ، رغبة في استئجارهم ، الادوات وحيوانات الجر والمال اللازم لمباشرة العمل ، ورفعوا عنهم ، بصورة عامة ، الآثاوات المزجعة ، وتعهدوا لهم بعدم استيفاء ضريبة القطع التمسفية وبتحصيل الضرائب الاخرى بنسبة مقبولة : فكان على المزارع ، بعد ان يحصل على الضمانات التي تقيه مخاوف الخسارة في السنوات الاولى ، ان يقدم للسيد قسماً من حصائده يتراوح بحسب المناطق بين ١/٤ و ١/١٢ ، بالاضافة الى البديل الضئيل الذي يدفعه لقاء اقامته في البيت الذي يشغله . كانت هذه الشروط مغرية ، وقد اذيع خبر حسناتها في المناطق البعيدة احياناً فافضت الى تنقلات السكان مسافات بعيدة ، من المناطق المأهولة قديماً والكثيفة السكان الى القطاعات الزراعية المستحدثة ، كالتنقلات التي جرت في اوائل القرن الثاني عشر مثلاً وانتهت بسكان سنتونج ، الى مناطق مصب نهر الفارون ، او بالفلمنك ، الى مستنقعات سواحل البحر الشمالي بين نهري الفيزير ، والالب .

كانت نتيجة هذا الاستثمار الزراعي النشيط تبداً سريعاً في منظر الارياف الغريبة . فتناقصت المساحات المجدبة المهمة في كافة الاراضي السيديّة ؛ وقد بلغ من هذا التناقص احياناً ان اختل توازن الاقتصاد القروي ، حين لم يبق سوى القليل القليل من القطع المحرجة التي توفر ، بالاضافة الى خشب التدفئة ومختلف الحصاد ، المادة الخام لمعظم المصنوعات القروية والبلوط لتغذية الخنازير ، وتؤلف احد العناصر الاساسية في النظام الزراعي - او من تلك المراعي والاراضي الهادرة التي لا مناص منها لتغذية المواشي بسبب ندرة المروج وفقدان زراعات الكلا . وتجزأت الاحراج الكبرى التي تخللتها الفسح الجديدة ، وبرزت « الارياف » وقامت القرى الكبيرة ذات التخطيط المنتظم في « السهول » المفتوحة ، حين كان اصلاح الارض جماعياً ، اما « الغابة الظليلة » فقد قسّمت غابات صغيرة قامت بينها المشاريع الزراعية التي انتشرت في وسط البراحات ، حين استثمر الاراضي السيديّة مستعمرون منفردون . وكذلك نمت الزراعات اخيراً على جنبات السواحل الرسوبية وفي مستنقعات الوديان على ضفاف الانهار الكبرى ؛ فالحرب هنا لم تعلن على الشجرة بل على الماء ، وقد اوجب الفتح ، المستند الى شبكة من السدود ، تدبيراً جماعياً لتصريف المياه يكله نظام جماعي شديد ، للعناية بجهاز الوقاية . فتزايدت في كل مكان الاراضي التي تنتج الحبوب ؛ وقد بلغت هذه الزيادة ذروتها في منتصف القرن الثاني عشر ؛ وجاءت اعمال احياء الارض ، التي انضمت نتائجها الى نتائج التقدم التقني ، تزيد في حجم المواد الغذائية وتليح ارتفاع كثافة السكان .

انتقال الممتلكات والسكان
وكانت النتيجة المباشرة لهذا الازدياد في مواد الاستهلاك وعدد السكان نمواً في حركة المقايضات . في السنة ١٠٠٠ ، تمثلت طبقة « العمال » تمثلاً شبه حصري بفلاحين عندوا في الحصول ، من اعمالهم الزراعية ، على ما يؤمن معيشتهم ويسد حاجات الفرسان والاكليروس الضرورية ؛ وباستثناء حالات نادرة ، جرى انتقال الثروة ، عن طريق الاتوات ، داخل الاراضي الخاضعة للسيد التي هي شبه مغلقة . ولكن تحسن انتاج العمل الزراعي قد افضى شيئاً فشيئاً ، بفعل تزايد المشاركات وارتفاع الارباح من الرسوم النسبية المفروضة على الحصاد ، وربما بفعل ارتفاع قيمة الاعشار الكنائسية بنوع خاص ، الى تزايد محسوس في موارد الاسياد : مما حدا باعضاء الطبقات العليا الى رفع مستويات المعيشي وعدم الاكتفاء بالمواد الغذائية الضرورية لادومهم . واتاحت الظاهرة نفسها ، لعدد متزايد الارتفاع من العمال ، الانصراف عن الارض الى نشاطات غير زراعية بالضرورة ، والقيام باعمال جديدة ، كالصناعة اليدوية او التجارة ، تلبية لطلب الاغنياء . وقد تأمنت المواد الغذائية الضرورية لهؤلاء الاختصاصيين من فائض انتاج الاستثمارات الريفية ؛ الا انهم اضطروا لشراؤها بمالهم ؛ فتمددت من ثم المقايضات خارج اطار الاراضي الخاضعة للاسياد ، واتصفت العلاقات الاقتصادية بالانفتاح والمرونة ، وخضع انتقال الثروات لحركة حثيثة . فكانت النتيجة الطبيعية ان النقد احتل مركزاً اعظم اهمية في الحياة اليومية ، ومست الحاجة للدرهم ؛ فاعيدت الى التداول تدريجياً المعادن الثمينة المجمدة في خزائن الصاغة ؛ ولكن ذلك لم يكن كافياً ، فضربت في مصانع النقد قطع اخف وزناً وغياراً ؛ فعمت النقود وفقدت في الوقت نفسه بعض قيمتها ولا سيما قيمتها الشرائية وغدت من ثم اسهل تداولاً وامكن استخدامها آنذاك لتأمين عمليات الشراء اليومية . وكانت النتيجة الاخيرة للتوسع الاقتصادي ارتفاعاً بطيئاً ومستمرأ في الاسعار ؛ وبما كنا تقدير مدى هذا الارتفاع متى علمنا ان ثمن الحبوب ، في احدى مناطق فرنسا ، سيصبح في اواخر القرن الثالث عشر اعلى منه في السنة ١١٠٠ بعشرين ضعفاً .

وقد لفت انتباه المعاصرين ، بعيد السنة ١٠٠٠ ، بين كافة مظاهر النهضة العامة في العلاقات بين السكان ، كثرة الاسفار وتعددتها والحركة النشطة المفاجئة على الطرقات . فقد سهل التنقل احياء الاراضي الذي قلل من العراقيل الطبيعية (الاحراج الواسعة ومستنقعات الوديان) واسهم من ثم في تقريب المسافات بين الجماعات البشرية . بيد ان تقنيات هذا التنقل ما زالت بدائية : فليست العربات متوفرة بعد ، والانهار والبحر هما للجميع اسهل الطرقات والوسيلة الوحيدة لنقل الاحمال الثقيلة ؛ اما في البر فينقل المشاة والدواب ، في الاكياس او على الاجلال ، مواد غذائية خفيفة الوزن وغالية الثمن بكميات صغيرة جداً ، الا انهم يسلكون طرقاً مختصرة غير محددة قد تفرضها هنا وهناك بعض نقاط المرور الاضطرابي كالجواز او الجسر او الخاضة ، والاديرة وبيوت الرب المشيدة حديثاً التي تؤوي الضيوف مجاناً .

على الرغم من بقاء المسير ومشاق الطريق وخطارها ، كثيرون هم ، في القرون الاقطاعية ،

الذين يهجرون عائلاتهم او جماعتهم ويقومون بالاسفار : رجال او نساء ، اكليروس او رهبان فرسان او ائاس من الطبقات الدنيا . فالسفر هو اعظم هو آنذاك ، وافضل وسيلة لرجل الدرس والبحث كي يزيد معارفه ويطلع على كتب اخرى او يخاطب معلمين آخرين ، ولغير الابكار من الابناء كي ينجوا من وصاية النسب المملة . ولعل المكوث في مكان واحد اقسى واجب يصعب على الرهبان احترامه . فكل حجة للتنقل مستحسنة ، وغالباً ما يكون الحج مناسبة للسفر . وتأتي حينذاك في رأس الممارسات التقوية زيارة بعض الاماكن المقدسة - وهي عادة وثيقة الارتباط بعبادة الذخائر : والمقصود هو الاقتراب بالجسد من بعض الحاجيات التي تشع بنعم فائقة الطبيعة منذ ان لامستها في الماضي اجسام القديسين . وغالباً ما تكون هذه الزيارة كفازة تطهر من الخطايا المميتة ، ووسيلة ايضاً للحصول على مساعدات فورية ، واشفاء الجسد من الامراض ، ولاستئالة القوى الروحية . وهكذا فان الرجال يحتشدون في بعض التواريخ حول بعض المعابد المعجائية (وقد سبق ورأينا ان الحرص على اعداد الكنائس لاستقبال هذه الجماهير هو في الاساس من تحويرات التصميم والتجديدات الهندسية قبل القرن التاسع) ؛ ومنذ السنة ١٠٠٠ اتسمت حركة الحج الروحي هذه ، فاخترت القسم الاكبر من الحجاج آنذاك ، هدفاً لزياراتهم ، اما روما ، واما اورشليم والاماكن المقدسة في فلسطين ، واما مدفن القديس يعقوب في كومبوستيل .

لم يكن هؤلاء المسافرون ، الذين يسرون على مهل ، لينقلوا مؤناً غذائية تكفيهم طيلة سفرهم ؛ ولم يكن بمكنتهم كذلك الاعتماد ابدأ على الضيافة المجانية في المؤسسات الخيرية ؛ فحملوا من ثم نقوداً كي يدفعوا في طريقهم اكلاف مأواهم وغذائهم وغذاء دوابهم ونقلهم بحراً . وسدوا هذه النقود لبائعي المحاصيل الزراعية ، واصحاب الفنادق المقيمين على جنبات الطرق ، واللاحامين ، والجنابزين ، الذين اخذوا آنذاك يقيمون باعداد متزايدة في امكنة التوقف ويجمعون ثروات طائلة ، كما تؤيد ذلك المستندات . فانفتحت من ثم امام المستثمرين الزراعيين اسواق جديدة بفضل حركة التنقل المتزايدة : فهدا باستطاعة الفلاحين تصريف قسم من فائض حصائهم ، وانتشرت النقود في الاوساط الريفية .

بيد ان المزارعين الصغار لم يستفيدوا في الحقيقة استفادة كبرى من هذه الاموال ؛ فان القسم الاكبر من حصيلة مبيعاتهم قد عاد الى خزائن الاسياد الذين وفقوا قوانينهم الجبائية لاتساع حركة التداول النقدي ، باحلال الاتاوات النقدية او العينية محل الخدمات القديمة ، وبالكثار من الموجبات ورسوم القطع . وانتهت النقود التي انتشرت بواسطة المسافرين الى الاسياد (الذين قاموا مباشرة احياناً بمقايضة فائض مواردهم ، ولا سيما موجودات اهرام جمع الاعشار القائمة على مقربة من الطرق الكبرى ، بالمواد الغذائية) فكان حكام الحصون وافراد المؤسسات الدينية ، الذين يجوبون رسوم القطع الهامة والغرامات القضائية الطائلة الارباح ، اول من استفاد من هذه

الحركة . فبات باستطاعة اعضاء الارستوقراطية الكنائسية والعلمانية ادخال زيادة محسوسة على نفقاتهم . واستخدم رجال الكنيسة بنوع خاص مواردهم النقدية الجديدة لتجميل المعابد : فشيّدوا بدرانهم ابنية جديدة واسسوا مصانع نقاشة واشتروا للمواهب حلا كهنوتية جديدة ؛ وان هناك لصلة وثيقة بين الازدهار الفني في اواخر القرن التاسع ونمو صناعات التخصص ، ولا سيما صناعة النقاشة ، وبين نهضة الاقتصاد النقدي .

اما الفرسان فقد ضحوا بامكاناتهم المالية على مذبح رغبتهم في الظهور ، وفي التألق في الجمعيات العالمية ، وهي من ملاذ النبلاء الاولى . فما عادوا يقيمون بلتاج املاكهم والصناعة المنزلية ، بل تمعدوا البذخ : بذخ المائدة ، الذي حصل على تقديم الاصناف النادرة للضيوف ، والنبذ في المناطق الشمالية ، والتوابل في كل مكان ؛ وبذخ الزينة الذي حل على اهل المنسوجات المتبدلة واقتناء الفراء والاقمشة الاجنبية الثمينة والاجواخ ذات الالوان النادرة . اضاف الى ذلك ان الميل الى المصنوعات المستوردة الجميلة ، الذي لم يتخف في يوم من الايام والذي حافظ على حركة تجارة طويلة المسافات في عهود الانكماش الاقتصادي ، قد زاد بصورة مفاجئة واحداث توسعا جديدا في تجارة المواد البذخية . وبينما تزايد شراء المصنوعات الشرقية الذي قابله تزايد في التصدير الى البلدان الاسلامية ، نشط ، داخل العالم الغربي ، انتاج ومقايضة بعض السلع الثمينة : تجارة الخمر بين مناطق السين والواز ، التي قامت فيها اقصى الكروم الشمالية ، وضاف الوار ، وسواحل الاطلسي ، وبين انكلترا وهولندا ؛ وانتشار الالبواخ الممتازة المنسوجة والمصبوغة في مدن مقاطعتي الاروا وفلاندر ، فنشطت بذلك حركة انتقال البضائع في الوقت الذي نشطت فيه حركة تنقل الحجاج . ومن المستحدثات التي تثبت الاتساع المطرد في النقل التجاري ان حكام الحصون ، وقد اغرتهم المصنوعات الثمينة التي تمر تحت حمايتهم في الاراضي الخاضعة لسلطتهم ، فرضوا ، في النصف الثاني من القرن الحادي عشر ، رسوما جديدة تناولت سلع الترانزيت ، واضيفت الى الرسوم القديمة المفروضة على عرض هذه السلع في الاسواق . وتألفت داخل طبقة العمال طبقة اقتصادية بلغ من اهمية عدها في اوائل القرن الحادي عشر انها كانت موضوع شروط خاصة في ايمان سلم الرب ، وقد تمت باطراد ضامة اولئك الذين يؤمنون لاعضاء الطبقات العليا المصنوعات البذخية التي يطلبونها : اعني بها طبقة التجار .

كان بين اختصاصي التجارة بعض افراد الجماعات الاسرائيلية في المدن القديمة التجارية التي تطلعت في اوروبا ، خلال مرحلة التقهقر الاقتصادي ، مستعمرات التجار الشرقيين القدماء واسهمت ، كما هو طبيعي ، في اتساع حركة المقايضات . بيد ان المسيحيين الذين اخذوا يحنون الارباح من الاعمال التجارية قد ارتفع عددهم باطراد : الوكلاء الذين اسند اليهم سيدهم مهام تجارية فمعدوا في الوقت نفسه بعض الصفقات لحسابهم الخاص وانتهوا الى الاستعفاء من وظائفهم الاولى ؛ وبعض العاملين في الطرقات والانهار الذين وظفوا في التجارة الاموال الاولى

التي جنوها من خدمة المسافرين ؛ وبعض ابناء الفلاحين الذين اضطروا للزواج عن املاك عائلية ضاقت بسكانها وآثروا المغامرة بتعاطي التجارة الصغرى على العمل الشاق في احياء الاراضي . كل هؤلاء كانوا تجاراً متجولين . والجمال لم ينفصح بعد امامهم حتى يستطيعوا انتظار الزين في بيوتهم ويستحضروا البضائع من الاماكن النائية دون ان يكلفوا انفسهم مشقة الانتقال: فالبحث عن البضائع حيث تكون وافرة ومعتدلة الاسعار، ونقلها وعرضها على من يمكنه شراؤها باسعار مرققة، والاسراع، في مكان البيع، الى شراء السلعة الموافقة التي يمكن بيعها في غير مكان، والانتقال بعد ذلك الى مكان بعيد آخر، تلك كانت حال تاجر ذاك العهد، وهي شبيهة كل الشبه بحال البائع المتجول؛ وطابعها المميز هو الحركة، التي اشار اليها المعاصرون، بحيث ان تسمية الحاكم الناطرة في الخلافت التجارية الصغرى بـ « حاكم الاقدام المغبرة » قد استمرت في انكلترا النورمندية زمناً طويلاً بعد ذاك العهد .

كان هذا النشاط في الحقيقة جزيل الفائدة، ويبدو ان عدد التجار الذين اثروا بسرعة كان كبيراً جداً، اذا ما اخذنا بين الاعتبار الكراهية الدائمة التي استهدفت المهنة التجارية وسوء نية التجار الذين كانوا، في شيخوختهم، يقدمون للكنائس والفقراء كميات ضخمة من الفضة والذهب كفارة عن الخطايا التي ارتكبوها، بحكم تجارتهم، ضد محبة القريب: فهذا « بنتلكون »، احد سكان أمانلي، الذي توفي في السنة ١٠٧١، قد وهب كنيسة القديس بولس القائمة خارج الاسوار في روما ابواباً برونزية طلبها من بيزنطية، وشيد كنيسة القديس ميخائيل في جبل غارغاو وجهرز وتعمد بعض المستشفيات في انطاكية واورشليم .

غير ان حياة التاجر محفوفة بالاعطال ايضاً: اذ عليه الدفاع عن امواله في الاسفار، ومقاومة جباة رسوم الترانزيت الذين يحاولون ان يأخذوا منه كل ما لديه من اموال، وتحصيل ائمان بضائعه من الزين النبلاء؛ وعليه ان يكون شجاعاً ويحتاط للخطر بحمل السلاح؛ وغالباً ما يتشارك التجار وينظمون القوافل كي يواجهوا الاعطال بقوة. اصف الى ذلك ان للتكتل حسنات اخرى: فكل تاجر يستفيد من خبرة رفاقه، ويحدث ان توحد الرساميل احياناً، فيتاح للتجار عقد صفقات اوفر كسباً.. في البدء كانت هذه الشركات، التي حملت اسماء مختلفة، مؤقتة ومؤسسة لرحلة واحدة، ثم ضمت، بصورة قانونية، وفي جماعة دائمة ومنضبطة نظمت تنقلاتها في مواعيد معينة وحددت خط سيرها سلفاً، كبار التجار في منطقة واحدة، وناقلي البضائع في نهر واحد، والمتوجهين الى مركز تجاري واحد. يلتقي التجار على اختلاف مناطقهم، سواء كانوا منفردين او منخرطين في هذه التكتلات المهنية لمقايضة سلهم في نقاط تقاطع طرقات التجارة الرئيسية، في اجتماعات تجارية كبرى؛ فان سوق العرض، وهي مركز سلم خاص في كنف سيد المنطقة الذي يعد لفترة من الزمن، لقاء رسم طفيف، بحرية المعاملات التجارية. وتوفير الحماية للجنين، جهاز اساسي للتجارة المتجولة؛ اما المدينة، وهي مأوى الاستراحة بين مرحلة انتقال واخرى، فجهاز اساسي آخر. فالحاجة ملحة الى مستودعات يقضي فيها التجار

اشهر فصل الامطار القاسية بانتظار فصل القوافل واسواق العرض. ولذلك فان حركة المقايضات التجارية وحركة التنقل على الطرقات قد احدثنا نهضة في الحياة المدنية في الغرب .

نهضة الحياة المدنية
ان المجموعات السكنية الجديدة ، اي « الضيع الكبرى » - هذا هو الاسم الذي اطلق عليها آنذاك ، وغالباً ما وصفت بـ « الجديدة » ، للايضاح - نشأت ونمت في موقع مناسب للانتقال ، لأن المدينة مكان اتصال ، وللدفاع ايضاً ، لان في المدينة ثروات يجب الدفاع عنها . فقامت من ثم ، على وجه العموم ، في جوار مدينة رومانية روعيت في تأسيسها سهولات الاتصال ، واحيطت بالاسوار ، وضمت بالاضافة الى ذلك مقر الاسقف والكنهنة القانونيين ومركز عدة اديرة ومحل اقامة بعض العائلات النبيلة في اغلب الاحيان ، وجمعت من ثم زبناً ثرياً دائماً . وقامت كذلك بعض الضيع الكبرى في جوار الحصون الهامة التي هي مراكز سلطات قضائية واسعة تقوم فيها حامية عسكرية كبرى يجب تمويلها ؛ او في جوار الاديار ، تلك المراكز المحصنة ايضاً ، التي تجتذب المسافرين من حيث هي نقاط لاجتماعات دينية دورية . ولكن الحي الجديد يكاد يبقى متميزاً ابداً عن النواة السكنية القديمة التي اسهمت في تعيين مكانه : وتنحصر في هذه الاخيرة ، المنكشئة وراء اسوارها ، المهام الدينية او العسكرية ، ولا يقيم فيها بصورة عامة سوى رجال الاكليروس والجنود ؛ اما الضيعة وهي في البدء مكان مفتوح قائم خارج الاسوار ، فتنتظم حول المكان المخصص للعمليات التجارية (المرفأ ، الساحة العامة) ، وهو في الغالب فسيح جداً تقام فيه سوق اسبوعية ؛ وتستطيل شوارعه ، التي تحيط بها الفنادق وفاقاً لاتجاهات السير الرئيسية ؛ ثم ان بيوتها نفسها ، التي يطل الدور الاول فيها ، بباب عريض ، على الشارع الذي يكثر فيه المارة ، تعبر عن الغاية التي من اجلها احدثت المجموعة السكنية : فهي وليدة الطريق ، وهي بالتالي مكان مرور وتجارة .

ينتسب الرجال الذين أسسوها وتجمعوا فيها الى اوساط مختلفة . فالبعض منهم ، وهم قليلون في الاربع ، « دون جنسية » ، يدخلون في عداد التجار الجوالين المجهولي المنشأ الذين توقفوا فيها يوماً وأسسوا عائلة . وينتسب شطر هام من السكان الى المدينة القديمة او الحصن او جواره : كالوكلاء ، وخدام الاسقف او حاكم الحصن او الدير ، وبعض فلاحي الضواحي السابقين ، الذين استهوتهم مكاسب التجارة فتركوا استثمارهم الزراعي وجمعوا بعض المال ببيع عقارهم وأسسوا عملاً . وينتسب معظم سكان الضيعة اخيراً الى الارياف المجاورة . الا انهم ، مهما كان منشأهم ، اندمجوا في طبقة اجتماعية واحدة ، البورجوازية ، التي اتضحت صورتها في منتصف القرن الحادي عشر ، وتميزت ، قبل أي شيء آخر ، بدور اقتصادي خاص : فأعضاؤها متخصصون في التجارة والصناعة البدوية ، حتى ولو لم يتجردوا تماماً عن الارض او ما زالوا يجمعون بعض الحنطة والنيذ من القطع التي يحتفظون بها في جوار الضيعة وحتى داخل نطاقها ، او حصلوا على استخدام المراعي السيدي (نسبة الى السيد) المجاورة لمواشيهم .

لذلك ليست الارض ، شأنها في غير مكان ، الثروة الرئيسية في المدينة ، بل احتياطي الفضة ،

سبائك او نقوداً ، والبضائع الثمينة المخزونة . ولذلك ايضاً تجمع الثروات في المدينة وتنهار بسرعة ، كما ان الرابطة العائلية اضعف منها في المجتمع الريفي لان النشاط المهني هنا وطبيعية الاملاك لا يخضعان للموجبات النسبية .

اذا كان المناخ الاقتصادي والاجتماعي مناخاً خاصاً جداً في الضيعة الكبرى ، فان تنظيم السلطة فيها مائل في الاصل لتنظيم السلطة في الارياض . فكثيرون بين سكان القرية ، ممن ينحدرون من فلاحين مهاجرين لم يعتمدوا كثيراً عن قريتهم الوالدية كي يتصلصوا من كافة روابطهم ، كانوا فداديين واتباعاً لشخصيين لاحد الاسياد ، وكثيراً ما ازعجتهم الخدمات ، التي الزموا بها نحو سيد شخصهم ، في ممارسة مهنتهم . اصف الى ذلك ان الضيعة الجديدة قد قامت في الارياض ، والارض التي ارتفعت عليها المساكن تؤلف على العموم جزءاً من اقطاعات ريفية قديمة ، واسياد الارض يطالبون شاغلي هذه القطع بالاتوات السابقة نفسها ، ولتقديم المواد الزراعية ، وحتى خدمات الحراثة . وخضعت المدينة كلها اخيراً الى حكم سيد او عدة اسياد ، وفرض اسقف المدينة ورئيس الدير وحاكم الحصن ، الذين استوفوا الرسوم نفسها المستوفاة في الاحياء الريفية من ممتلكاتهم ، الخدمة العسكرية اثناساء تنظيم الاسواق وجمعوا ضريبة القطع ، وكادوا ينتزعون من التجار رؤوس اموالهم ، ومارسوا اخيراً بعض الحقوق التي عرقلت اعمال المقايضة ، كامتياز الشراء بالدين ، وحق ارهاق التجار الغرباء ، وفرض الرسوم على الصفقات وانتقال البضائع . لذلك فان النظام السياسي في المدن لم يناسب دورها الاقتصادي . ولذلك ايضاً سوف يحاول سكان المدن الحصول من اسيادهم على تعديل نظام الحكم هذا مستخدمين بعض الاسلحة : احتياطي المعادن الثمينة الذي كدسوه والذي قد يغري من بيدم السلطة ، وعادات التضامن المكتسبة في الجمعيات التجارية ، وتدريبهم على خوض المارك بقوة ، وقسد حقوقه في تجولاتهم التجارية ، وممثلّ الجمعيات السلمية القائمة بين اعضاء طبقة الفرسان .

وفي سبيل تثبيت اقدامهم امام سيد السلطة ، اتحدوا في أغلب حركة التكتل البورجوازي
الاحيان ، المحاداً اشد وثوقاً ، في هيئة جماعة تضم كل الفئات وكافة رؤساء العائلات في القرية : اعني بها جمعية البورجوازيين . قامت هذه الجمعية ، شأن الجمعيات التي تألفت للدفاع عن سلم الرب ، على عين متبادلة ، واستهدفت ، في الدرجة الاولى ، المحافظة على الوفاق بين المتحالفين ؛ فالذين يعتمدون على سلم المدينة ، يقعون تحت طائلة عقوبات صارمة تنفذها الجماعة بحضور كافة اعضائها . ووسّدت هذه الهيئة كذلك كافة النشاطات الفردية بغية القيام بعمل جماعي ضد اعداء الجمهور . فكانت من ثم جمعية منضبطة يشرف على ادارتها ، كما هو طبيعي ، اوسع الاعضاء نفوذاً في اعظم الفئات قوة ، أي فئة التجار ، بوجه عام ، السقي تتوفر لديها اعظم الوسائل المالية .

برزت مقاومة البورجوازيات اولا في المقاطعات الغربية حيث ساعدت الحركة التجارية المتميزة بمزيد من النشاط على نمو المدن المبكر ، أي في المنطقتين اللتين تأثرتا منذ العهد الكارولنجي

بنمو حركة المقايضات : ايطاليا اللومباردية حيث بذلت ، منذ النصف الاول من القرن الحادي عشر جهود التجار الاولى (وهم هنا حلفاء طبقة الاشراف التي ألقت في المدن الجنوبية أقوى عنصر بين مجموع السكان) للافلات من قوة السيد ؛ وشمالى فرنسا حيث تألفت الجمعيات البورجوازية في « المان » في السنة ١٠٧٠ وفي كمبريه في السنة ١٠٧٧ ، ثم في بوفيه وكانتان ؛ وامتدت المقاومة شيئاً فشيئاً الى المدن المختلفة ، الصغرى منها والكبرى ، وافضت قبل السنة ١١٥٠ ، في معظم المراكز التجارية ، الى التخفيف من وطأة اقتسارات الحكام المزعجة . فرضي الاسياد ، تحت ضغط التمرد احياناً - في السنة ١١١٥ ، اقدم بورجوازيو « لان » على قتل اسقفهم الذي رفض تخفيف مطالبه - وتحت تأثير مبلغ كبير من المال غالباً ، واقتناعاً منهم بفوائد الاتفاق الذي يساعد على نمو المدينة ويؤدي في النهاية الى ارتفاع عدد رعاياهم ، بمنح الجمعية البورجوازية دستوراً ، أي عقداً خطياً ومذليلاً بالاختتام ، يضمن « الحرية » او « الاعفاءات » ، أي تخفيض الرسوم .

تضمنت بنود دساتير الحريات في الدرجة الاولى ، وبصورة عامة ، وعداً لكافة سكان المدينة ، وبعد انقضاء فترة من الزمن لتحدد عادة بسنة ويوم ، لكل من يقصدها للاقامة فيها ، بالاستقلال الشخصي : فحلت بذلك كافة روابط الفدادة والاستثمار التي كان من شأنها اخضاعهم وراثياً ، في السابق ، لرجل آخر - وزالت بالفعل نفسه الواجبات المفروضة على الاتباع ، كزواج الفدادي بخارج الاراضي السيدية ، وحرمانه من التصرف باملاكه اذا لم يرزق اولاداً ، وحظر التنقل عليه . اضيف الى ذلك ان العادات السيدية ، ان لم تلغ بكليتها (اذ غالباً ما يحتفظ السيد ببعض الامتيازات وبعض المكاسب) ، فقد انقصت انقاصاً عظيماً : فالخدمة العسكرية ، المطابقة على مضض ، لانها تعرقل التنقلات التجارية وقد تترغم على استعمال القوة ضد الزبن والعملاء ، قد الغيت احياناً وتحللت ابدأ ، واقتصرت صلاحية السيد القضائية ، على معاقبة الجرائم الفظيعة اذا تقدمت الضحايا بالشكوى ، وفقدت ضرائب القطع طابعها التمسلي ، والغيت بصورة خاصة كافة امتيازات السيد التجارية ، وكافة العراقيل المقامة في طريق الانتقال والتجارة والتردد بحرية على الممارض والاسواق .

كانت الجمعية البورجوازية ، بعد تحقيق هذه النتيجة ، تلتهى الى الانحلال في معظم الاحيان . فتصبح المدينة حرة آنذاك . ولكن غالباً ما يحدث ان يستمر التكتل البورجوازي حتى بعد احراز النصر وان يعترف بوجود الجمعية في الدستور ويوافق عليه . فتتحصل جمعية البورجوازيين بالتالي على الشخصية القانونية وترث قسماً من حقوق السيد الحاكم القديمة وتسمي سيادة جماعية : سيادة عسكرية ، اذ ان البورجوازيين ملزمون بحمل السلاح ، لاجل خدمة المدينة لا السيد ، ولأجل الدفاع عن مصالحها التجارية ولتأمين نجاح الجميع ؛ وسيادة قضائية ، اذ انت الصلاحية الاستثنائية التي حصلت عليها خلال النضال من اجل الحرية والتي يمارسها مندوبو التكتل ، قد حلت الآن محل سلطات القمع القديمة التي اقصاها الدستور عن المدينة ؛ وسيادة مالية اخيراً ،

فتتصرف باموالها وتفرض الرسوم على كافة اعضاء الجماعة سواء كانت هذه الرسوم مساهمات اقرت في السابق تدعيماً لمناهضة السيد ام عادات اقطاعية قديمة استردت بالشراء من المستفيدين منها . ويشترك كافة البورجوازيين على السواء في هذه السلطة الجماعية ويعقدون جمعيات عمومية ويتخذون القرارات الهامة متضامنين . الا ان ادارة الشؤون العادية والشؤون القضائية وادارة الاموال العمومية تسند الى هيئة مختصرة منبثقة بصورة عامة عن الاوليفارشية التجارية ، اطلق عليها اسم المشيخة في البورجوازيات الشمالية واسم الفنصلية في البورجوازيات الجنوبية .

وهكذا تكونت ، بين السنة ١٠٠٠ ومنتصف القرن الثاني عشر ، ونتيجة لنهضة التجارة ، وفي وسط العالم الريفي والمجتمع الاقطاعي ، اجسام غريبة هي المدن . اجل انها لا تزال صغيرة جداً وتكاد لا تضم سوى بعض المئات ، ونادراً بعض الالوف ، من البورجوازيين غير ان ظهورها قد اسحدث تبديلات عميقة في الوسط المحاور . فقد شجع نمو المدن ، في الدرجة الاولى ، تسرب الاقتصاد النقدي الى الارياف . كانت المدينة التجارية ، في البدء ، مغزناً تعرض فيه بصورة دائمة سلع مغربية غريبة عن الانتاج المحلي ؛ وكان هذا العرض يحرك في الطبقات الريفية ابي الفلاحين ، ولا سيما في الاشراف وكبار اعضاء الاكليسوس ، رغبة في الانسحاق ، فاستجمع المدينة في خزائنها دراهم هؤلاء الناس ، ابي فائض الثروة الناجم عن انتاج زراعي المضل . الا ان الاموال المنقولة ، المكدسة في المدينة ، توزع بدورها بعد ذلك : بالدين ، لان التجار يسلفون الريفيين ، زينهم ، المال الذي يفتقرون اليه ، فتمتكاثر القروض بالفائدة التي يمارسها اليهود بنوع خاص ، لان الربى محظر مبدئياً على المسيحيين ، والقروض لقاء رهونات عقارية التي تضع تحت تصرف الدائن الارض ومحاصيلها حتى تسديد الدين ؛ وبالشراء من اهالي المدن ايضاً : اذا انت المدينة مركز استهلاك ثابت لمحاصيل الحقول والمواد الغذائية (فالبورجوازي) ولو كان نصف فلاح ، لا ينتج كل ما يؤمن غذاءه) والمواد التي تستعملها الصناعة المنمنمة كالصوف والخشب والجلد . فساعد وجود المدينة على طبع حركة التداول النقدي بالسرعة واستعمل التطور الداخلي للاقتصاد الريفي والاقدام تدريجياً على تأسيس المشاريع الزراعية .

اضف الى ذلك ان المحاولات البورجوازية للفوز بالاعفاءات قد قلبت التوازن السياسي قلباً اعتبره المعاصرون مشيناً ، فها قد برزت في قلب التنظيم الاقطاعي ، المبني على الابهاء والتسلسل ، سيادات لا هي بالنبلية ولا هي بالديلية ، واحلاف تربط المتساوين ؛ وها قد جاء تأليف فئة اجتماعية جديدة ، الطبقة البورجوازية ، المتميزة بدورها الاقتصادي الخاص وبنظائرها القانوني الممتاز ، ابي الحرية الشخصية ، يدخل البلبلة في نظام « الطبقات » القديمة وفي التسلسل التقليدي في توزيع الثروات ، اذ ان العمال قد لزعوا ، عن طريق التجارة ، الى ان يمسا اعظم ثروة من الفرسان . وهكذا فسان المدينة - الحديثة ، التي كانت ملجأ للمستثمرتين الفارين من اسيادهم الذين ينضمون ، بعد مرور سنة ، الى الجماعة البورجوازية ، وعبرة لسكان القرى الذين بدأوا بدورهم ، بعد سكان المدن بنصف قرن تقريباً ، يطالبون اسيادهم بتحديد العادات

الاقطاعية وتخفيفها ، قد غدت جرثومة تفكيك في قلب العالم الاقطاعي . بيد ان نهضة المدن والازدهار التجاري قد شكلا موقفاً ، وحتى اواخر القرن الثاني عشر ، عوامل توسع قوية كانت الطبقات المسيطرة ، اي الفرسان والاكليروس ، اول من افاد منها .

٣ - التوسع العسكري

أدى ارتفاع عدد سكان الارياف الفلاحين الى اتساع الاراضي الزراعية وانشاء قرى جديدة والى نمو المدن ؛ وأدت الظاهرة نفسها الى تنمية روح المغامرة في الارستوقراطية . فاستهوت المشاريع العسكرية أبناء العائلات الشريفة ، الذين ارتفع عددهم ايضاً ، بتأثير من ميولهم والتربية السقي خضعوا لها ، لا سيما وانهم كانوا يبحثون عن موارد اضافية ؛ ولما كانت نظم السلم والقانون الاقطاعي والروابط المختلفة التي تشدهم الى كافة جيرانهم تقصر على جوار مسكنهم ظروف ومكاسب الحرب ، فقد قرروا القيام بمحملات عسكرية بعيدة . وهكذا كان ارتفاع كثافة السكان منطلقاً لتوسع طبقة فرسان البر ، وبخاصة طبقة فرسان « الفرنجة » والارستوقراطية العلمانية في المقاطعة الكائنة بين نهرى « اللوار » والرين . ولكن نجاح هذه المشاريع يفسره كذلك تحسن تقنيات الحرب المعتمدة لدى المحاربين المسيحيين .

تقنيات الحرب يعود اهم هذه النجاحات الى استخدام الحصان في المعركة استخداماً متزايداً ؛ ويرتبط هذا النجاح من ثم بتحسين عدة الحيلول ، ولا سيما باعتماد الركاب وتقدم تربية الجياد ، وبالتالي بتقدم التقنيات الزراعية وانتشار دورة استراحة الارض كل ثلاث سنوات وزراعة القوطان . ومهما يكن من الامر ، فان المحارب الجدير بهذا الاسم ، في القرن الحادي عشر ، هو فارس كما نعلم . فنتج عن ذلك ، في الدرجة الاولى ، ان المحارب استطاع ، لانه فارس ، حمل اسلحة دفاعية اقل وزناً ، وبالتالي اشد متانة وفعالية . وفي الواقع تحسنت الاسلحة تدريجياً منذ العهد الكارولنجي . وقد تألفت في النصف الثاني من القرن الحادي عشر ، كما يمكننا مشاهدة ذلك في الرسوم المطرزة على « فروش » « باير » التي تصف حملة غليوم الفاتح على انكلترا ، من عناصر ثلاثة : الخوذة المعدنية الطويلة التي تتممها الى الامام قطعة مسطحة (الانف) تقي مقدمة الوجه ، والدرع الطويل الذي يقي الجسم من الذقن حتى الركبتين ، وهو مصنوع من جلد تغطيه صفائح معدنية صغيرة ، او محبوك بكليته بالزرد المعدنية ، وهي طريقة اخذت بالانتشار تدريجياً ، والترس الجلدي الكبير اخيراً ، وكان شكله اما مستديراً واما ثلاثي الزوايا . وكانت هذه الوقاية المتقنة باهظة الاكلاف (ولتحسن التسليح ، كما نرى ، علاقة مباشرة بتقدم صناعة الحديد وازيادة الدخل السيدي الذي يتيح للتبيل تكريس مزيد من المال لعدته) ؛ الا انها تجعل الفارس ، علمياً ، بآمن من اسلحة القذف ، أي الحراب وسهام القوس الصغيرة ، التي لا يمكن ان تؤذي سوى ركوبته . ولذلك فقد تبدلت أساليب خوض المعركة ايضاً .

ليس بعد اليوم من هجوم ينطلق من مسافة طويلة ؛ لقد ترك استعمال القذائف للمشاة الذين غدا دورهم ثانوياً ، فكلفوا مهمة تأخير اقتراب الاعداء فقط ؛ اما الجنود الحقيقيون ، فانهم يتبارون الآن بالمصارعة وجهاً لوجه . اجل قد يقوم الجنود بالهجوم راجلين احياناً ، — اذ ان الحصان ، الذي يستخدم للنقل فقط ، يُترك حين يصطدم المتصارعون — ولكن الاسلحة الهجومية ايضاً غدت آنذاك اثقل وزناً ، كي تتيح فري الخوذ وتمزيق الدروع : وهذه الاسلحة هي الفؤوس او الرماح الكبيرة التي تستعمل بالذراعين . الا ان التبدل الحاسم بنوع خاص كان ان المرحلة الفاصلة في المعركة غدت ، شيئاً فشيئاً ، تصادماً بين الفرسان . واعطت الركابُ الفارسَ مزيداً من التوازن واتاحت له نهج خطة هجومية جديدة : يسك الترس باحدى يديه والرمح الطويل بالاخرى ويحمل على عدوه بسرعة عدو حصانه ويحاول قلبه عن السرج . فيكفي ان يلقي على الارض بعنف فارسٌ مثلك بعدة ثقيلة حتى يصبح مؤقتاً عاجزاً عن القتال ؛ لذلك ، وبسبب الضمانة الكبرى التي توفرها للمحارب اسباب وقايته المعدنية المعززة ، تبدل الهدف من الاصطدام تدريجياً : فلم يعد القصد قتل العدو بل اسره وقبض قديته . واكتمل التطور في السنوات الاولى من القرن الثاني عشر ، فقامت المعركة حينئذ بكسالة من الهجمات المتعاقبة يقوم بها فرسان ثقلو العدة ولا يمكن مقاومتها اذا لم يمارس الاعداء التقنيات نفسها ويجهزوا باسباب الوقاية نفسها . وقد اضيفت الى تحسن الادوات والاساليب العسكرية تربية استهدفت ، بكليتها ، تنمية الجسم واتقان فن الفروسية ، وطاراز حياة كانت افضل تسلياته التمارين العنيفة والالعاب الحربية ، وذهنية تحمل ، فوق كافة الفضائل ، الشجاعة الجسدية والغيرة على رفاق السلاح ، وذلك رغبة في توطيد تفوق الفارس الفرنجي ، انطلافاً من السنة ١٠٠٠ ، على كافة المحاربين المتهنين الآخرين .

نورمنديو انكلترا رايطاليا
منذ اوائل القرن الحادي عشر انطلق المغامرون الارلون المسعودون من ضفاف السين في نورمنديا ، حيث استمرت تقاليد « الفينكنغ » الحربية ، وحيث ارغم النظام الدوقي الصارم معكري صفو الامن على الانتزاع عن بلادهم . وكان اهم احداث التوسع النورمندي نتيجة اقصاد غليوم الفاتح في السنة ١٠٦٦ ، على رأس زمرة من المحاربين المحشودين من املاكه ، ومن بريطانيا وفرنلاند ايضاً ، على الاستيلاء على ملكة انكلترا . فاقصيت المناطق الانكلوساكسونية ، منذ ذاك الحين ، عن النفوذ السكندينيافي وارتبطت ارتباطاً وثيقاً بحضارة غاليا الشمالية . ولا ريب في ان عناصر الثقافة المحلية ، المنحدرة الى مستوى التقاليد الشعبية ، قد حافظت على نشاطها ، بينما ارسخت الطبقات المسيطرة لغة اليابسة وعاداتها الاجتماعية وطرق تفكيرها . وانضمت العادات القطاعية المستوردة الى النظم الصارمة التي خضعت لها الجماعات الساكسونية لتجعل من ملك انكلترا اقوى اسياد اوروبا في عهده .

سبق لنورمنديين كثيرين ، في عهد الفتح الانكليزي ، ان ذهبوا يبحثون عن الثروة في

اقاصي التخوم الجنوبية للمسيحية اللاتينية . فاكري القسم الاكبر منهم خدماتهم العسكرية ، في جنوبي شبه الجزيرة الابطالية حيث تجابهت سيطرات مختلفة ، وحيث كان اصحاب الدوقيات اللومباردية في الأبنين والحكام البيزنطيون في الساحل والمدن التجارية والعرب اخيراً الذين كانوا قد استولوا على صقليا يتصارعون باستمرار . فاستخدم هؤلاء الجنود الاقوياء بسهولة واستدعوا اخوتهم وابناء اعمامهم الذين كانوا يعيشون حياة حقيرة في قصور الاسياد العاجية بالاولاد . وهكذا فان احد هؤلاء المرتزقة المدعو روبر غيسكار ، وهو رئيس فرقة عسكرية تجمعها روابط النسب والاقطاعية ، قد انجز عملاً مذهلاً : اذ انه قد اقتطع بسيفه في كالابريا ، و « بُوِي » ، دولة عاد واستلمها اقطاعاً من البابا في السنة ١٠٥٩ ، ثم سار قدماً في فتوحاته على باري ، في السنة ١٠٧١ وطرد الاغريق طرداً نهائياً من ايطاليا الجنوبية ، وانتزع ، في الوقت نفسه ، وبمساعدة اخيه روجيه ، صقليا من المسلمين قطعة قطعة ، وخضعت له باليرمو في السنة ١٠٨٢ ، وحين اصبح حاكماً لامبراطور القسطنطينية خطر له التوسع في إليريا ، فاحتل دورازو وكورفو .

احرز بذلك في نقطة تلاقي العوالم المتوسطية الثلاثة ، اللاتيني والبيزنطي والعربي ، اول تقدم حققته المسيحية الغربية ، وتأسست دولة جديدة اقطاعية الهيكل في اجهزتها العليا على غرار نورمنديا ، على ان ملكها ، كما في انكلترا ، قد تمتع بحقوق واسعة جداً على السكان الذين اخضعهم الفتح ، وافاد ، بالاضافة الى ذلك ، من موارد جبائية وافرة تضمن له خدمات عملاء مخلصين . فان صقليا ، وهي ملتقى لفسات واديان وحضارات ، كانت ايضاً ميناء على الطرقات البحرية الكبرى تتمون فيه البواخر وسوق ذهب وتجارة كبرى . فمن هذه الزاوية الاخيرة ، كان احتلال الجزيرة من قبل المسيحيين وضمها الى ملكية ثابتة الاركان حدثاً ذا أهمية عظمى للغرب بأكمله ؛ وقد أفضى ذلك فعلاً الى الحد من نشاط القراصنة بصورة محسوسة ؛ وتوفرت كذلك محطة امينة للبواخر المسيحية التي استطاعت باوغل مرافئ الشرق بمزيد من السهولة . ورفع الحصار عن حوض المتوسط الغربي ؛ فلم تعد البندقية والادرياتيكية الطرق الهامة للتجارة مع الشرق ، واتبع للنشاط التجاري الامتداد الى شواطئ كاتالونيا ، ولندوك ، وبروفنسا ، وكلها قطاعات لا يزال قراصنة الباليار المسلمون يضايقونها - بينما احتلت بيزا ، وجنوى ، على شواطئ البحر التيريني الابطالية ، محل امالفي التي استطاعت بمفردها حتى ذلك العهد ، بموجب اتفاق مع عرب صقليا ، اجتياز مضيق مسينا ، والتوجه ببواخرها التجارية شطر الشرق .

الحرب الاستردادية والحرب الصليبية
امست شبه الجزيرة الايبيرية جبهة أخرى لاسترداد فتوحات
غير المؤمنين ، فاستقبل رؤساء الدول المسيحية الصغيرة في
الجبال الشمالية ، اي كاتالونيا والاراغون قشتالة ، بدورهم ، فرساناً من الفرنجية ،
والنورمنديين ايضاً ، ولا سيما البورغونيين والشمبانين . واستطاعوا بفضل هذه النجادات القيام
بغزوات فصلية على مناطق الاحتلال الاسلامية المستضعفة : غارات نهب مفاجئة اولاً ، ثم

حملات فتح اكسبت المسيحية ، شيئاً فشيئاً ، طرائد فتحت امام الاستعمار الريفى والمدنى وتكون في اسبانيا ، ابان هذه المارك المثمرة ، شعور جديد هو تعبير عن القوة التوسعية الفتية لدى الفرسان الغربيين : فكرة الحرب المقدسة كعمل تقوى يؤمن الخلاص . اما هذا الشعور ، الذي ستعبر عنه وتبثه الاغالي الایمانیة ، فقد استغله ووجّهه المشرفون على ادارة الكنيسة . ففي السنة ١٠٦٣ ، اعدّت ، بانجماء وادي الايبر ، اولى الحملات العسكرية المنظمة على غير المؤمنين ، وقد حصل المشتركون فيها على ضمانات بسلامة ممتلكاتهم وعائلاتهم ونيل بعض الغفرانات والوافاء الروحية . وقد قابل ببطء النجاحات البيريلية هذه - اذ ان ساراغوسا لن تسقط الا في السنة ١١١٨ - الانتصارات الصاعقة التي حققها فردينان الاول ملك قشتالة : فهو قد دخل كوامبر منذ السنة ١٠٧٤ وفرض الجزية على معظم الامارات الاسلامية في شبه الجزيرة ؛ واحتل ابنه مدينة طليطلة في السنة ١٠٨٥ . ثم اضطر المسيحيون بعد ذلك لفترة من الزمن الى التراجع امام « المرابطين » الآتين من افريقيا ، ولكنهم ما لبثوا ان استعادوا الاراضي التي تخلوها عنها ، وغالباً ما حالف الحظ الصراع ضد غير المؤمنين ، وهو صراع لن يعرف بعد ذلك التاريخ توقفاً طويلاً الامد .

اختلفت الحرب الصليبية ، بفهمها الحضري ، عن الحرب المقدسة التي خيضت ضد الاسلام ، بتفاصيل بسيطة : فالهابيون المسيحيون تجندوا في مشروع اشترك الكرسى الرسولى في ادارته ، وتسلبوا شارة مميزة رمز الفداء نفسه ، وحصلوا على امتيازات واسعة ومحددة بدقة ، وعين لهم هدف اعظم تهوياً من استعادة هضاب قشتالة ، اعني به انقاذ قبر المسيح . منذ ان انتشرت ، حوالي السنة ١٠٠٠ ، عادة القيام بالحج ، تزايد السفر الى الارض المقدسة لانه اعتبر اعظم الممارسات نفعا للخلاص الابدي ، وقلما ضايقه العرب ، الذين كانوا متساهلين جداً ، كما يبدو من جهة ثانية ان الغزو التركي لم يجعل الدخول الى معابد فلسطين اكثر صعوبة . الا ان فرسان الغرب ، وقد تمكنت منهم فكرة الحرب المقدسة ، اخذوا في النصف الثاني من القرن الحادي عشر ، يؤدون فريضة الحج ، جماعات صغيرة مسلحة ؛ كما اخذوا بعد عودتهم ، يسيطرون شعورهم بأن الفتح ليس امراً مستحيلاً ، ويصفون في الوقت نفسه ثروات الشرق الطائلة . وجاء الاندفاع التركي اخيراً يهدد بيزنطية آنذاك تهديداً جدياً خطيراً ، ففكر الغرب بوجود وقاية المسيحية من جهة الشرق . استفاد البابا اوربانوس الثاني من هذا الجو الملائم ودها كافة المسيحيين الممتننين الخدمة العسكرية والحاملين شارة الصليب ، الى الذهاب بأسلحتهم الى القدس ؟ فصاغت دعوته ، في وقت قصير ، نجاحاً منقطع النظير قلب المخطط البابوي الذي كان متواضعا في البداية . ففي كافة مناطق المسيحية اللاتينية ، لبس الفرسان هذه الدعوة بحماس . وهكذا ابتدأت عملية معدة لأن تدوم أكثر من قرنين سيساور الحنين اليها عقول النبلاء حتى فجر العهد المعاصر . اعدت الحرب الصليبية الاولى على مهل وبالتفصيل : تنطلق اربعة طوابير مسلحة وتسلك طرقاً مختلفة وتلتقي امام القسطنطينية . ليس هنالك من ملوك ، لأن هؤلاء لم يتمتعوا آنذاك بسلطة

فعلمية ؛ ولكن أكثر المحاربين عدداً وثباتاً ، أولئك الذين أفلحوا أخيراً في الاستيلاء على اورشليم في ١٥ تموز من السنة ٦٠٩٩ ، انطلقوا من المناطق الفرنجية القديمة .

تنظم في الارض المقدسة بعد ذلك شبه مخفر امامي بعيد للاقطاعية الغربية . الا ان هذا الصرح السياسي كان في الواقع ركيكاً : اذ ان السيطرة « الفرنجية » لم تتخط سواحل الشرق قط ، ولأنها لم تبلغ قط في الشمال ، حيث حققت أقصى اتساعها بامتدادها حتى الرها بموازاة كيليكيا ، الصحراء التي كان من شأنها ان تكون لهذه السيطرة حدوداً داخلية على بعض القوة ؛ فالاسلام ما زال راسخ القدم في دمشق وفي حلب ، وهو ينوء بثقل وزنه على هذه الطريدة الساحلية . وكان ركيكاً في تركيبه الداخلي ايضاً : فهي العادات الاقطاعية الغربية ، المنقولة الى الشرق نقلاً صناعياً ، ما استخدم هيكلًا اوحده لكيان سياسي لم يوجد له رئيس زمرة - كما في الدولة الصقلية او المملكة الانكلو - نورمندية - بل حكام حصون وفرسان اتحدوا على قدم المساواة في جمعية مؤقتة لتأدية فريضة الحج وخوض غمار المعركة . اجل لقد قامت هناك مملكة كانت اجهزتها في البدء اعظم فعالية مما تبدو في الابحاث التي وضعها رجال القانون الاقطاعيون في القرن الثالث عشر : فلولك اورشليم هم الوحيدون ، مع ملوك انكلترا ، الذين استطاعوا ، في منتصف القرن الثاني عشر ، الحصول على الخدمة المباشرة من اصحاب اخاذات لا يرتبطون بهم مباشرة ، والوحيدون ايضاً الذين لم تكن الخدمة العسكرية ، بالنسبة لهم ، محددة في الزمان . ولكن هذه المملكة لم تمارس الرقابة على امارات الرها وانطاكية وطرابلس التي تأسست ، ابان تقدم الصليبيين ، بمبادعات مستقلة ، فلم يستطع الملك من ثم تحقيق وحدة القوى الضرورية للذود عن حدود تحقيق بها الاخطار المداومة . وكان ركيكاً ، بالاضافة الى ذلك ، لأن الصليبيين ، على نقيض المرتزقة في كالابريا ، اورفاق غليوم الفاتح ، لم يقصدوا اقتطاع سيادة وراء البحار والاستقرار فيها . فهم قد تعهدوا بانقاذ اورشليم بحراستها حراسة مستمرة ، وقد عاد معظمهم الى بيوتهم بعد بلوغ امنيتهم . ونيل الغفرانات . ولهذا السبب لم تكن الدول الفرنجية في الشرق مستعمرات معدة للسكان . اجل استقرت بعض عائلات الفرسان وبعض الشركات التجارية في بعض الحصون الملتصقة وبعض المراكز التجارية ؛ ولكن الغربيين بقوا أقلية ضئيلة في وسط سكان البلاد .

بيد ان المؤسسات اللاتينية في شواطئ المتوسط الشرقية قد طال بقاءها . ويعود ذلك في الدرجة الاولى الى ان الاسلام كان مستضعفاً جداً ؛ ويعود ايضاً الى ان مشروع الحرب الصليبية ، خلال القرن الثاني عشر واول القرن الثالث عشر - على نقيض ما تحملنا الارقام التسلسلية التي نسبها المؤرخون في الماضي الى اعظم الحملات اهمية على الاعتقاد به - هو في الواقع مشروع دائم ؛ ففي كل سنة نذور جديدة ، وفي كل ربيع يتوجه شطر من الفرسان الاوروبيين الى ما وراء البحار ويقضون في الارض المقدسة بضعة اشهر ، وبضع سنوات احياناً ، فيوفرون لمنظمي الدفاع جنوداً قد يكونون اقل خبرة وتدريباً ولكنهم اشد مهة وحاساً من جيش الاقطاعيين المحليين

يفسحون المجال بعدئذ لخدمة خدمتهم للمسيحية، لافواج اخرى من المجندين؛ فتكونت بذلك حركة دائمة ذهاباً وإياباً. زد على ذلك ان جمعيات دينية جديدة قد تأسست وخصصت لهذا النوع الجديد من التقوى، الذي هو الحرب المقدسة؛ فقد كان في الوقت نفسه رهباناً وجنوداً فرسان' المعبد الذين وضع قانونهم في السنة ١١٢٨ ، وفرسان مستشفى اورشليم ، والفرسان التوتونيون ، وقد اسندت اليهم مهمة استقبال حجاج الارض المقدسة وحمايتهم ضد غشير المؤمنين ؛ ولم تلبث فروع اخوياتهم ان انتشرت في كافة المناطق المسيحية وجندت صليبيين جدداً وجمعت الاحسانات من تعذر عليهم وفاء نذورهم فابدلوها بالمال واستخدموها للدفاع عن المؤسسات الصليبية في المشرق؛ وان الحاميات الدائمة التي تمهدتها هذه الاخويات في الحصون الضخمة المجهزة خير تجهيز والقائمة عند تحوم العالم الاسلامي، قد اسهمت اسهاماً فعالاً، على الرغم من المنافسات التي قامت بين الجمعيات، في اطالة وجود الامارات المسيحية . اجل لقد انكشفت هذه الامارات شيئاً فشيئاً : فقد فقدت الرها في السنة ١١٤٤ ؛ وسقطت اورشليم في السنة ١١٨٧ . ولكن المنطقة الساحلية صمدت، واذا كان الفرنجية قد انكفؤا امام الاسلام، فانهم اخذوا، في اواخر القرن الثاني عشر، يستعصون عن خسارتهم ببعض اراضي بيزنطية . فهم قد استفادوا من تفوقهم العسكري ، واغرتهم ثروات المدن اليونانية ، وغاب عن بصرهم الهدف الديني للحملات الاولى الى ما وراء البحار ، فاستولوا على قبرص في السنة ١١٩١ ، ودخلوا القسطنطينية ونهبوها في السنة ١٢٠٤ واسوا فيها امبراطورية سريعة الزوال ووطدوا اقدامهم لبعض الوقت في الموريه . وهكذا فان الروابط بالمتوسط الشرقي لم تحل قط ، بل اشتدت تدريجياً .

كان لهذه الاتصالات المتبادلة اثرها الكبير في تطور الحضارة الاوروبية . فنادرة هي عائلات الفرسان في فرنسا او انكلترا او جنوبي المانيا التي لم يشترك عضو من اعضائها على الاقل في الاسفار الى اسبانيا او الارض المقدسة او اليونان ؛ وقد غدت الحرب الصليبية تقليداً في بعض العائلات الثرية ، يشترك فيها مداورة جميع الذكور الذين يحترفون الجندية، وما ان يعودوا حتى يبحثوا عن سبب للسفر مرة اخرى . لذلك فن الحرب المقدسة والتنقلات البعيدة التي اوجبتها، قد ادت ، في الدرجة الاولى ، الى تخفيف نتائج ارتفاع عدد السكان في الارستوقراطية العلمانية، وحدثت من ظروف الفوضى والصعوبات الاقتصادية التي كان من المحتمل ان يحدثها ، لولا هذه الحروب ، تزايد سريع في عدد اعضاء طبقة المحاربين المحترفين .

اضف الى ذلك ان هذه المشاريع العسكرية قد ساعدت الى حد بعيد على اثرها الغرب مادياً وعلى انطلاقة تجارته البحرية . الا ان هذا القول لا يصح في الحملات الصليبية التي وقفت، بمفهومها الحصري ، ولو بصورة متقطعة ، موقفاً عدائياً حيال غير المؤمنين فمرقلت بذلك بعض الاعمال التجارية ، كما يصح في الحملات الايبيرية ، ولا سيما في عمليات استعادة صقلية كما سبقت الاشارة الى ذلك . ومهما يكن من الامر ، فان مجرد الحاجة الى نقل طوابير الحجاج المتزايدين باطراد قد بعث ، في كافة موانئ المتوسط اللاتينية ، حركة بناء السفن ونشاطات الملاحة ، فدرت رسوم

المرور ارباحاً هامة على مجهزي السفن والبخارة الذين وظفوا رؤوس الاموال المجموعة في مشاريع تجارية وملأوا سفنهم الفارغة ، في موانئ التموين ، بالمنتوجات الشرقية ، كالتوابل ، وحجر الشب ، والمصنوعات البذخية التي يمكن بيعها بأسعار مرتفعة في اوروبا ، وقدموا احياناً ، على الرغم من التحريمات البابوية ، الارقاء والاسلحة المهربة للمسلمين . فازداد بسرعة كلية ، بفضل هذه التجارة المتواصلة احتياطي المعادن الثمينة في المدن البحرية ، ولا سيما في ايطاليا ، فموض تكديس الثروات المنقولة عن تخلف البلدان المسيحية المتوسطة في حقل الانتاج الزراعي . وكان ذلك نقطة انطلاق توسع التجارة الجنوبية التي كانت بوادرها أسرع ظهوراً منها في سواحل البحر الشمالي .

ان تجار البحر في برشلونا ومرسيليا ، وبخاصة في بيزا وجنوى والبندقية ، الذين مارسوا ، منذ الحملة الصليبية الاولى ، بعض اشكال الشراكة المالية ، كالشركات العائلية او شركات التوصية ، المؤسسة لسفرة واحدة او لسلسلة عمليات ، وفي ذلك دليل واضح على تقدم البورجوازيات الايطالية ، قد اسهموا اسهاماً ناشطاً في الحملات الحربية المشنونة على المسلمين والبيزنطيين ؛ فحصلوا بالمقابلة ، في افضل المواقع التجارية من البلدان المحتلة ، على امتيازات اقليمية ، «فنادق» هي مستعمرات تجارية صغيرة ومراكز اعمال ومضاربات اسهمت مكاسبها في اثراء القرى الغربية التي انتسب التجار اليها . وتذكر احياء التجارة هذه ، القائمة في المدن الاجنبية ، تذكيراً غريباً بالمراكز التي شغلها التجار السوريون في مدن غالبا واسبانيا في اوائل القرون الوسطى ؛ فنرى والحالة هذه ان وضع المسيحية اللاتينية قد انقلب كلياً ، من الناحية الاقتصادية ، بالنسبة الى الشرق : فهم التجار الايطاليون والكاثولونيون والبروفنسيون من يستلم الآن زمام التجارة في سواحل المتوسط الآسيوية والافريقية ، ويحني الارباح .

افضت الحملات الصليبية بسرعة اخيراً ، باقامة الروابط المتينة مع البلدان المتقدمة ثقافياً ، الى تهذيب اخلاق الفرسان ، ونشر استعمال الطرائق والسلع الغربية ، وادخال التقنيات الجديدة — وهكذا فان تقنيات التحصين التي نقلها الصليبيون الى الشرق تحسنت فيه خلال القرن الثاني عشر ، فافادت اوروبا ، بالمقابلة ، بعد ذلك ، من هذه التحسينات — واطلاع رجال الفكر على بعض مظاهر العلم والفلسفة والفن والادب في العالمين العربي واليوناني : فجاءت هذه الاشكال والمفاهيم والطرائق والعادات ، التي حصل عليها احياناً في امارات فلسطين وخصوصاً في ايطاليا الجنوبية او على جبهة القتال في شبه الجزيرة الايبيرية ، وانتشرت بفضل العائدين من الحج ، تنمي التراث الثقافي في اوروبا المسيحية . ودفع كل ذلك الى الامام بالنهضة الروحية ، التي مهد لها العهد الكارولنجي ، فتواصلت ببطء وعلى غير انتظام ، يساعدها آنذاك اليسار العام وازدياد الاتصالات وسرعة المقايضات على اختلاف انواعها .

٤ - النهضة الروحية : تطهير الكنيسة

لما كانت الكنيسة قد احتفظت في الغرب ، حتى في القرن الحادي عشر ، بامتياز التعليم ، ارتبط تقدم الثقافة والنشاطات الفكرية ارتباطاً مباشراً بوضع الاجهزة الكنسية . اجل لقد تحسنت هذه الحالة منذ اوائل القرن العاشر ، ولكن النتائج الاولى تناولت الكنيسة النظامية اولاً ؛ واذا سارت الحياة الرهبانية ، حوالي السنة ١٠٠٠ ، في طريق التطهير بتأثير انتشار العادات الكلوونية ، بنوع خاص ، فان الكنيسة العلمانية ، على نقيض ذلك ، ما زالت تعاني من النقائص الخطيرة نفسها التي تأملت منها المؤسسات الرهبانية ، لا بل من نقائص اعظم تأصلاً ، لان افراد اكثير وسها اكثر اختلاطاً بالعالم واكثر تمرّساً بالتالي لفساده .

اما هذه المعايير فهي ، على حدّ تعبير اولئك الذين اشهروها فساد الاخلاق والاتجار بالقدسيات وشكوا منها آنذاك ، « النقولايوة » اي فساد الاخلاق - فقد عاش معظم الكهنة العلمانيين ، في كافة درجات التسلسل الكهنوتي ، غيشة العلمانيين ، وحملوا الاسلحة ولم يحترموا قانون التبتل - والسيمونية ، اي الاتجار بالقدسيات ، والمقصود بذلك ، بصورة عامة ، الرغبة في الربح ، وبالتحديد ، الاتجار بالاسرار المقدسة وبيع الوظائف الدينية بالمزاد . ولهذين العيبين سبب واحد عميق : هو الدور الذي لعبه العلمانيون في توزيع المهام الكنسية . فالكنائس ، كل الكنائس ، هي في الواقع تحت سلطة العلمانيين . وكنائس الرعايا الريفية هي ملك العائلات الثرية التي ورثت مؤسسي المعبد واعتبرت من حقها استثماره على غرار املاكها الاخرى والتي لم تستعمل كافة مداخل المذبح فحسب ، بل عينت خدامه من بين اتباعها واختارتهم بين اوضع الناس مرتبة حتى يكونوا اسلسم انقياداً . اما الاساقفة ورؤساء الاديرة فقد عينهم الملوك او بعض الامراء الذين استأثروا بالصلاحيات الملكية . لذلك ، وتأثير من المفاهيم الاقطاعية ، كانت الوظيفة الدينية ، والسلطات والمكاسب المرتبطة بها ، - لا سيما الانعام العقاري ، كالسيادة الاسقفية او الاقطاعية الكهنوتية ، وهو ملازم لكل خدمة دينية - في نظر المعاصرين ، بمثابة استثمار يعود للسيد العلماني الذي يسلمه لرجل الكنيسة بمعاملة تقليد رمزية ، ثم يؤول اليه ، على غرار الاقطاع عند وفاة صاحبها ، حين يصبح المركز شاغراً . ليس من الصعب رؤية نتائج هذا الوضع : فمن جهة ، حمل التقارب الذي حصل في الاذهان بين الوظائف الكنسية والاستثمارات الاقطاعية ، على عدم التمييز بين اخلاص التابع الاقطاعي والعلاقة التي تربط خادماً الكنيسة بسيدها ؛ وهذا لعمرى تمثيل خطر لانه قد يعني اخضاع السلطات الروحية الى السلطات الزمنية . ومن جهة ثانية ، ونحن هنا امام واقع خطير آخر ، لم ينظر الاسياد العلمانيون ، حين توجب عليهم الاختيار بين المرشحين لاحد المناصب الدينية ، الى صفاتهم الادبية ، نظرتهم الى الخدمات التي قد يؤديها المختار لهم ، وحتى الى الهدية التي سيقدمها لهم ؛ وهكذا فان عدداً من ملوك القرن الحادي عشر ، من امثال فيليب الاول ملك فرنسا او

معاصره غليوم الاشقر ملك انكلترا ، وجدوا في الانجبار بالمناصب الاسقفية وسيلة لزيادة موارد النقدية القليلة زيادة مهمة جوهرية . فافضت هذه الطريقة الى فساد الاختيار : اقصى المرشحوں المثقفون المشهورون بحياتهم المثالية ، وانتخب الداساون ، ابناء العائلات النبيلة من طلاب الوظائف ، الذين فكروا قبل اي شيء آخر ، حين جمعوا كل كسب ممكن من وظائفهم ، باستعادة ثمن انتخايمهم ، والذين لم يهتموا اطلاقاً للتوفيق بين اخلاقهم وموجبات رسالتهم الراءوية . ذاك هو الشر الاساسي الذي غدا استئصاله امراً واجباً . لقد سبق وواجه مصلحو الحياة الرهبانية ، في الماضي ، معضلة مماثلة : فعلت ، لاسيما في كلوني ، بمنع كل تدخل علماني في الشؤون الدينية ولاسيما في ملء المناصب الشاغرة . فتحت تأثير الرهبان الذين كانوا ، لاسيما في « اللورين » ، على علاقة مباشرة باكليروس الكنائس المركزية ، والذين توصل بعضهم الى الوظائف الاسقفية ، قامت حركة لاجل حرية الانتخابات العلمانية وتسربت تدريجياً الى العالم الكنسي . سقطت الكنيسة ، منذ وفاة اوتون الثالث تحت سيطرة الارستوقراطية الرومانية . الا انها انقذت مرة اخرى من الفساد المحلي ، بعد السنة ١٠٤٦ ، بفضل الامبراطور هنري الثالث الذي عين في الادارة البابوية العديد من الكهنة اللوثاريين ، المتحلين بقيم اخلاقية سامية ، والمتأثرين الى حد بعيد بالتيار الصوفي اللوريني ، والضليعين في دراسة الحق القانوني ، والعارفين بالعيوب التي تألت منها الكنيسة . فانتهت الروح الاصلاحية الى الكرسي الرسولي ، واتسمت فيه ، بواسطة بعض الرجال المتصلبين ، من امثال الكردينال « هومبردي مويانوتي » بطابع اشد تنظيمياً . وانيط روما ، منذ ذاك الوقت ، تنسيق الجهود المبذولة هناك لانقاذ الكنيسة العلمانية من التأثيرات الزمنية المفسدة ؛ فكان ذلك بداية تنظيم عام سيتتابع طيلة نصف قرن ونيف ، وقد درج التقليد على تسميته بالاصلاح الغريغوري نسبة للبابا غريغوريوس السابع (١٠٧٣ - ١٠٨٥) ، احد أهم باعثيه .

كانت نتيجته الاولى تعظيم مركز الكنيسة الرومانية . فارت اولوية
 الاصلاح الغريغوري الكرسي الرسولي ، التي سبق ووضحت واثبتت في ايام الانحطاط
 الكارولنجي في المجموعات القانونية المعروفة خطأ بالايودورية اعيد ايضاحها واعلمت بمزيد من
 القوة في منتصف القرن الحادي عشر . وفي الوقت نفسه (١٠٥٤) الذي انفصلت فيه
 الكنيسة الغربية انفصالاً نهائياً عن الكنيسة البيزنطية ، اخذت تظهر بمظهر هيئة تسيطر عليها
 ادارة البابوية المركزية التي غدت سلطة عليا ارتفعت فوق كافة سلطات هذا العالم . واعتمد في
 روما منذ السنة ١٠٥٨ ، وتحت ظل قصور ملك جرمانيا هنري الرابع ، مبدأ الانتخابات الحر
 المستقل ، بمزول عن رقابة الاباطرة الالمانيين ودسائس الارستوقراطية المحلية معاً ، ثم ما لبث
 ان سن قانوناً في مجمع السنة ١٠٥٩ : سوف ينتخب البابا بعد هذا التاريخ على يد اعضاء
 الاكليروس الروماني الكرادلة . بعد هذا الاصلاح الاول ، ارتقى اشد اعضاء الاكليروس
 حرصاً على عظمة مركز الكرسي الرسولي الى رتبة البابوية ، فاسهم ذلك ايضاً في اعلاء نفوذ

خليفة القديس بطرس ادبياً . ولم يرَ الاكليروس والرهبان ، منذ ذاك الحين ، عظيم غضاضة في الخضوع لسلطة روما ، ليس في حقل العقيدة فحسب ، كما كانت الحال منذ زمن بعيد ، بل في حقل النظام والانضباط ايضاً . اما الاسس الضرورية للنظام الكنسي ، وفاقاً لمجموعة المراسيم التي اختيرت بنساء لامر غريغوريوس السابع ، والتي ليست سوى موجز لها ، فهي التالية : رئاسة مطلقة للبابا الذي لا يمكن ان يقاضيه احد ولا يمكن الاعتراض على احكامه ، ادارة الكنيسة الجامعة من قبل الكرسي الرسولي الذي يمثله قسّان يجب ان ينحني امامهم اعلى الاحبار رتبة ، والذي يلم بكافة الاسباب الهامة ، وله وحده حق التشريع ، خضوع رؤساء الاساقفة والاساقفة خضوعاً تاماً للسلطة البابوية الحرة في تعديل حدود الابريشيات ونقل او اقالة الرعاة .

وفي الواقع ، تحقق هذا البرنامج بسرعة : فان مبادرات امثال « هوغ دي ديه » او « امات دولورون » ، مندوبي البابا غريغوريوس في غاليا ، وموقف البابا اوربانوس الثاني الذي لم يقذف في مجمع « كليرمون » المنعقد في السنة ١٠٩٥ ، بالمسيحية في الحرب الصليبية فحسب ، بل رسم باعطاء انظمة سلم الرب قيمة شاملة ، اثبتت النجاحات المستمرة التي حققتها المركزية الحصرية . فقدت الكنيسة اللاتينية ، منذ بداية القرن الثاني عشر ، ملكية او طرد رسوخاً من كافة السلطات الزمنية في الغرب ؛ وقد فكر المثقفون في الكنيسة الرومانية ، في سبيل مصلحة البابا الذي حمل التاج والمعطف الارجواني ، باعادة المنصب الاعلى الذي يشرف على ادارة المسيحيين في الحقلين الزمني والروحي ، مقدمين بذلك على عمل جريء هو تحويل الاسطورة الامبراطورية الى شخص البابا .

اضف الى ذلك ، في درجة ثانية ، ان تصلب البابوات ومساعدتهم ، ان لم يشاءه التريبات يقض نهائياً على تدخل الاسياد والعلمانيين في تعيين الاساقفة ، فقد حدّ منه جداً عظيماً على الاقل . في السنة ١٠٧٥ ، اوضح البابا غريغوريوس السابع علانية مغزى القرار السادس من مجمع السنة ١٠٥٩ ، الذي كان قد رسم بأن لا يدين الكاهن لعلماي بتولية كنسية ؛ وبذل جهده بصورة خاصة بغية تطبيق هذا المبدأ في وظائف الاساقفة ورؤساء الاديرة . فاصطدم بمقاومة عنيفة ابداهها كافة المستفيدين من الاتجار بالقدسيات ، وذوو المناصب الذين اشتروا وظيفتهم وابتوا عرضة لان يمنعوا من ممارستها ؛ والامراء ايضاً الذين لم يقبلوا بالتخلي عن امتيازاتهم بسبب الارباح التي توفرها لهم ، ولا سيما بسبب الفوائد السياسية التي يوفرها لهم الاشراف على الكنائس الكبرى . فقام آنذاك بين باعشي الاصلاح والملوك ذلك الصراع الطويل المعروف بمشادة التوليات . وصدرت اعظم مقاومة عناداً عن الامبراطور لان الامارات الاسقفية في الملكية الجرمانية تمثل ضمن عضد الملك الذي حرص على مراقبتها عن كثب ؛ اما الخلاف ، فيعد تجابه طويل الامد طرحت خلاله على بساط البحث مسألة العلائق بين السلطتين الشاملتين — وقد رأينا غريغوريوس السابع يستند الى حق الربط والحل الممنوح للقديس بطرس ويدعي

بمراقبة اعمال الامراء ، يحيز لنفسه خلع الامبراطور - قد انتهى الى الهدوء ، بعد تنازلات متبادلة . في السنة ١١٢٢ ، تم الاتفاق في معاهدة « وورمس » على صيغة تسوية اعدّها في السنوات الاخيرة من القرن الحادي عشر علماء القانون في دير « بيك » ، النورمندي ، ونقّسها الاسقف « ايف دي شارتر » ، واعتمدها كل من فرنسا وانكلترا ، حيث لم تقتسم معارضة الملوك بذلك الطابع من الشدة . ففُصل ، في الوظيفة الاسقفية ، بين المهمة الروحية التي اقصر منحها ، عن طريق المكاز والحاتم ، على الكنيسة وحدها ، وبين امتيازاتها الزمنية ، من سيادات عقارية وقضائية ، التي ترك امر توليتها للسيد العلماني وفقاً للراسم الاقطاعية . فليس بعد من خضوع حقيقي للأمير بل مجرد بين اخلاص ، واذا توجب على الاسقف التوجه ابدأ الى سيد كنيسته كي يستلم من يديه ، بشكل مادة رمزية ، خاصيات السلطة ، فما كان ذلك ليحدث الا بعد انتخابه الحر من قبل مجلس كهنة الكاتدرائية . اجل لم يعد الملوك وسائل الاقتناع لانجاح مرشحيهم ؛ غير ان التعيين يعود الى رجال الكنيسة ، وفي ذلك ضمان لاختيار بعيد عن الشبهة : فتحقق بذلك الهدف الاساسي .

الا ان نجاح المصلحين كان ، بالمقابلة ، محصوراً جداً في ما تعلق بالمناصب الدنيا . فقد احتفظ العلمانيون برعاية الكنائس الريفية ، وأقله بحق اقتراح تعيين « خادم النفوس » على الاسقف ، ان لم يكن بحق تعيينه بمعزل عنه ؛ ولهذا السبب بقي الاكليروس الوضيع عادي الصفات جداً . وعلى الرغم من ذلك فان الاصلاح الغريغوري لم يبق دونما نتيجة هنا ايضاً : ففي غضون القرن الحادي عشر حصلت مجالس الكهنة ولا سيما الاديرة على عدد كبير من كنائس الارياف قدمها اليها مالكوها تلقائياً بمثابة احسان وتصدق ؛ وحوالي السنة ١١٠٠ ، بعد ان انضم الخوف من عذابات الحياة الثانية الى مساعي رجال الكنيسة ، ازدادت هذه الحركة سرعة ، فأعاد العلمانيون معظم المعابد التي كان الاحبار قد اقطعوهم اياها استثمارات اقطاعية . وهكذا فان حق الرعاية ، في القرن الثاني عشر ، قد مارسه في الغالب جمعيات دينية انقادت للضمير وأحسنّت اختيار خدام الكنائس ، على الرغم من انها طالبت لنفسها بالقسم الاكبر من مداخيل الكنيسة ، تاركة خدام الرعايا في حالة عوز واملاق . يضاف الى ذلك ان حسن اختيار الاساقفة الذين اهتموا كل في ابرشيته ، لدعوة هؤلاء الخدام لاجتماعات دورية ، ولمراقبة الاكليروس الريفي ، قد اسهم في تحسين الاجهزة الدنيا في الكنيسة العلمانية . بيد ان هذا التحسن كان بطيئاً في الحقيقة : فلن تخلو القرى ، لمدة طويلة ، من الكهنة المتزوجين والاميين والبؤساء ، او من الكهنة الجشعين الذين يستثمرون رعاياهم ويحاولون جني الارباح المادية من الخوف السحري الذي يبعثونه في النفوس .

بيد ان تقدماً محسوساً ، هو النتيجة الاخيرة لحركة الاصلاح ، قد بدا ، خلال القرن الحادي عشر وأوائل القرن الثاني عشر ، في سلوك العلمانيين الديني . فقد انجلى امامهم ، بصورة خاصة ، مفهوم الخلاص : فلأجل خلاص النفس ، كان من الموافق ، في الدرجة الاولى ، التعويض عن الاخطاء المرتكبة ، بعد ارتكابها ، بالحسنات المتتالية ، التي نظر اليها كما الى غرامات قضائية

تدفع للاله لاستعادة راحة الضمير ؛ اما الآن فقد ساد الاعتقاد شيئاً فشيئاً بأن الاعمال وحدها هي ما يعتد به وبأن تطبيق تعاليم الانجيل في الحياة امرٌ مستحسن ، أقله تلك التي لا تتنافى كثيراً و اخلاق الفرسان وضرورات الحياة اليومية . ويبدو من جهة ثانية - وهذا هو بنوع خاص الشعور الذي نخرج به حين ننظر الى تطور الايقونات المسيحية - ان الاله امسى اقرب الى البشر ، فقد غدا منظره اقل ارباعاً ؛ وأخذ يظهر تحت اشكال الطفل يسوع المليئة القلب ؛ واتسمت العذابات والمكافآت الموعود بها بعد الوفاة ، بطابع أكثر بعداً عن التجريد ؛ وانتشرت عبادة العذراء ، الوسيطة والمعزية ، لارتباطها في الارجح بدور متعاطف الالهية لعبته المرأة ، نتيجة لتهدب الاخلاق ، في مجتمع ذاك العهد . ومهما يكن من الامر فان نفاذ المواقف والمشاعر المسيحية الى اقل حركة من حركات الحياة العلمانية ، الذي لن يتوقف طيلة القرن الثاني عشر ، هو النتيجة المباشرة لاصلاح المؤسسات الكنسية ولتعيين الكليروس تدريجياً بمنأى عن التأثيرات الزمنية فغدا ، بفعل ذلك ، اشد تطلباً من نفسه ومن الغير .

الابتغاءات الدينية ما ان سارت مسألة تنظيم الهيئـة الكنسية واستقلالها حيال العادات الاقطاعية في طريق الحل حتى طرحت تدريجياً مسألة اخرى اعظم اتساعاً وسمواً ، هي موقف رجال الكنيسة من ثروات هذا العالم . هذه معضلة جديدة اثارها مباشرة تبدل الظروف الاقتصادية ، ونمو حركة المقايضات والتداول النقدي ، واثراء الغرب . فان حرمان الاسباد والعلمانيين من حق التولية لم يكن لعمرى ، بالنسبة لافراد الكليروس الواعين واجباتهم ، سوى خطوة اولى : اذ ان تحرير الكنيسة يجب ان يكون كاملاً ويتميز بعود الى « الحياة الرسولية » والى طرائق المعيشة في جماعات النصرانية الاولى . ولا يكفي من ثم ان يكون الاساقفة افضل اختياراً وعلماً واخلاقاً ؛ فحتى يتمكنوا حقاً من تأدية رسالتهم الراعوية ، يحسن ايضاً ان يتخلصوا ويخلصوا اعضاء الكليروسهم من كافة الاطماع الزمنية والسعي وراء السلطة ومحبة البذخ . اما الحياة الرهبانية فمن المستحسن ، بدون شك ، ان تكون أكثر انزاعاً عن التأثير العلماني وان تنظم تنظيماً أشد صرامة عن طريق التقيد بالقانون تقيداً صحيحاً ؛ ولكن هذا ليس بجوهر الامر : اذ يجب بنوع خاص ان تقود الى الزهد التام في الشؤون الدنيوية ، لا سيما وان اناساً كثيرين اخذوا ينتقدون رغد عيش « الكلونيين » ؛ فقد تكونت في « كلوني » ارسوقراطية رهبانية ماشت البيئـة الاقطاعية والتقسيم المجتمعي بماشاة تامة . ولكن الناس قد تساءلوا عما اذا كان يحسن بالراهب ان يعيش حياة الاسباد ، في ابنية فخمة ، ويرتدي الملابس البذخية ، وياً كل افخر المأكولات ويتباهى ببجوحته ويحرص على تأمينها . فنشأ من ثم ، في القرن الحادي عشر ، تيار تأصل في التيار الغريغوري ثم تجاوزه قوة ؛ واستهدف اصلاحاً اعمق جذوراً ليس في اجهزة الكنيسة فحسب ، بل في روح الكنيسة نفسها ايضاً .

برزت هذه النزعة في كل مكان ؛ وحتى عند العلمانيين انفسهم ، وبنوع خاص لدى طغام الناس في المدن ، السريعي التأثير ، بسبب نشاطاتهم المهنية ، بالمعاضل الاقتصادية ، والعارفين

خير معرفة بخطر الثروات ، والحذرين ايضاً من فراء الاحبار الذين يستطيعون مشاهدتهم عن كسب والذين تقف ادعاءاتهم بالسلطة الزمنية وقوفاً مباشراً في وجه توقعهم الى الحرية . وليس من النادر ، خلال صراع التكتلات البورجوازية ، انتقاد ثروة الكنيسة ؛ وهكذا فقد نمت في مدن لومبارديا ، عند اولئك الذين اطلق عليهم بسرعة اسم « الباتاران » ، حركة قوية غايتها تحقيق فقر الاكليروس ؛ واستوحى الشعور نفسه المهيج « ارنو دي بريشيا » الذي حرص بورجوازي روما ، في منتصف القرن الثاني عشر ، على السلطة البابوية . الا ان كهنة كثيرين قد شعروا هذا الشعور ايضاً وتأملوا ملياً في هذه المعضلة وبحسبها عن حلول عملية لارضاء هذه الرغبات . فبرزت هنالك نزعتان : احدهما تعود الى الحياة النسكية ، أي الى حياة أكمل عزلة واعظم تقشفاً ؛ بينما تعود الثانية الى الاملاق ، وليس المقصود بذلك « فقر » « كلوني » فحسب ، الذي وفق بين الزهد الفردي والثراء الجماعي ، بل الفقر الحقيقي ، أي فقر آباء الصحراء ، ايضاً .

الجمعيات الرهبانية الجديدة بدأت مثل هذه المحاولات باكراً جداً ، أي بعيد السنة ١٠٠٠ ، في الكنيسة العلمانية ، ولا سيما في غالبا الجنوبية وابطاليا حيث كانت تكتلة مباشرة للعمل الذي قام به القديس « روموالد » بغية تجديد الحياة الرهبانية : فقر بعض الكهنة ، دون التخلي عن خدمتهم الروحية ، الابتعاد اكثر فأكثر عن العالم ، واتفقوا على التجمع بغية سلوك حياة مشتركة في الفقر ، كأولئك الذين تجمعوا في « سان - روف » (١٠٣٩) في أبرشية فالنسيا . فشجع هذه المبادرات خير الاساقفة فضيلة ، وساندها بطرس داميانوس احد عظام رسل الاصلاح ؛ وأكب الغريغوريون على استحداث مبادرات جديدة بمثابة . تعددت جمعيات الاكليروس شيئاً فشيئاً ، وعاد كهنة مجالس الكاتدرائيات ، على مثالهم ، الى النظام الذي كان قد فرضه عليهم ، في العهد الكارولنجي ، « بنوا دانيان » : فان هذه الجمعيات الارستوقراطية ، التي سلك افرادها ، وجميعهم ابناء اشراف يمتلك كل منهم قسماً وافراً من سيادة كنيستهم ، حياة حرة جداً في مسكنهم الخاص ، تحولت هنا وهناك الى جمعيات حقيقية تخضع لبعض التقشف . غير ان كهنة علمانيين آخرين قد تاقوا الى حياة اكثر املاقاً : فقد فرض « غليوم دي شامبو » والقديس « نوربير » على التلاميذ الذين تهافتوا عليهم في « سان - فكتور » في باريس ، وفي بريونترية ، في اوائل القرن الثاني عشر ، قانوناً صارماً جداً مستوحى من ثلاثة مؤلفات للقديس اوغسطينوس ، (وتبرز هنا ايضاً النزعة الخاصة بهذا العهد ، اعني بها التصميم على العودة ، من وراء العهد الكارولنجي الذي استقرت فيه الكنيسة في العالم استقراراً فيه الكثير من سعة العيش ، الى تقاليد المسيحية الاولى) . لم يكن « الفكتوريون » و« البريمونتريون » ملازمين بالفقر التام والحياة المشتركة فحسب ، بل بالسكوت ايضاً والعمل اليدوي والاحتفال الطقسي ، وسلوك حياة مادية فقيرة جداً ، فعاشوا من ثم في الواقع عيشة الرهبان ؛ ولم يتميزوا لا بفارق واحد : لم يلزم الكهنة القانونيون بالحياة الرهبانية على الرغم من انتمائهم الى الاكليروس ؛

فان رسالتهم الاساسية ، التعليم والوعظ ، هي في العالم ، ولذلك فانهم قد اسهموا بنشاط في نهضة الاكليروس العلماني والعلمانيين ادبياً .

تأثر العديد من الرهبان كذلك بقراءة آباء الصحراء - وكان النساك الايطاليون اول من بدأ هذه الحركة ايضاً في اواخر القرن العاشر - فرغبوا في سلوك حياة منزلة والاهتداء الى الفقر الانجيلي . ونحن نرى في عدم ارتياحهم للتفسيرات التي تناولت قانون الرهبانية البندكتية منذ العهد الكارولنجي تعليلاً لنجاح المصلحين الذين اسسوا ، قبله « كلوني » ، في الربع الاخير من القرن الحادي عشر ، جمعيات قوية جديدة . وتجدر الاشارة الى ان اتجاهاتها كانت مختلفة على كل حال : فهنا يبحثون عن الزهد التام بالعالم ، كما هي حال جمعية « غراغون » التي أسسها « اسطفان دي موريه » في السنة ١٠٧٤ والتي يتوجب على افرادها ان لا يقتنوا أية ثروة زمنية ، حتى ولا ارضاً للزراعة ، وان لا يمارسوا أي عمل ، فاضطروا بالتالي لأن يستعينوا بمساعدين يكونون رهباناً من الدرجة الثانية ويكلفون جمع الصدقات لتأمين معاشهم اليومي ؛ اما هناك فقد شدّدوا على فكرة العزلة ، كما هي الحال في الجمعيات الكروتوزية التي أسسها القديس « برونو » وتلاميذه في الصحارى القائمة وسط الجبال والتي ضمت نساكاً يجتمعون بين وقت وآخر لحضور القداس ويقضون معظم حياتهم في السكوت والورع داخل قلعة فردية .

الا ان الجمعية الجديدة التي عرفت اكبر نجاح والتي تأسس مركزها « سيتو » ، في السنة ١٠٩٩ ، على يد « روبير دي مولسم » ، قد اعتمدت عادات اعتبرتها مجرد عودة الى قانون القديس بندكتوس وتقويماً للانحراف الكلوني ، فجمعت بين العزلة والفقر وحققت التوازن بين النزعتين . العزلة عن العالم اولاً : اقام السيستريسيون ، شأن الكروتوزيين ، بعيداً عن الاماكن المأهولة ، في قلب الغابات والوديان المستنقعة . الا انهم اعتقدوا بأن اضمن وسيلة للاهتداء الى الله هي الانصهار في جماعة ، فعاشوا حياة مشتركة صافية في خورس الدير ومائذته ومنامته . والاملاق التام ثانياً : فقد ألصق بالموجبات البندكتية مفهوم تقشفي جداً ؛ وكل رغب في المأكل والملبس قبيل به في كلوني رفض هنا رفضاً باتاً؛ السيستريسيون يحترق جسده ويسيطر عليه . الا ان العائلة الرهبانية قد اقتنت ممتلكات عقارية لأن في ذلك ضماناً استقرارها واستقرارها . وانما حظرت عليها ، بالمقابلة ، استيفاء الواردات على انواعها ، سواء كانت هذه الواردات محصول الاعشار ام اتاوات المستثمرين ، ام خدمات الاتباع الشخصيين ؛ فللاخوة ان يستحصلوا من الارض بأنفسهم على غذائهم ؛ وجمع كل دير ، في وحدة عمل وثيقة ، رهبان الخورس ، المنتسبين الى الاكليروس او الارستوقراطية ، وهم اوسع ثقافة ومقيدون بتمارين روحية كثيرة ، والمساعدين ، أي افراد الطبقة الدنيا الميالين الى الحياة الرهبانية الذين لا يقدمون سوى عملهم لخدمة الله ويؤلفون اليد العاملة القوية . ويفسر ارتفاع كثافة السكان من جهة ، ولا سيما ضرورة عزل حياة الروح عن عالم طغت عليه الرغبة في جني المكاسب طغياناً متزايداً ، غرابة تكاثر جمعيات الكهنة والرهبان الجديدة ، في النصف الاول من القرن الثاني عشر ، ولا سيما السرعة الفائقة في امتداد الجمعية

اليسترسية بفضل صفات نادرة تحملها، برناردوس، رئيس دير «كليرفو»، الذي كان صوفياً ورجل عمل معاً، وواحداً من عظام ذلك العهد .

ولكن الجهود في سبيل تأسيس كنيسة اعمق حياة روحية قد امتدت الى ابعد من ذلك ايضاً . فقد انتهى بعضهم ، في صراهم ضد الزمنيات ، أي المادة ، الى اعتبار هذه الاخيرة مبدأ يناقض الخير ، والى الالتقاء بالمفاهيم المانوية ، نذكر منهم في ذلك العهد «بيير دي بريس» و « هنري دي لوزان » اللذين استألت تعاليمهما ، على الرغم من حكم السلطات الكنسية عليها ، اتباعاً مقتنعين ، لا سيما في فرنسا الجنوبية . فساد الشعور في كل الاوساط ، في الشعب كما في أكثر دوائر الاكليروس العالي ثقافة ، بأن المحاولات التقوية الحارة تتعرض لخطر الزيغاف عند حدود الايمان القويم . فقد بدأ في الكنيسة الغربية زمن الهرطقات ، والصراع ضد ضلال العقل ، والمجامع التي يضطر فيها المفكرون الجريثون الى التراجع عن اقوالهم ، وقد بلغ من القديس برناردوس الجهد في اعادة الوحدة الى جسم الكنيسة الذي مزقته الخلافات العقائدية الاولى . اما سبب هذا الاضطراب فهو ان الكنيسة لم تمس اسيرة نظام جماعي يفرض معتقداً مشتركاً ، وحريصة على العودة الى الحياة الرسولية والهرب من غواية الثروات فحسب ، بل اوسع علماً وأقوى حجة ايضاً . ان الاضطراب في اوائل القرن الثاني عشر لدليل نضج فكري لا وراء فيه .

٥ - النهضة الروحية : الحركة الفكرية

ان لانطلاقة المشاطات الفكرية والحياة الادبية ما يبررها : فالبجوحة المتزايدة والتحرر التدريجي حيال المشاغل المادية والاطماع الزمنية أتاحا لرجال الكنيسة الانكباب بكليتهم على رسالتهم الخاصة ، اعني بها عمل الفكر . اصف الى ذلك ان امتداد نشاط الفروسية الغربية قد شجّع الاتصالات بمحضارات الشرق ، فاستحضرت من سوريا وآسيا الصغرى مخطوطات عربية ويونانية ، وفي اسبانيا المستعادة ، ولا سيما في طليطلة ، وفي ايطاليا ، في بيزا ، وروما ، وصقليا ، ودير جبل كستينو ، المركز الامامي للحضارة اللاتينية ، الذي اعيد تأسيس مكتبته في منتصف القرن الحادي عشر ، أكب المترجمون على وضع هذه المؤلفات في متناول الكهنة الناطقين باللغة اللاتينية .

بتوفر هذين السببين تبدلت الاطارات المادية ، أي المدارس ، والاطارات الفكرية ، المدارس
أي برامج الدراسة ونظم الفكر ، التي اطبقت على الحياة الفكرية منذ النهضة الكارولنجية . كانت الاديرة حتى ذلك العهد اعظم المراكز نشاطاً ، وما زالت بعض المدارس الرهبانية ، في القرن الحادي عشر ، على جانب كبير من النجاح ، كمدارس الاديرة في «سواب» ومدرسة دير «بيك» في نورمنديا . وعلى الرغم من ذلك فان اعظم المراكز حياة آنذاك كانت علمانية وازدهرت في جوار مجالس كهنة الكاتدرائيات ، في «لياج» و «تور» و«انجيه»

و « المان » و « شارتر » التي لمعت مدرستها ، بعد ان احياها فولبير تلميذ روما ، حوالي السنة ١٠٠٠ ، طيلة القرن الحادى عشر ، وباريس اخيراً التي تخطت مدارسها حدود المدينة نحو منحدرات جبل القديسة جنيفيف وغدت في اوائل القرن الثاني عشر مكان اجتماع خيرة علماء المنطق المسيحيين الغربيين . افضى انتقال المدارس هذا من الاديرة المنعزلة في الارياف نحو المدن الاسقفية ، وهو ظاهرة وثيقة الارتباط ايضاً بتوسع المدن وانتشار الاقتصاد النقدي ، الذي حرّر رجل الفكر من جماعات الانتاج ، أي من الاديرة الريفية ، الى جعل مؤسسات التعليم أعظم انفتاحاً وأكثر حرية ؛ فبات باستطاعة المعلمين تلقين دروسهم جنباً الى جنب دونما تقيد بنظام مشترك ؛ وغدا باستطاعة الطلاب الانتقال من معلم الى آخر ومن مدينة الى أخرى - وقد احصوا ، مع الحجاج والتجار ، بين مستخدمي الطرق التي نمت حركة السير فيها - وكان هذا التنوع نفسه مثمراً مخصباً .

اضف الى ذلك ان آفاقاً فكرية اعظم اتساعاً قد انفتحت امام المستمعين الذين يجلسون على الارض المغطاة بالموص ويصغون الى « الدروس » ، أي القراءات التي يشرحها المعلوب ، ويدونونها هم بإيجاز . كان درس الفنون العقلية السبعة يؤلف جوهر العمل المدرسي الذي كان مجرد مخالطة سلبية وسطحية لبعض النصوص المقدسة او غيرها وتأمل بطيء في « المراجع الكبرى » ؛ فلم يكن باستطاعة رجال الفكر ، بعد مثل هذه الثقافة ، وحين يضطرون للانتاج ، الا جمع ذكرياتهم الدراسية دون منطق واحكام . الا ان تقدماً مزدوجاً قد احرز منذ النصف الثاني من القرن الحادي عشر : فقد درست الفنون العقلية باعتماد طرق افضل ، ولم يعد لها ، خصوصاً ، بالنسبة للعقول النيرة ، سوى دور تحضيرى في حلقة الدروس .

تميز التقدم في المواد القديمة ، اللغة والبيان ، بتلّين ادوات التعبير . الا ان اللغة اللاتينية ، وهي لغة حية حقيقية لكافة رجال الكنيسة ، وقادرة على التعبير عن ادق الافكار ، قد حافظت على نقاوتها كاملة لأنها امست ، ببعدها عن الالسن الشعبية ، بمنأى عن إعدادهم ، وخصوصاً لأن مطالعة كبار مؤلفي العهد الكلاسيكي انحصرت تدريجياً في حلقات ضيقة . فحدثت في أوائل القرن الثاني عشر « نهضة » جديدة ، هي مجهود اختياري في سبيل العودة الى ثقافة العصور القديمة الكلاسيكية عن طريق دراسة خير مؤلفاتها الادبية ؛ فتناول الشرح ، في المدارس العلمانية ، « فرجيل » و « اوفيد » و « لوكان » و « هوراس » ، لا كمأثلة لغوية ممتازة فحسب ، كما في السابق ، بل باعجاب وتعطف عميق . فتحرر المعلمون والتلاميذ تحرراً كاملاً من ذلك الحذر الذي ابداه معظم المفكرين المسيحيين بصدد المؤلفين الوثنيين ؛ وجعلوا منهم غذاء روحياً ، فاستندوا طوعاً ، مثلاً ، لحل المعاضل الاخلاقية ، وحتى المعاضل التي واجهوها في علائقهم بالخالق ، الى كتاب « الصداقة » لثيشرودن والى رسائل « سينيكا » . ورافق مخالطة الكلاسيكيين هذه تصنع في الانشاء ؛ وبلغت الانتباه انشغال رجال الكنيسة في القرن الثاني عشر بالمهارة الادبية ؛ فقد هدبوا الرسائل التي وجهوها الى أصدقائهم ، وألّفوا مجموعات رسائل اخرى على

الطريقة الشيشرونية معدة للنشر ؛ ودرج رئيس دير « كلوني » ، « بطرس المحترم » ، على طلب الراحة من متاعب وظيفته بكتابة قصائد رقيقة الصيغة والنظم برفقة اوسع رؤوسيه ثقافة ؛ كما ان القديس برناردوس ، الزاهد ، الذي كان يؤكد مازحاً لأبنائه في دير « كليرفو » انه لا يعرف معلماً افضل من اشجار الغابات ، قد كتب عظامه وأبحاثه الصوفية في لغة مليئة ببيان رفيع . الا ان هذا الميل الى التصنع قد رافقه تقدم محسوس في الثقافة الحقيقية ؛ واذا ما استندنا الى النتائج ، للحكم على أساليب تعليم الفنون العقلية كما طبقت في مدارس شارتر وباريس ، جاز القول بأنها حسنة ، وقادرة ، بتوجيهها الادبي ، على بعث الشغف بالادب والايفال في معرفة القلب البشري .

غير ان هذه الدروس قد اعتبرت آنذاك مجرد اطلاع أولي وتحضير لاستكشاف حقول جديدة . فبدون ان نتكلم عن لهجة غدت اعظم ذاتية ، ومحاولة اقناع وفراصة بدت آنذاك في المؤلفات الادبية البحتة التي توغلت بعيداً ، ككتاب « أبيلار » « تاريخ مصائبي » او رسائله الى « ايلوييز » ، في التحليل السيكولوجي ، او حاولت درس الانظمة السياسية ، ككتاب « جان دي ساليزبوري » ، « الحاكم » ، نرى ، منذ اواخر القرن الحادي عشر ، تقدماً سريعاً في بعض المواد الدراسية التي لم تكن حتى ذاك العهد سوى ملاحق غير ذات شأن للفنون العقلية — بعض العلوم العملية التي لم يكن لها مكان في حلقة الدروس العادية للاعداد الكنسي البحت — كاللاهوت و « أمته » التي اخذت تتحرر شيئاً فشيئاً : اعني بها الفلسفة .

ساعدت العلائق الودية بالعالم العربي على تحقيق التقدم في حقول العلوم واللاهوت والفلسفة
من حقول المعرفة : علم مجرد اولاً ، الرياضيات ، الذي درسه جريبر في كاتالونيا منذ اواخر القرن العاشر ، واندماج تدريجياً في برامج التعليم المعتمدة في « شارتر » و « لان » ، والذي ساند التعمق في دراسته جهود اصحاب النظريات الموسيقية وأتاح الاكتشافات الهندسية الرومانية ؛ وعلم تقني ثانياً ، الطب ، الذي اقتبست طرائقه عن مفسري ابقرات من المسلمين ، وانتشرت بواسطة مدارس خاصة اسست على مقربة من الحدود الاسلامية ، كمدارس « ساليرن » التي اشتهرت منذ القرن العاشر ، ومدارس « مونبلييه » التي تأسست في اوائل القرن الثاني عشر . وهناك ابحاث اخرى تخطت اطار الفنون العقلية السبعة ، اعني بها ابحاث الحقوقين . فقد دفع اليها ، في آن واحد ، نمو المقايضات التجارية وتوسع المدن ، اللذان اوجدا صعوبات قانونية لم يكن العرف الاقطاعي ليستطيع حلها ، ومشادة التوليات التي أدت الى تصحيح المجموعات القانونية ووضع جدول عام بالمراسيم بنية تمكين الادعاءات البابوية . وهم الايطاليون بنوع خاص من قام بهذه الابحاث التي سارت في اتجاهين : نحو درس القانون الروماني بتفسير « المجموعة » ، الذي توصل في « رومانيا » بنوع خاص ، في المقاطعة اللاتينية التي خضعت لأطول سيطرة بيزنطية ، في « رافنا » أولاً ، ثم في مدارس بولونيا التي أشهرها ، في وائل القرن الثاني عشر ، إرنريوس مفسر النصوص المبهمة ؛ ونحو وضع الحق القانوني نهائياً

بالتقريب بين المقترحات المختلفة الواردة في مجموعات المراسيم ، وهو محاولة توفيق افضت حوالى
السنة ١١٤٠ الى « مرسوم » غراتيانوس .

بيد ان اعظم تقدم تحقق آنذاك في الحقل الفكري هو تقدم المنطق والبحث العقلي المطبق
على المسائل اللاهوتية . ما زالت الفلسفة ، في القسم الاول من القرن الحادي عشر ، مجرد قرين
ثقافي تابع للجدل ومعدّ لترويض عقل الطلاب ؛ وهكذا يفسّر المعلمون امامهم ، في مدارس
شارتر ، بعض النصوص التي تمكس المذهب الافلاطوني ، وبعض الصفحات من مؤلفات سينيكا ،
وبعض اجاث « بويس » و « جان سكوت » ؛ ثم يثيرون النقاش بطرح المسألة التي استهوت
مفكري ذلك العصر ، أعني بها مسألة حقيقة « المثل العامة » . ولكن هذه التمارين العقلية ما
زالت بعيدة كل البعد عن المشاغل الدينية : فالمسيحي آنذاك يحاول الاقتراب من الخالق بواسطة
الحبة لا بواسطة مجهود عقلي . الا ان الحاجة قد برزت حوالى السنة ١٠٧٠ ، بفعل نمو المعارف
والرشاقة المتزايدة في القوى العقلية ، لا الى مناقشة مضمون الوحي ، بل الى التعمق فيه بالبرهان ؛
فلم يعد الاله ، بالنسبة لكهنة الجيل الجديد ، محبة فحسب ، بل حقيقة ايضاً ، وانما على العقل
بني تشابه الانسان به ؛ فشرعوا من ثم يدرسون العقيدة درساً عقلياً ؛ واخذ ايمانهم يبحث عن التفهم .
اما هذه الكلمة « الايمان يبحث عن التفهم » فقد قالها السيد « انسلموس » (١٠٣٣ - ١١٠٩)
رئيس دير « بيلك » ، ثم رئيس اساقفة « كنتربري » ، وهو من شق الطريق امام اللاهوت العقلي ،
الوثيق الارتباط بالفلسفة ، الذي تقوم مهمته بالتوفيق بين الوحي والعقل . فطبقت طرائق
الجدل على قراءة الكتب المقدسة ومؤلفات الآباء وبدلت منها الطابع تدريجياً . وتماظم رويداً
رويداً دور التفكير الشخصي ؛ اجل ما زال القارئ يستند الى المراجع التقليدية العظمى ،
ولكنه تصرف حيالها بمزيد من الحرية ؛ وحل محل الشرح الانتقادي والتفسير الحرفي بفضل
« انسلموس دي لان » ، تلميذ القديس انسلموس ، وأحد مشاهير المدرسين ، « الحكم » ، أي
مجموعة مقاطع الكتاب المقدس والآباء المتعلقة بهذه النقطة الهامة او تلك من العقيدة . وعن الحكم
صدرت « المسألة » : فاذا ما برز خلاف بين المراجع المتقابلة ، يعود الى المنطق امر التوفيق بينها ،
فيلعب العقل آنذاك ، وهو ابدأ في خدمة الايمان ، دوراً أساسياً في البحث عن الحقيقة . وهكذا
تأسست الطريقة المدرسية (*Scholastique*) في غضون جيلين من الزمن .

لم تلبث اخطار تحرر القوى البشرية هذا ان ظهرت ، لا سيما في تعاليم بيري ايلار في باريس
وفي مجموعة المسائل التي وضعها تحت اسم « هكذا وكلا » . افليس احترام النصوص المقدسة
والايمان نفسه مهددين الآن بحسرة بعض المعلمين العلمانيين الواثقين من حجّتهم وطاقتهم ؟ فارتسمت
منذ ذلك الحين ردود الفعل الاولى ضد الجدل : لقد تصدى القديس « برناردوس » و « هوغ دي
سان فكتور » - وهما « نظاميان » مثلاً - خير تمثيل اولئك الذين يسعون وراء التواضع والفقر
ويتوقون الى الاهتداء الى روحانية الكنيسة الاولى والعودة الى الحياة الرسولية ، ويستندون ،
في سبيل ذلك ، الى العهد القديم والقديس اوغسطينوس والآباء اليونانيين - للاهوتين العقلين ،

وقابلهم بالطريقة الصوفية معتبرين ان المحبة هي السبيل الحقيقي الذي يقود الى الله ، وقد وجدوا ، في طريق التأمل هذه ، عوناً في التعبد للعذراء الوسيطة . وفي السنة ١١٤٠ توصل رئيس دير « كليرفو » ، في مجمع « سنس » ، الى استصدار حكم على بعض اقتراحات جسارة تقدم بها ابيلاز ، الذي خارت عزائمه فهجر العالم ؛ وفي مجمع « رمس » الذي انعقد في السنة ١١٤٨ توصل ، بعد نقاش طويل ، الى حمل المعلم الباريسي « جيلبير دي لا بوريه » على التراجع عن رأيه . ولكن هذه الانتصارات تحققها الروح الرهبانية ، وهذه العقوبات ، وهذه الازعاجات ، وهذه التضحيات يقدمها كبار المفكرين في سبيل وحدة الكنيسة ، لم تكن لتنتقص من نشاط الابحاث المنطقية . فما زال عدد الطلاب يتزايد باطراد في مدارس باريس حيث يجتمع اعظم الجدلين مهارة وحيث يكتمل بناء اول مذهب بين المذاهب الفلسفية الكبرى في الغرب .

لم يبقَ من النشاط الفكري في الكنيسة دونما صدى في ارفع الشرائع المتجولون والاغاني اليمائية طبقات المجتمع العلماني التي وسعت آفاقها وهذبت أذواقها الحملات العسكرية النائية ؛ فقد نشأ وازدهر ادب مكتوب باللغة العامية معد لتسلية اولئك الذين لا يستطيعون الاطلاع مباشرة على المؤلفات اللاتينية . ثم جمعت في اواخر القرن الحادي عشر ، خدمة لأعضاء طبقة الفرسان ، وبمساعدة ادياء محترفين ، من الكهنة في الاربعاء ، او اقله من خريجي المدارس الكنسية ، قصائد وأناشيد تنقلها الناس شفها حتى ذلك العهد . وكانت ثمة مركزان رئيسيان يقابلها وحيان مختلفان . ففي الأكيوتين ، انشدت ، في الاجتماعات الاقطاعية التي تختلف اليها السيدات الارستوقراطيات ايضاً ، قصائد قصيرة باللهجة الجنوبية من نظم بعض الأسياد في الغالب (اول هؤلاء الشعراء المتجولين النبلاء هو دوق اكيوتين « غليوم التاسع دي بواتيه ») تدور حول موضوع أساسي هو العلاقة الحبية . ان هذه العاطفة ، وقد كانت في الاصل شهوانية جداً وموصوفة بوقاحة ، تخلت شيئاً فشيئاً عن شهوانيتها ، في النصف الاول من القرن الثاني عشر ، وتبدلت تحت تأثير العادات الاقطاعية والروحانية المسيحية ، وغدت تفانياً على بعض اللبس في سبيل السيدة المختارة ، « البعيدة » بالتفضيل وبصورة عامة . وفي الوقت نفسه ازدادت القواعد والاوزان الشعرية تعقيداً ودقة .

اما في شمالي فرنسا ، فان مجتمع الفرسان ، وهو اكثر ميلاً الى الحروب منه الى الحياة العالمية ، قد آثر الملحمة العسكرية ، اذ قد تأخر هنا ارتقاء المرأة في حياة المجتمع العالي الذي يعبر عنه الهام الشعراء الفنانيين الناطقين باللغة الشمالية ، واتساع العبادة المريمية ، او نشاط الصوفي « روبر داربريسيل » الذي أسس جمعية راهبات في « فونتفرو » في السنة ١١٠١ ؛ فأشيد بالفضائل النبيلة ، البسالة ، والامانة للمسيح والانساب ورفاق الحياة الاقطاعية ، في قصائد مسجعة متعاقبة طويلة يواجه ابطالها من الشخصيات التاريخية في العهد الفرنجي معاضل راهنة ، كالصراع ضد « الوثنيين » المسلمين او متناقضات الاخلاق الاقطاعية ؛ وقد جاءت بعض هذه الاغاني اليمائية ، ولا سيما اغنية « رولان » ، على جانب كبير من الجمال العنيف احياناً ، وهي

من نظم فنانون عظام انقادت لهم التقنيات الادبية . وفي الثلث الثاني من القرن الثاني عشر ، بينا توثقت الروابط ، بفعل اتساع حركة المقايضات الشامل ، بين المناطق الشمالية والمناطق الجنوبية ، وبينما اخذت العادات الجنوبية تدخل الى بلاطات شمالي « اللوار » بفعل زواج لويس السابع ، ملك فرنسا المقبل ، من « اليا نور » ابنة دوق « الاكيتين » ، تسربت الى ادب فرنسا الحشن ، مواضيع الشعراء المتجولين الحبيسة التي توسع فيها وحسنها بعض الكهنة المعجبين ب « اوفيد » . وتكون في الوقت نفسه ، تحت تأثير النهضة الادبية والمقتبسات الشرقية ، لون جديد للقصة القديمة تشابكت فيه ، تمشياً مع تطور الذوق ، حول شخص الاسكندر او « اينديوس » ، المغامرات الحربية والدسائس العاطفية .

٦ - النهضة الروحية : الازدهار الفني

ان محاولات مهندسي العمارة والرسامين والنقاشين ، التي لم يوقفها الانحطاط الكارولنجي ولا الغزوات ، قد افضت اخيراً ، في الربع الاخير من القرن الحادي عشر ، الى تكوين نمط عظيم . كما ان تسهيلات التنقل ، التي أتاحته سرعة انتشار التقنيات المهنية ومواضيع الالهام ، والتقاء الفنانين التقاء متكرراً ومقابلة نتائج اختباراتهم ، قد شجعت هذا الازدهار الحامس الذي بعثه كذلك تقدم الدروس ، والمعارف الرياضية بنوع خاص ، واثراء المؤسسات الرهبانية الكبرى : فاستخدمت الاموال الناجمة عن بيع فائض الحصاد وحصيلة الاعشار والاثاثات على الاراضي المستثمرة ، لنقل مواد البناء وتعمد البنائين ، بينا أتاحته حركة التداول النقدي المتزايدة نهضة المصانع الفنية الاختصاصية . الا ان النشاط الفني قد بقي سائراً في الاتجاه نفسه : خدمة الله والاحتفاء بمجده عن طريق تجميل الكتاب المقدس ، ولا سيما المعبد . فلنسا نشاهد بعد ، كما هي الحال في الادب ، فنانون يلبون طلبات الزين العلمانيين ؛ لذلك فقد بدت النهضة في تشييد وتزيين الابنية الدينية المختلفة الاحجام ، ابتداء من الكاتدرائيات حتى اوضع المعابد الريفية . بيد ان ارحب الابنية هي الابنية الرهبانية : ففي الاديرة البندكتية ، حيث استمر تقليد اوجده « بنو دانيان » ، لا سيما فروع جمعية « كلوني » ، دفع الحرص على تحقيق « عمل الله » كاملاً ، بالرهبان ، الى تكريس معظم مواردهم النقدية لعظمة أماكن العبادة . فبعثت هذه المشاريع الكنسية فناً بنائياً هو الفن « الروماني » الذي يتميز في الهندسة بشمول استعمال العقود ، وفي التزيين بالعودة الى النقاشة الكبرى التمثيلية والبنائية .

ظهرت الدلائل الاولى لنهضة هندسة العمارة في السنة ١٠٠٠ في
هندسة العمارة « الرومانية »

الوقت نفسه الذي حدث فيه تقدم الرياضيات ، وقد لاحظها المؤرخ « راوول له غلابر » ؛ وان تنويعه « بالمعطف الابيض من الكنائس الجديدة » الذي التحفته الارياف الغربية آنذاك لذر شهرة حلال . الا ان الابنية التي ارتفعت في السنوات الاولى

من القرن الحادي عشر بقيت بسيطة وعابسة وعارية ، ولم تتطور الطرائق المعمدة في العهد الكارولنجي الا بكل بطء وتردد . فتصميم المعابد لم يتحول : اذ ان المستحدثات الرئيسية (اضافة الكنيسة السفلية والصحن المحيط بالخورس والنارتكس أي جناح الموعوظين) قد حققت في القرن الحادي عشر ، اشباعاً لحاجات الطقس الجديدة . اما المعضلة التي سعى الفنانون آنذاك لحلها فهي معضلة الغناء ؛ فحاولوا نشر العقود فوق كافة اقسام الكنيسة ، ولا سيما الصحن الوسطي الكبير ، بعد ان كانت محصورة في الاقسام الضيقة المتينة من البناء ، كالسرداب ، والطابق الارضي من المدخل الذي يعلوه برج الاجراس ، وصدر الكنيسة فوق المذبح . وتوجب عليهم من ثم ايجاد طريقة تمكنهم من تحميل جدران الكنيسة حجارة وملاطاً أثقل وزناً الى حد بعيد من وزن الهيكل الخشبي المعتمد تقليدياً في الكنائس الكبرى . اجل لقد توفرت لهم بعض عناصر الحل : اذ ان المهندسين الكارولنجهين قد استعاضوا عن العمود بالركيزة واستعملوا الدعائم الخارجية للجدران . ولكن ما زال امامهم تطبيق هذه التدابير الجزئية على المساحات الكبيرة . فتميزت مراحل محاولاتهم بالفشل المتكرر وتطأطؤ عقود الصحن او انهيارها ، كما ورد في اليوميات الرهبانية . وقد ظهرت الصحن المقودة اولاً ، على ما يبدو ، في كنائس الاريا في الوضيعة الضيقة المظلمة المحفورة في الصخر ، في مناطق استوريا ، ثم في جبال البيروني الكاتالونية . وانتشر شيئاً فشيئاً استعمال الاقواس المتوازنة المتقاربة في العقود المستديرة التي ترسي معظم ثقلها على ركائز تساندها الدعائم من الخارج ؛ ثم استعمال العقود المستديرة المتقاطعة التي تحول ضغطها الى اركان الزوايا الاربع ؛ ثم استعمال القبة ، وقد امتدت على اقواس صغرى في الزوايا او على الاقواس الكبرى ، وقد اتاح ذلك اسناد غمام الكنيسة الوسطى الى الاقسام الضيقة الاربعة المحيطة بالوسط ؛ واكتشفت تدريجياً اخيراً كل الحلول المعدة لاسناد العقود بعضها الى بعض . ولنا على هذه المحاولات وهذه التجارب ، الموفقة او الفاشلة ، التي استغرقت القسم الاكبر من القرن الحادي عشر ، امثلة كثيرة في بعض الابنية المعقدة ، كدير « تورنوس » في بورغونيا . فكانت نتيجة هذه الجهود ، حوالي السنة ١٠٧٥ ، ظهور تحف رائعة كثيرة وابتداء عهد العمارة « الرومانية » العظيم .

جاءت هذه الهندسة متنوعة جداً ، فبذلت من ثم محاولات كثيرة لنسبة كنائس هذا العهد الى مدارس اقليمية مختلفة . اجل ان تصميم البناء الجديد الموفق ، الذي يعود فضل نجاحه الى فنان معين ، قد اقتبس تكراراً في عدد من الابنية الثانوية المجاورة ، ولا سيما في المعابد الريفية الصغيرة التي اعتمدت في تشييدها تصاميم هندسية اقل توفيقاً . بيد ان من شأن هذا التوزيع الجغرافي اغفال نشاط المقايضات الاقليمية ، وهو بالضبط الظاهرة التي تميز أواخر القرن الحادي عشر : فالواقع هو ان عناصر مشتركة تتجانب في الكنائس الكبرى المقامة على طريق معينة مطروقة ، كتلك الكنائس مثلاً التي تقع ، بين « تور » و « كومبوستيل » مروراً بـ « ليموج » و « تولوز » ، على احدى طرق الحج الكبرى الى مزار القديس يعقوب . ونلاحظ كذلك

الالهام نفسه والمبتكرات المتأثلة في بعض الاديرة النائية عن بعضها والتي تجمعها روابط دينية الطابع . لذلك يجب ألا نسقط من حسابنا العلائق الشخصية التي قامت بين رؤساء الجمعيات الكنسية ، وانتقال فرق العمل من مكان الى آخر ، في تفسير هذه التأثيرات المتداخلة التي تبدو في بورغونيا مثلاً حيث ظهرت وتوازت نزعتان متباينتان نشأتا عن النجاحات الاولى المحققة في المنطقة البريونية (نسبة الى *Brionnais*) فأفضت اولاهما الى كنيسة كلوني الكبرى والاخرى الى كنيسة دير فيزلاي . ولكن الواقع الهام هو تنوع الحلول التي تناولت معاضل التوازن : وهكذا فقد تجاوزت في « بواتو » الكنائس ذات الصحن الثلاثة المتساوية الارتفاع ، والكنائس ذات الصحن الواحد ، والصحن الجانبية ذات العقود المستديرة المتقاطعة . والصحن الجانبية ذات العقود المستديرة المتوازية ، والصحن الكبرى ، اخيراً ، المسقوفة بالقباب المتلاصقة . وان في هذا التنوع لتعبيراً عن المحاولات الحثيثة والقوة الخلاقة العظمى التي اجتابت الحضارة الغربية كلها قبيل وبعيد السنة ١١٠٠ .

خضعت تقنيات الزخرفة واسلوبها لتطور أبسطاً حركة . ففي النصف الاول من القرن الحادي عشر لم تستخدم سوى الطرائق والمواد المعروفة في العهد الكارولنجي تقريباً : فكان المزهرفون مصورين على الجدران ، او مصوري لوحات مصغرة ، او صاغة . وأنتجت اجمل الزخارف الملونة ، التي تجدد فيها الالهام بدخول المواضيع التصويرية المقتبسة عن الكنائس المسيحية الشرقية ، في معامل « تريف » و « اخترناخ » الجرمانية ، او في اسبانيا الشمالية والاكتيتين المتأثرتين بفن النصارى من رعايا دولة الاندلس ، كذلك التي تزين مخطوطات بياتوس في تفسير كتاب « الرؤيا » ، ولعلها اجمل زخارف الكتب الغربية المصورة في القرون الوسطى . اما الفن المعدني فقد حقق اجمل مصنوعاته في المناطق التابعة للامبراطورية ، ولا سيما في وادي « الموز » ، حيث أكمل « رينيه دي هوي » في السنة ١١٠٨ جرن العماد البرونزي في كنيسة « القديس برتلماوس » في « لياج » . الا ان زخرفة الابنية التي تقدمت الابنية « الرومانية » العظيمة قد بقيت زمناً طويلاً في منتهى البساطة : وقد تمثلت في جواهرها ببعض تنضيدات بنائية في الجبهة ، كالطرائد اللومباردية المقتبسة عن الزخارف الخارجية في أبنيّة « رافنا » . اما الابتكارات الوثيقة الارتباط ببعضها والتي تحققت فجأة في السنوات الاخيرة من القرن الحادي عشر ، فهي التالية : تزيين البناء الديني بالاشكال الزخرفية المعتمدة على نطاق ضيق منذ زمن بعيد في الرق والعاج والبرونز ؛ وانطلاقة النقاشة على الحجر التي لم تندثر تقنياتها اندثاراً تاماً في غالباً منذ النواويس الاخيرة المزخرفة المنتجة في المصانع البيزنطية وتيجان الاعمدة الاولى المستعملة في كنيسة « جوار » المدفنية . انها لثورة فنية حدثت في آن واحد في « بورغونيا » حول « كلوني » - ربما تحت تأثير الصياغة الاسبانية وتحت تأثيرات فنية اخرى أكيدة ، لأن الدير الكبير كان آنذاك ، شأنه شأن روما ، قلب المسيحية النابض وأقوى مراكز الجاذبية - وفي « لنغدوك » ، في « تولوز » و « مواساك » ، بفضل الاتصال المباشر بالزخارف التصويرية والاشكال الحجرية

في اسبانيا المستردة . فارتبطت الزخرفة المنقوشة منذئذ ارتباطاً وثيقاً بنجاحات الهندسة « الرومانية » .

انطوت هذه الزخرفة على فن تصويري اولاً : فاذا حافظت المواضيع المواضيع التصويرية الهندسية والنباتية في الزخرفة البربرية على حيويتها ، واذا تكاثرت وتجددت بفضل المصنوعات الشرقية المستوردة ، فقد غدا الموضوع الرئيسي ، مرة اخرى ، الشكل البشري ، وفي هذا التطور دليل على عودة الى المفاهيم القديمة ، أي نهضة اخرى ملازمة للنهضة الادبية . ولكنه فن مقدس ايضاً : فليس تمثيل الاشكال في نظر المصور « الروماني » سوى وسيلة لجعل القوى الفائقة الطبيعة محسوسة ، ولا سيما عظمة قدرة الله الذي يظهر ، في أبهى جلاله ، ديتاناً في الدينونة الاخيرة او في وسط رموز رؤيا القديس يوحنا . وفن تزييني في جوهره اخيراً ، مرتبط بالاطار الهندسي ، تتميز نجاحاته ، بالضبط ، في التوفيق توفيقاً مطرد الكمال بين الاشكال وهندسة البناء . ولم تزخرف في البناء سوى بعض عناصره فقط : تيجان الاعمدة ، ببعض التبسيطات النباتية اولاً ، وببعض مشاهد الحياة التي تملأ الاطارات المخصصة لها تماماً ايضاً ، كما في كنائس منطقة « اوفيرنيه » ، في كاتدرائية « سان - لازار » ، في اوتين وفي دير « فيزلاي » ؛ والجهة ايضاً ، سواء كانت الزخرفة مجموعة عريضة من الافايز والنقوش الناتئة التي يتوشح بها الجدار الغربي بكامله ، كما في « بواتو » ، ام تزييناً في الابواب فقط . الا ان الباب الضخم ، وهو مجموعة معقدة تتداخل فيها المسطحات المزينة والتقنيات وصفوف الاعمدة ، الذي اخذ شكله النهائي ، على ما يبدو ، في « كلوني » اولاً ، بعد محاولات عديدة في الكنائس البريونية الصغرى ، والذي نسج على منواله في « بروفنسا » بأشكال تستلهم العصور القديمة استلهاماً مباشراً ، كان ، دونما ريب ، اجمل ما حققه المزينون في اوائل القرن الثاني عشر .

حدثت انطلاقة النقاشة المفاجئة في تزيين المعبد من دور الرسم الذي بقي رئيسياً حتى اواخر القرن الحادي عشر . ومع ذلك ففي داخل الكنائس ، وتحت العقود المستديرة وفوق المذبح وفي اقسام الجدران الواسعة التي تتخللها نوافذ ضيقة ونادرة ، ما زالت العصور ترسم بالالوان المزوجة بالماء والصمغ والآح ، يتأدى فيها المنعى الكارولنجي في الرسم على الجدران ، بحرية احياناً كما في « تافان » ، او بتبسيط وتعظيم على غرار الصور البيزنطية المصغرة .

ان في هذا الازهار التزييني لأوضح دليل على ازدياد الثروات في الجمعيات الدينية . لذلك فقد تشكى الراغبون في احياء روح الفقر في الكنيسة من الميل الى الزخارف الزاهية : فانتقد القديس برناردوس بشدة النقاشة الكلونية ؛ اما السيسترسيون الذين برهنوا في اول عهد جمعيتهم عن حرية رائعة ومهارة عظيمة في زخرفة كتبهم ، فقد حظروا كل تزيين في كنائسهم حرصاً منهم على الاملاق التام . ولكن فنهج المجرد الذي استهدف توازن الكتلة الجبرية العارية قد حقق مع ذلك ازدهاراً جمالاً ، كما في « فونتناي » او توروني ؛ جمال صاف ومجرد منبثق عن علم الاعداد

بفعل ذلك التوافق الموسيقي نفسه الذي رغب القديس « هوغ دي كلوني » في رؤيته ممثلاً ،
بشكل رمزي ، على التيجان المنقوشة فوق اعمدة الخورس في « كنيسة الكبرى » .

بيد ان الفن « الروماني » جنوبي في جوهره ، عميق الجذور في المقاطعات التي تأثرت من
قبل تأثراً قوياً بحضارة روما ؛ وصنّاعه الاولون هم المصورون الاستوريون والبنّاؤون
اللومبارديون ؛ ازدهر في بروفنسا ولنغدوك وبواتو وبورغونيا ؛ ولم تختلف ركائز الكاتدرائية
وأقاريزها ، في اوتين وآرل ، عن الزخارف التي تزين الاطلال الرومانية القريبة . الا ان المانيا ، في
الوقت نفسه ، بقيت أمينة للتقاليد الفنية الكارولنجية ، كما ان الصحن المرتفعة في الكنائس
النورماندية لم تسقف بالعقود . وعلى الرغم من ذلك فقد جرت في اوائل القرن الثاني عشر
محاولات هندسية جديدة في شمالي اللوار : فقد انتشر في « ايل دي فرانس » بين السنة ١١٢٠
والسنة ١١٣٠ استعمال الاقواس المتقاطعة التي سبق واستعملت في السنة ١١٠٠ في خورس
كاتدرائية « دورهام » ؛ وبرزت حسنات طريقة الغمام الجديدة في بناءين كبيرين ، كاتدرائية
« سنس » وكاتدرائية « سان - دني » . اما باب هذه الكنيسة الاخيرة ، فقد نقشه ، بناء
على اشارة « سوجر » رئيس الدير ، فنانون ربما جاؤوا من لنغدوك ؛ فهو ، بتأثيله - الاعمدة ،
حاصل النقاش « الرومانية » واولى آيات فن التمثيل القوطي .

كانت التبدلات الاقتصادية العميقة التي حدثت في السنة ١٠٠٠ اساساً لتقدم فائق السرعة
تحقق ، بين السنة ١٠٧٥ والسنة ١١٥٠ ، في كافة حقول النشاط البشري . حيوية نابضة ،
اخصاب ، وتنوع ايضاً : كان عهد النمو هذا حافلاً بالمتناقضات في السجايا والميول والاذواق .
وقد برزت المتناقضات ، مثلاً ، في اشخاص ثلاثة رجال قاموا بالوظائف نفسها ، وظائف مديري
الجمعات الرهبانية ، وتعارفوا وتحابوا ومثلوا معاً وبالتساوي اوائل القرن الثاني عشر :
« سوجر دي سان - دني » ، وهو اداري ماهر ومستشار رشيد للملوك فرنسا ؛ وبيير المحترم
رئيس دير كلوني ، وهو اديب رقيق ، متزن وعطوف ؛ وبرناردوس رئيس دير كليرفو ، وهو
متقشف وصوفي ومرشد حازم وعنيف للنصرانية .

الا ان هذه التيارات الصاخبة المتباعدة اخذت تهدأ وتتقارب ، في منتصف القرن الثاني
عشر ، بعد ان توارى هؤلاء الرجال الثلاثة . فانفتح عهد جديد امام الغرب المسيحي ، عهد
تنظيم وانضباط وتهدئة وكلاسيكية وأبنية كبيرة متوازنة .

الفصل الثاني

انكفاءات الإسلام وبيزنطية وصراعا تحما (القرن الحادي عشر - القرن الثاني عشر)

ان اللوحة التي نستطيع رسمها للعالم الاسلامي في النصف الاولي من القرن الحادي عشر قد تتميز ، اذا ما قورنت بانطلاقة اوروبا المسيحية ، بالفوضى السياسية والانقسامات الدينية ، وحتى بالانحطاط الاقتصادي في مناطق واسعة من هذا العالم . وثاق المسلمون المتزايدون عدداً ، امام هذه المحن الخطيرة ، الى الوئام والوحدة ، لا سيما وان الحكومات الخارجة على السنة ، كحكومة الفاطميين في مصر مثلاً ، لم تحقق الآمال الموضوعة فيها . فقدّر لبعض المغامرين ، الذين ضموا قوة السلاح الى الدعاوة الدينية فحققوا انتصار الدين القويم وأسسوا قوة سياسية جديدة لن تلبث وثبتت قدرتها ، أقلته على اضعاف او ايقاف توسع المسيحية الغربية . وقد حدثت هذه النهضة ، في آن واحد تقريباً ، في طرفي العالم الاسلامي : في الولايات الغربية - المغرب واسبانيا - بفضل البربر ، وفي الشرق بفضل تدخل القوة التركية .

عاشت بين الصحراء الكبرى والسودان قبائل من البربر الرحل اعتنقت المرابطون والموحدون الاسلام منذ عهد قريب . فكون منها بعض المبشرين ، في منتصف القرن الحادي عشر ، مجموعة من غلاة المتعصبين شنت على الاوثان من العبيد الحرب المقدسة التقليدية . أقام البربر في اديرة محصنة يدعى الواحد منها بالرباط الذي اشتق منه اسمهم « المرابطون » - « اهل الرباط » - . وأقنعوا ، دونما صعوبة ، بوجود تنظيف المراكز التي صورها لهم فقهاء المغرب المالكيون كمراكز افساد الاخلاق : فاحتلوا في سنوات معدودات مراكش والنصف الغربي من الجزائر الحالية . ثم استدعاهم الى اسبانيا اولئك الذين أقلقهم ضعف الامراء المسلمين وتحليلاتهم في وجه الفتح المسيحي ؛ وصادف ذلك من الجهة المسيحية ، فترة حلول تصلب فرسان ما وراء البيرينيه ، الذين سيقومون بالحملات الصليبية في الشرق ، محل روح التفاهم بين الاديان التي ما زال يمثلها (السيد) في فالنسا . فتوحد بين السنتين ١٠٨٦ و ١١١٠ على

أيدي المرابطين كل ما تبقى من اسبانيا الاسلامية، أي النصف الجنوبي من شبه الجزيرة بين مصبي الناج والايبر . وتوطدت بوجودهم الدكتاتورية الملكية المتسكة بحرف القانون واللاهوت ؛ كما تجددت في عهدهم الحرب المقدسة ضد المسيحيين وأصبح موقفهم من اهل الذمة في الداخل أشدّ تصلباً .

الا ان البربر الاشداء ما لبثوا ان ترفوا في الاندلس ؛ اضيف الى ذلك ان حاجات الجماهير الدينية ما كانت لتتقبل دكتاتورية الفقهاء زمناً طويلاً . فنشأت حركة جديدة اعظم قوة ، وأعظم تميزاً ايضاً بسبب انتمائها الى البربر المراكشيين الحضريين ، هي حركة الموحيين التي أسسها ابن تومرت ونظمها من بعده عبد المؤمن الذي ستملك سلالته منذ منتصف القرن الثاني عشر حتى منتصف القرن الثالث عشر . فنادى ابن تومرت ، الذي تلقن في الشرق تعاليم الغزالي الصوفية ، بالعودة الى مصادر الايمان المباشرة . ثم قرر تحطيم حكم الفقهاء المطلق ، فأعلن نفسه مهدياً ، بالمفهوم نفسه تقريباً الذي ألصقه الاسماعيليون بهذا الاسم . اجل ، لم يفلح بعمله هذا في القضاء على نفوذ الفقهاء الذي ما زال عظيماً في المغرب حتى ايامنا هذه ؛ ولكنه استطاع ، كما حدث في الشرق ، ان يدخل على الدين القويم في الغرب عاطفة صوفية عميقة ستجسم ارتفاعاتها باكرام الأولياء الذي هو الصفة المميزة للورع الشعبي .

ان اسبانيا الموحدة ، بعد ان تحررت من ظلم الملكية ، وعلى الرغم من الحضارة الاندلسية استمرار تصلبها حيال المسيحيين ، وحتى اليهود ، شجعت انطلاقة الفكر الاسلامي الذي بلغ فيها اوجه آنذاك . انها ، والحق يقال ، لفترة هامة جداً: فقد حلت الثقافة الاسبانية - الاسلامية محل الشرق في الحقول التي اخذ هذا الاخير في املها ، وفي الوقت الذي كان فيه الغرب المسيحي مستعداً لأن يتقبل ، من ايدي المفكرين الاسبانيين، اصول الثقافة الاسلامية . حرية في البحث والفكر لعل ابن طفيل عبّر عنها خير تعبير في قصته الفلسفية « حي ابن يقظان » التي توصل فيها الى نوع من الديانة الطبيعية تتغلب فيها العاطفة على التمسك المفرط بالشكليات . ولكن الأثر الاكبر في فكر الغرب المسيحي سنتركه مؤلفات ابن رشد الذي وضع اوضح شرح منظم لمذهب ارسطو: فقد عرضت فيه تعاليم الفيلسوف القديم وكأنها تفترض توافق الايمان والعقل ؛ ولكنه اجاز القول بتطور الفلسفة تطوراً مستقلاً ، كما قال ابن باجه من قبل . وأكب العلم الاسباني ، في الوقت نفسه ، على الابحاث الطريفة ، بعد ان اكتفى زمناً طويلاً بما يتوصل اليه الشرق : فقام مؤلفو الزيجات التي ما لبثت ان ترجمت الى اللاتينية ، وعلماء النبات وعلماء تركيب الأدوية كإبن البيطار ، وعلماء الزراعة كإبن العوام والاطباء اخيراً كإبن زهر . وما زال التاريخ محافظاً على مستواه ، فترك لنا الرحالتان ابن جبير وابو حميد الغرناطي وصفاً قيماً جداً ، الاول للشرق كله بما فيه بلاد الصليبيين ، والثاني لروسيا . وقد حافظ الادب الصافي على مستواه ايضاً ، فرفع الشاعر المتجول الفاجر ، ابن كزمان ، اللون الشعبي المعروف بالموشحات الى مرتبة الادب الرفيع .

ولم يكن الفن دون العلوم مرتبة مجيدة في عهد الموحدين ، في اسبانيا ومراكش على السواء ، حيث انصهرت تعاليم الشرق والتقاليد المحلية في تحقيق شخصي اصيل . فان حصن الرباط ، وجامع الكتبية في مراكش وقصر اشبيلية لا تزال توحى حتى اليوم بما انطوى عليه هذا الفن من متانة وأناقة ، على الرغم من بعض التحويرات اللاحقة .

امتدت هذه الثقافة الاسبانية الى ما وراء حدود السيطرة الاسلامية المنكشة . ففي صقليا المخصصة للنورمنديين ، حيث عومل المسلمون المقيمون بتساهل قل نظيره ، تألق مركز اشعاع ثان ، دون اسبانيا شأنًا على انه اعظم أهمية ، الى حد بعيد ، من الشرق اللاتيني ، انتقلت بواسطته الثقافة الاسلامية الى الغرب . وقد عمل فيها بعض المسلمين أنفسهم في خدمة الامراء المسيحيين : ففي منتصف القرن الثاني عشر وضع الادريسي ، المولود في سبته والمقيم في صقليا ، لروجه الثاني ، المؤلف الجغرافي الوحيد المزين بالخرائط القيمة الذي ضمنه عربي معلومات وجيزة عن اوروبا بالاضافة الى ما سبقه اليه كبار الجغرافيين المسلمين .

وأتاحت الثقافة الاندلسية بدورها اخيراً انطلاقة الفكر اليهودي الذي كانت مستعمراته الاسبانية ، آنذاك ، اوسع مستعمرات اليهود المتشتتين ثقافة . لا بل ان الفتوحات المسيحية أولاً ومضايفات الموحدين ثانياً أهابت باليهود الى الانتشار في العالم كبن ميمون مثلاً الذي استقر نهائياً في الشرق بينما اتصل معظم اخوته في الدين ، المقيمين في اسبانيا المسيحية وفرنسا الجنوبية حيث أحسنت وفادتهم آنذاك ، بأبناء ملتهم في ايطاليا ، فغلبوا هؤلاء من سيطرة نفوذ صقليا الاسلامية والقيروان ، وهكذا تكونت في مناطق الحدود بين الاسلام والمسيحية ثقافة يهودية ارسخت التقاليد اليهودية - الاسلامية القديمة حتى اوائل القرن الثالث عشر ، وعنيت باللغة العبرية والشعر الديني والديوي والتاريخ اليهودي والدروس العلمية والفلسفية والدينية . فروى بنيامين التودبلي ، على غرار معاصره ابن جبير ، رحلته الى الشرق . وليس من شك في ان المؤلفات الفلسفية والدينية ، التي تأثرت جزئياً بأبحاث المسلمين ، واطلع المفكرون المسيحيون عليها بدورهم ، هي أهم ما تحقق بالنسبة للتاريخ العام . تصارعت فيها نزعات الافلاطونية الحديثة ، التي يمسكها « يهوذا حلاوي » عكساً على الأقل ، ومذهبا الارسطوطاليسية والعقلية اللذاتن أشاد بها ابن ميمون . فان هذا الأخير ، على غرار معاصره ابن رشد ، بالنسبة للإسلام ، لا يصحبر مفكري اليهود وأعظمهم جرأة في القرون الوسطى ، ولكنه آخر فلاسفة اليهود في هذه القرون . ومرد ذلك الى ان حياة الجماعات الفكرية ستتجه بعد ذاك التاريخ الهجمات مختلفة : فان يهود البلدان المسيحية ، الذين لم يمدوا لتقبل مبادئ العلوم والفلسفة الشرقية ، وصادفوا صعوبة في الانسجام والبيئات الجديدة ، سينادون ، في الجو نفسه الذي انتشرت فيه الحركة « الألبية » ، بالنزعات الدينية والصوفية المعروفة باسم « الحركة » العقبال ، السرية التي رأى كتابها « زهر » النور في اسبانيا في القرن الثالث عشر . وظهرت بموازاة ذلك صوفية يهودية اخرى تعرف بالحاسدية اقل ارتباطاً بالتعاليم الفكرية الآتية من الشرق وأشد تأثراً ببعض مظاهر الحياة

الرهبانية المسيحية ، في احياء اليهود في رينانيا التي كانت موضوع اضطهاد قاس بمناسبة الحملات الصليبية ومبجتها . فارتبطت الحياة اليهودية منذ ذلك الحين بثقافة البلدان المسيحية .

حقق النظام الموحد اكمل عمل توحيدي كان باستطاعة الغرب الاسلامي ان يحققه عبر تاريخه الطويل ؛ او اقله اخصب وحدة بين بلاد البربر المراكشية واسبانيا الاسلامية . فالمغرب الشرقي نفسه ، الذي هددته خطر غارات نورمندي صقليا ، قد التجأ الى امبراطورية الموحدين ، التي لم يبق خارج نفوذها ، من العالم الاسلامي الغربي بأكمله ، سوى بعض المغامرين المنتسبين الى سلالة المرابطين من بني « غانية » المتحصنين في جزر البليار . فادت هذه الوحدة ، وهذا السلام النسبي الذي أمتنة في البحر آخر اسطول قوي ، الى انعاش الحياة الاقتصادية . اجل لقد كانت التجارة مع ايطاليا وفرنسا شبه محصورة في البيزين والجنوبيين والمسيحيين ؛ ولكن مراقبة نشاطاتهم ما زالت امراً ممكناً في الموانئ التي حصلوا فيها على بعض الامتيازات ؛ اضيف الى ذلك ان المحاصيل المحلية ، أي المواد الآتية من السودان النيجيري الغني بالذهب والذي قامت العلاقات بينه وبين اسبانيا منذ دخول المرابطين ، قد وجدت لها اسواق تصريف مثمرة نحو اوروبا المسيحية .

الا ان فترات التوازن والازدهار هذه لم تدم طويلاً . فمنذ السنة ١٢٠٠ تقريباً ، تجددت عمليات المسيحيين الحربية لاستعادة اسبانيا ؛ وبرزت بوادر الشقاق بين السكان المغاربة والاندرليين الذين لم يوحّدوا كلمتهم ؛ وغدا التجار الاوروبيون اشد تطلباً . فلم تمر خمسون سنة حتى انكشبت اسبانيا الاسلامية في مملكة غرناطة الصغرى ، بينما عاد المغرب الى انقسامه التقليدي . وكانت كبار مفكري الاسلام ، كالصوفي ابن العربي ، قد شعروا بالجو يكفر من حولهم في هذه الولاية المنعزلة في اقاصي العالم الاسلامي ، فنادروها وتوجهوا الى الشرق يقضون فيه ايامهم الاخيرة لأنهم ما زالوا يعتبرون الشرق ، على الرغم من محنة الخاصة ، مهداً لثقافتهم .

هل ترد المحن التي مرّ بها الشرق الاسلامي الى قيام السيطرة التركية
الغزوات التركية
يا ترى ؟ ان الرأي ، المتأثر في الارجح بما انتهت اليه الامبراطورية العثمانية في القرن الاخير من المخطاط وفقدان اعتبار ، لا يتورع عن التأكيد بأنها خنقت الحضارة الاسلامية خنقاً . ولكن في ذلك اغفالاً لواقع راهن اذ ان الاتراك لم يحتلوا آسيا الاسلامية دون ان يستدعوا لهذا العمل او يساعدوا عليه ؛ وان الفن وبعض الالوان الادبية على الاقل قد تابعت انطلاقها بعد فتحهم ؛ وان المخطاط اخيراً لم يحدث الا في القرن السادس عشر ، أي بعد انقضاء خمسمائة سنة على فتحهم . وتوفّق الاتراك في هذه الأثناء ، بعد ان بسطوا سيادتهم على الشرق الاسلامي بأكمله أولاً ، وعلى الامبراطورية البيزنطية كلها وجيرانها البلقانيين ثانياً ، الى تأسيس اسطول امبراطورية متوسطة عظيمة عهداً بين الامبراطوريات التي تأسست بعد انهيار السيطرة الرومانية . لذلك فان الواقع التركي ، بفعل نتائجه القريبة او البعيدة ، جدير بأن لا نمر

به مرور الكرام . فهو ابعد من ان يكون انحطاطاً ، لانه حدّد معظم الخطوط التي ميّزت الدول الاسلامية حتى ايامنا هذه .

نحن نعلم كيف ان الدول الاسلامية في الشرق الادنى انتهت منذ زمن بعيد الى تعبئة جيوشها من الارقاء الاتراك الذين وقعوا في الأسر او ابتيعوا فتياناً وأعدوا للخدمة العسكرية وأدججوا في المجتمع الاسلامي . الا ان الحركة السني نشاهدها الآن تختلف اختلافاً كلياً عما سبقها . لقد تم الاتصال بين دول الاتراك في آسيا الوسطى وبين الاسلام بواسطة بعض التجار وبعض المبشرين وحتى بواسطة الغزاة المتطوعين الذين غدّوا ، عند حدود الوثنية ، روح الحرب المقدسة القديمة . امام عظمة هذه الحضارة المتفوقة ، اقتفى عدد كبير من الاتراك ، في القرن العاشر ، بين «الفولغا» و «ألتاي» ، خطى بلغاريي الفولغا واعتنقوا دين الاسلام الذي كانت قابلاً في نظر الجماهير للاتفاق وبعض التقاليد السامانية او لفتح ذراعيه لمعتقدات اخرى كثيرة ، والذي تلقى ، في نظر الرؤساء ، توجيهات فقهاء الدولة السامانية الحنفيين . زد على ذلك ان الاسلام هو دين الغزاة ايضاً فاستهوتهم نضالته الاصيله ؛ واذا كانوا قليلي الاهتمام لحداقة اللاهوتيين ، وجدوا في الحرب المقدسة ، السني شئت اول ما شئت على الوثنيين من اخوانهم ، وسيلة لارضاء ميولهم التقليدية الى الغزو .

استحال بذلك على الامارات الايرانية جمع الارقاء من بين هؤلاء المسلمين الجدد . فانهى الامر بها ، تأميناً لتعبئة الجيوش ، الى استدعاء وتوطين قبائل تركية كاملة تدخلت بالتالي في النزاعات بين الاحزاب او اسهمت في القضاء على الشيع السجسة . وهذا هو اصل مملكة القراخانيين التي ضمت الى التركستان الصيني ، الحديث العهد في الاسلام ، منذ أواخر القرن العاشر ، المناطق المنزعة من السامانيين . وأسس الجيش التركي التابع لهؤلاء الامراء ، في «غزنة» من اعمال افغانستان ، اماره اخرى ما لبثت ان امتدت الى خراسان ، آخر ممتلكات السامانيين .

جاءت الدولة الغزنوية بمائلة لامارات اخرى أسسها قواد الجيوش التركية ؛ الا انها اتسمت ببعض المميزات الجديدة : فقد اعلن زعمائها ، وهم من السنيين المتصلين ، عن تصميمهم على انتزاع الخلافة من الشيعيين ؛ وأدركوا بالاضافة الى ذلك انهم لن يستطيعوا السيطرة على جيشهم ، ولا دفع مرتبائه بسخاء ، ولا احتباس نشاط الغزاة ، الا بتشجيعه على الفتح ، فنظموا بقيادة محمود الغزنوي حملات موفقة على وادي الهندوس . اجل ، لم يستهدفوا في البداية سوى غزو المعابد البراهمانية ؛ ولكن النتيجة الثابتة ، كما رأينا ، كانت نشر الاسلام في الهند الشمالية الغربية : وهذا واقع تاريخي تؤيده جغرافية باكستان الحالية .

وهم الغزنويون انفسهم من استقبلوا في اراضيهم السليجوقيين ، زعماء منطقة بحر آرال وقبيلة اوغوز التركية ، فتأثر رؤساء هذه الجماعات من الرحل ، ولا سيما طغري بك ، بتعاليم المبشرين السنيين ، وانتهوا الى الاعتقاد بأن الحرب المقدسة انما هي تحرير الاسلام من البدع التي مزقته .

في السنة ١٠٤١ سحقوا الجيش الفزنوي الذي تأخر في العودة من الهند : ففتحت امامهم ابواب ايران على مصراعها . وصادف ان الخليفة العباسي كان راغباً آنذاك في التحرر من حماية البويهيين الشيعيين ، وقد وضع القانوني الكبير ، الماوردي ، قلبه لرغبته ، بحثاً ضمن اصول الحكم القويم . ولكن القوى الدينية لم تكف لاصلاح الاسلام فاستدعى طغري بك الذي دخل بغداد دون قتال ومُنيح ، بالاضافة الى لقب ملك الشرق والغرب ولقب السلطان ، ملء السلطة السياسية ، واسندت اليه مهمة نصره الدين القويم على البدع في الداخل وعلى الفاطميين في مصر . فضم خلفاء طغري بك ، الى ايران وبلاد ما بين النهرين ، سوريا التي انتزعوها من المصريين . قد يقال ان هذا الحل جاء خطراً على الخليفة الذي استعاض عن سيد ضعيف بوصي كثير الطلبات . ولكنه جاء نصراً للدين الاسلامي القويم ايضاً : اذ ان الاسلام الملتف رسمياً حول راية العباسيين الخضراء سيتمكن ، في كافة أنحاء الشرق الادنى ، من اعادة تنظيم الدولة في كنف الجيش التركي .

غير ان للفتح التركي وجهاً آخر . فهؤلاء التركان الرحّل لم يهتموا لخالوص العقيدة اهتمامهم للفرز وكسب الغنائم من غير المؤمنين . فكان طبيعياً بعد ان استقر هؤلاء الغزاة في ايران الغربية ان يوجهوا نشاطهم ضد الامبراطورية البيزنطية . اضاف الى ذلك انهم ألفوا اتحاداً من جماعات قبلية غير متلاحمة واعتبروا السلطان قائداً حربياً مؤقتاً ، فخضعوا بصعوبة لقوانين دولة منظمة اصبح سلطانهم رئيساً لها . أفليس من الطبيعي ايضاً ، والحالة هذه ، في سبيل تحويل اعمالهم الفوضوية عن الدولة ، الحدو بهم ، وقيادتهم عند الحاجة ، الى غزو البيزنطيين ، لا سيما وان الجيش في الامبراطورية اليونانية في حالة يرثى لها من الفوضى ، والسكان لا تجمعهم وحدة ادبية ؟ فعندما سحق السلطان الب ارسلان ، في السنة ١٠٧١ ، آخر جيش بيزنطي في « مانتزيكورت » وأسر الامبراطور الروماني رومانوس ديوجينس ، انفتحت امامهم ابواب آسيا الصغرى . وكان العديد من بني عرقهم قد خدموا في الجيش اليوناني ، ولم يتردد المطالبون بالعرش ، في نزاعاتهم الداخلية ، في استخدامهم لبلوغ غاياتهم : فاستدعواهم الى ابعاد من الهدف الذي حددوه لانفسهم وفتحوا لهم مدناً ما كانوا يستطيعوا دخولها عنوة . ولم يدرك اليونانيون الا بعد فوات الاوان ان الشعب التركي ، باستيظانه آسيا الصغرى ، قد مزق اطارات الامبراطورية ، وان الارمن والسوريين اليعاقبة ، المعادين لبيزنطية ، قد ارتضوا هؤلاء الأسياد الجدد ، وان يونانيي آسيا الذين انكفأوا تدريجياً نحو شواطئ بحر ايجه . وأنكبتهم الحروب الطويلة قد أعدموا وسائل الوقوف في وجه الاتراك . وهكذا تكون وطن تركي ، هو تركيا ، لن يلبث المسافرون ان يتحققوا من حقيقة واقعه ؛ وهكذا حقق الاسلام فتح بلاد جديدة .

لم توفق الدولة السلجوقية في الحقيقة الى فرض رقابتها على التركان الشرق الادنى السلجوقي الذين توزعوا خارج حدودها ؛ ولكنها بقيت دكتاتورية عسكرية تركية يدير شؤونها الخراسانيون السنيون . فباستثناء اذربيجان حيث استوطن التركان جماعات كبيرة ، لم يطرأ تعديّل يذكر على توزيع السكان في الشرق الادنى ، كما ان الانظمة الادارية

والادارات نفسها التي خلقتها ايران والدولة الغزنوية لم تتغير قط ايضاً . كان السلاطين الاول الثلاثة - طغري بك والاب ارسلان وملك شاه - رجال حرب نوابغ ، ولكنهم أدركوا عدم أهليتهم في الشؤون الادارية فتركوا للوزراء أمر ادارة الشعوب المحتلة . وقد عبّر احد هؤلاء الوزراء ، نظام الملك ، وهو شخصية بارزة نادرة ، عن مفهومه للحكم في مجموعة آراء ونوادر . ولكن مجموعته لم تأت بجديد .

ليست الادارة اذن ما حوره السلجوقيون - وما الطغراء التي استعملت حتى السنة ١٩٢٢ لتصديق الفرمانات والشهادات العثمانية سوى طرفة فحصب - بل توجيه الدولة نفسها . وفي الوحدة السياسية الكبرى التي حققوها ، كان الجيش ، وهو غريب تماماً عن السكان ، المستفيد الوحيد من الفتح . فقد خصّص باقطاعات عظيمة من الاراضي ، على ان هذا التوزيع ، على الرغم مما قيل فيه ، لم يفض الى اقامة النظام الاقطاعي ، لأن الدولة السلجوقية قد احتفظت بحال قياداتها العسكرية برقابة حازمة أتاحت لها السيطرة بقوة على المحاربين الذين كانت اقطاعاتهم وضيفة على العموم . اما السلاطين فهم رجال الحكم يقضون على سجنس المدن في مهده ويراقبون حركات القبائل العربية او الكردية ويقصون من المخلّين بالأمن والنظام .

عادت هذه السلطة المستعادة بالخير ، في الدرجة الثانية ، على السنة وفقهاها . واذا كان الاضطهاد لم يتناول اتباع البدع الجديدة فردياً ، فقد هدمت مؤسساتهم ، وبذل مجهود مادي وأدبي ضخم لرفع شأن الدين القويم وحصر ادارة المجتمع الاسلامي باتباعه دون غيرهم . فأسس المؤلفون مدارس خاصة تأمنت فيها للمعلمين والطلاب سبل المعيشة والعمل ؛ لقد ولّى عهد المؤسسات نصف الخاصة التي تلقن شقّ الدروس ، وجاء عهد المدارس العامة المعدة ، على غرار جامعة الازهر ، مركز الاسماعيلية في مصر ، لتوزيع ثقافة دينية قومية رفيعة . سيتخرج من هذه المدارس موظفو الادارة ، والقانونيون ، مرشدوها ، والقضاة ، دعائمها : تلك هي «المدارس» . يعود انشاء اقدمها عهداً ، وقد كانت في منتهى الوضاعة ، الى السامانيين الاخيرين والغزنويين من بعدهم . ثم ازدادت عدداً في كافة أنحاء العالم السلجوقي بناء على رغبة الحكومة اولاً ورغبة كافة العظماء ثانياً . وأول من أعطى المثل ، في قلب بغداد ، نظام الملك ، بتأسيسه المدرسة «النظامية الفخمة التي تولى التدريس فيها اوسع فقهاء العصر شهرة ، ولا سيما الاشعريون ، الذين اهتم الوزير الكبير لنجاحهم .

وفي الوقت نفسه قام السلجوقيون ، المولعون بالبناء ، بتشييد الجوامع العظيمة والمستشفيات والمدارس والخانات والجسور ، وكلها أبنية يدخلها التقليد في واجبات الملك الواعي لمسؤوليته الدينية . وخصت هذه المؤسسات بموارد متزايدة الاهمية : فالأوقاف التي كانت في معظمها خاصة ومحدودة غدت منذ ذاك الحين ذات أهمية عمومية واتسعت اتساعاً غريباً وزادت من أهمية المتعاشين منها ، رجال الجوامع والمدارس ، وكلهم دعائم أساسية للدين القويم الذي ينفق عليهم .

شاهدت الدولة السلجوقية اخيراً المصالحة التي جرت ، في ذهن المؤمنين وموقف الحكومة

على السواء ، بين الصوفية والدين القويم الذي أمسى الصوفيون حلفاءه ، بأعداد متزايدة ، لدى الشعب . وحين اكتشف الفكر الكبير الغزالي ، بعد خبرة طويلة في تدريس الفلسفة الكلامية ، ان لا قوة للدين بدون رضى القلب ، وان العاطفة الدينية التي لا تستند الى ارشاد العقل غالباً ما تؤدي الى فقدان التوازن ، وان ما يدوم ، في الواقع ، هو اتحاد القلب والعقل معاً ، انما كان يعبر تعبيراً نافذاً وشخصياً عن نزعة عامة في اوساط الارستوقراطية الاسلامية . اضاف الى ذلك ان الصوفيين قد انصرفوا تدريجياً ، في الوقت نفسه ، عن حياة العزلة وألفوا الجمعيات وخضعوا لقانون قريبهم من الجمعيات الدينية المسيحية . فكان من المحتم ، ابتداء من القرن الثاني عشر ، ان تقضي هذه العادات الجديدة ، التي اخذت تنتشر منذ اوائل العهد السلجوقي ، الى تأسيس جمعيات دينية حقيقية كانت اولها جمعية القدرية التي اسسها عبد القادر الغيلاني . اجل لم يحل ذلك دون ابقاء الصوفيين على عادات غريبة عن العبادة المشتركة ، وزائفة جداً احياناً ؛ ولكن صفة منافاتها للديانة الرسمية واصطبائها بالبدعة قد زالت عنها . وهام السلجوقيون انفسهم يسبقون عليهم الاوقاف ويؤسسون الاديرة في المناطق المحرومة منها . فجذبوهم من ثم اليهم واستغلوا النفوذ الادبي الذي كان لاوليائهم على الجماهير الشعبية .

لم يبق من ثم امام المارقين من الدين سوى المداھنة ، او اللجوء الى المناطق النائية ، او النشاط السري ايضاً ، وهكذا تأسست جمعية ارامية توصل محركها حسن الصباح ، وهو مبشر اسماعيلي اغضب الفاطميين بسبب انتصاره لحركة نزار ، الى الاستيلاء ، عن طريق الخدعة او التهديد بالتشهير ، على حصون منيعة عديدة ، ولا سيما قلعة الموت في الجبال القزوينية . وليس المعتقد هو ما يميز هذه الشيعة بل سرها وتنظيمها المدهش واعتمادها الاغتيال السياسي كوسيلة عمل كانت اولى ضحاياها البارزة نظام الملك نفسه . وكانوا يسكرون المبتدئين بشراب ممزوج بحشيشة الكيف يذيقهم لذة الافراح السماوية . ولكن الاغتيال الذي مارسه هؤلاء الحشاشون قد اعطى الكلمة « *Assassin* » مفهومها الفرنسي : ومرد ذلك الى ان هذه الشيعة لم تلبث ان انتشرت في سوريا حيث عرفها الصليبيون . وقد بقيت طوال اجيال عدة مثار رعب في كافة انحاء الشرق الادنى على الرغم من ضآلة عدد اتباعها الحقيقيين .

يجدر بنا ، في هذا الجو الديني الجديد ، ايضاح وضع اهل الذمة الحقيقي الذي شوهته دعاوة الحروب الصليبية . ليس من ريب في ان تركان آسيا الصغرى قد اذاقوا المسيحيين اليونانيين مرّة العذاب الوانا ؛ وفي المرحلة الاولى من غزواتهم الحقوا الضرر والاذى بالارمن واليعاقبة ايضاً . ولكن وضع المسيحيين لم يتغير قط في الدول السلجوقية المنظمة ، ولا سيما في فلسطين . فان الحج الذي توقف عن طريق الاناضول قد نشط عن طريق البحر ، ولم تقم في طريق الحجاج اية عقبة حتى اورشليم . والواقع هو ان الغرب قد ارتكب خطأ ، ربما كان مقصوداً عند بعضهم ، بعدم التمييز بين عذابات يونانيي آسيا الصغرى وحال مسيحيي فلسطين ، وهو خطأ وقعوا فيه تحت تأثير شعور الفرسان الفرنجة حيال المسلمين بعد اشتراكهم في حروب اسبانيا . ولكن

تساهل الاسلام التقليدي لم يتغير قط ، الا في اسبانيا بالذات ، بفعل التصلب المسيحي . اما في الشرق ، حيث لم تلتصق بهم ، كما جرى في الأندلس ، تهمة التعاون مع الفرسان اللاتين ، فلم يتأثر التساهل حتى بالحملات الصليبية نفسها .

لم تتمكن الدولة السلجوقية ، على الرغم من احيائها العالم الاسلامي ، من تجزئة الاسلام التركي الابقاء على تلاحمها زمنا طويلا . فقد انفرط عقد السلالة المالكة غداة وفاة « ملك شاه » في السنة ١٠٩٢ : وافضى النزاع بين المطالبين بالعرش ، وتوزيع الاقطاعات والوفيات المبكرة ، والقصور الشرعي الضعيف ، الى تجزئة الامبراطورية التي استعجلها بؤمين الاتابكة ، اوصياء على أبناء السلطان القصر ، ووكلاء على اقطاعهم ، فرغبوا ، كما هو طبيعي ، في الحلول محلهم . فتوجب من ثم تخصيص افراد الجيش دونما حساب باقطاعات جديدة ما عثمت ان اصبحت سيادات وراثية . وتزايدت كذلك اسباب التناحر بين العرب والأتراك ، وبين التركمان والاكراد . كل هذا يفسر نجاحات الصليبيين وتقدم الجيورجين واستمرار الخلافة الفاطمية . الا ان امارات مستقلة اقل عدداً واعظم قوة واطول عمراً ايضاً تأسست على انقاض الامبراطورية السلجوقية السريعة الزوال وابقت في الشرق الأدنى على التقسيمات الجغرافية التي نشأت عن الغزوات التركية : العراق وسوريا ويران وآسيا الصغرى .

غدت العراق آنذاك مجرد ولاية في عالم اسلامي لم يعد ليعتبرها مركزه الرئيسي ، ولكنها استعادت ، بفضل الانحطاط السلجوقي ، بعض الاستقلال تحت ادارة الحلفاء الزمنية ، غير المترقبة حقاً . وقد حاول احد هؤلاء ، الناصر ، حوالى السنة ١٢٠٠ ، ان يعيد الى الخلافة سلطة دينية حقيقية تعلو سلطة الفقهاء ، فلم ينصرف ، في سبيل هذه الغاية ، عن مطاردة جمعيات الفتوة في بغداد فحسب ، بل جعل منها احدى وسائل حكمه ، ساعياً جهده لاصلاحها من الداخل ، وتوحيد تنظيمها تحت كنفه ، وتشجيعها على تحقيق مثل روحي اعلى اوحته منذ امد بعيد بمض اشكال الصوفية الجماعية ، ثم حاول جمع الامراء والنبلاء في فتوة ارستوقراطية جعل منها نوعاً من جمعيات الفرسان ؛ واذا كانت هذه المحاولة الاخيرة قصيرة الامد ، فقد كتب للفتوة الشعبية ، التي اشرف على اصلاحها ، ان تلعب دوراً غير قصير في حياة البلدان التركية .

اما تاريخ سوريا وبلاد ما بين النهرين العليا فقد سيطر عليه ، طوال القرن الثاني عشر ، الصراع ضد الصليبيين . كانت هذه المناطق حتى ذاك التاريخ ، اما تابعة للعراق تارة ول مصر اخرى ، واما مراكز لامارات هزيلة . ولكنها غدت آنذاك ، بفضل تقدمها على بغداد النائية استعداداً للقيام بهذه المهمة ، مركز تجمع ل نهضة عسكرية وتجديد ادبي وثقافي . وقد حدث في اول القرن ان الارستوقراطية العربية ، ولا سيما في اماره دمشق التي لم يحدق بها خطر الفرسان الفرنجة كما احدثق بمحلب ، رضيت ، طوعاً او قسراً ، بالفتح اللاتيني كما جاء في المذكرات الطريفة التي وضعها آنذاك اسامة بن منقذ . ولكن تجاوزات بعض الفرنجة واستمرار تدفق الصليبيين

خلقت ، في سدان المدن السورية وبين علماء الدين ، حركة اعتراض على هذه اللامبالاة الاثيمة ، وعلى انقسامات المسلمين . فعرف بعض الامراء الاثراك كيف يستغلونها في سبيل بعث الكيانات السياسية الكبرى لمصلحتهم . وهذا ما حققه زنكي اولا وابنه نور الدين من بعده في منتصف القرن الثاني عشر : فقد ضمنا الى امارتهما في حلب ، وهي محور الحرب المقدسة ضد الفرنجة ، شطراً هاماً من بلاد ما بين النهرين العليا وسوريا باجمها ، وجندا في جيوشها اعداداً متساوية من الاكراد والاثراك . فاستطاعا رد الفرنجة شيئاً فشيئاً الى الساحل السوري على الرغم من النجيدات البيزنطية او الغربية التي تلقوها . وهكذا جعلنا من سوريا ، بتدابيرها الجائرة ضد الشيعة وبتأسيسها العديس من المدارس والجمعات الصوفية التي اسهم فيها بعض المهاجرين الايرانيين ، اوسع المراكز نشاطاً لصراع مزدوج ضد اعداء السنة في الخارج والداخل . اصف الى ذلك ان هذا التجمع سهلته زيادة الثروة المادية : فقد خسرت بغداد مركزها الاول في تجارة الشرق بعد ان احتفظت به مسدة طويلة احتفاظاً صنيماً ؛ اما الموصل ، وهي مركز صناعي اقرب منها الى مناجم دجلة الاعلى ، وحلب ودمشق القريبتان من الموانئ السورية ومستعمرات الايطاليين التجارية ، فقد امست ، مع القاهرة والاسكندرية ، اوسع مراكز الحياة الاقتصادية نشاطاً ، لا بل تقدمت على القاهرة والاسكندرية ، وامست مراكز الاسلام الفكرية والفنية ايضاً . ومرد ذلك الى ان مصر الفاطمية التي فتت شقاقت جيوشها وانقسامات الاسماعيلية وفقدان الثقة بها في عضدها ، لم تحافظ على استقلالها الا بفضل الحاجز المزدوج الذي يفصلها عن الاسلام التركي : الصحراء والدول الفرنجية . ولكن ما ان حاول الصليبيون الاستيلاء على موارد دلتا النيل الفنية حتى اضطر المصريون لطلب النجدة من نور الدين . فارسل سيد حلب بقيادة صلاح الدين الكردي ، جيشاً فتح مصر ثم وضع حدا للخلافة الفاطمية في السنة ١١٧١ فوحد ، بعمله هذا ، الاسلام الشرقي كله بعد انشقاق دام قرنين كاملين .

افضى هذا الفتح بدوره الى قلب القوى الاسلامية قلباً مباشراً في الحقل السياسي ، وبطريقاً غير كامل في الحياة الروحية . فاستقوى الدين بتفوق مصر المادي واستغل ضعف خلفاء نور الدين ، فاستلم إرث هذا الامير العظيم . وهكذا وضعت موارد مصر وسوريا مما في خدمة جيش تركي - كردي تحمس لخوض الحرب ضد الفرنجة فاستعاد القدس من الصليبيين (١١٨٧) وردم الى طريدة ساحلية ضيقة . الا ان الهجوم المعاكس العنيف الذي شنته الحملة الصليبية الثالثة اتاح للصليبيين الحفاظ على حصونهم الاخيرة ؛ لذلك اخذ خلفاء صلاح الدين ، الايوبيون ، وان صدوا عند الحاجة هجمات الحملات الصليبية الجديدة ، يؤثرون اقامة علائق تجارية طيبة مع التجار الايطاليين على اطالة الحرب المقدسة . لا بل ان احدهم ، الكامل ، عرف كيف يرد على دبلوماسية فردريك الثاني الحكيمه بموقف كريم ايضاً . كان اثر ذلك ، في مصر ، وهي ملتقى تجارة الهند عن طريق البحر الاحمر والتجارة الايطالية في المتوسط ، ازدهاراً عظيماً متزايداً ؛ ويؤيد هذا القول ان احدى الشركات التجارية الكبرى (شركة كارمي) حاولت آنذاك احتسار

استيراد الابازير ، وان الحماية الايوبية ، نتيجة لذلك ، قد نالت بوطأتها على اليمن والمدن المقدسة .
الا ان العهد الايوبي ، على الرغم من ان مصر المتجانسة والموحدة السلطة لم تعرف القيادات
الاقطاعية الكبرى والثورات والانفصالات الاقليمية ، قد خضع بدوره للجيش ايضاً . ومنذ
منتصف القرن الثالث عشر ، اخذ الجيش ، بعد ان عزّز لدفع خطر الهجوم الفرنجي والغزو
المغولي ، يرفع رؤسائه الى السلطة ، وجعلهم ينحدرون من اصل عبيدي ؛ فأسس هؤلاء الجنود ،
لقرون عدة ، عهد المماليك العسكري .

اما ايران فقد عرفت تاريخاً اعظم اضطراباً ، وغموضاً ايضاً ، لانها ما زالت تتأثر بحركات
الشعوب التي كانت تغلق آسيا الوسطى . وسقطت المناطق الاسلامية الواقعة وراء الاوكسوس ،
منذ الربع الثاني من القرن الثاني عشر ، تحت حماية « القراخيطي » من غير المسلمين - فقد دان
الكثير منهم بالنسطورية - الذين عاملوا الاسلام معاملة غيرة من الاديان غير مباليين بانتصار
السنة . وقد تكونت عند الفريقين ، على اثر الهزيمة التي أنزلوها بسلطان ايران السلجوقي ،
سنجر ، اسطورة الخوري يوحنا ، ذلك الملك الغامض الذي قالوا عن مملكته انها تقع في مكان
ما وراء الدول الاسلامية وتكهنوا بأنه سيضي على الكفرة . ولكن كل ما حققه « القراخيطي »
في الواقع هو الدفع بجماعات جديدة من الاشقياء التركان نحو ايران الشرقية فعاثوا فيها فساداً
دون ان يؤسسوا فيها حكماً دائماً . ولم يقاوم هذه الجماعات ، في المناطق الشمالية الغربية المعتصمة
بالصحراء ، سوى خوارزم التي ما لبثت ان بسطت سيادتها على ايران بكاملها . ولكن الخوارزميين
لم يستطيعوا ضم بغداد اليها ، ولا فرض حمايتهم على الخليفة ، فافتقروا الى عضد الاسلام القويم ؛
ولما كانوا ، بالاضافة الى ذلك ، يجندون جيشهم من قبائل تركية لم تعتنق الاسلام بعد ، ويعيشون
لأجل الحرب والسلب ، فانهم لم يلبثوا ان فقدوا كل شعبية . فلم الغزو المغولي خوارزم لقمة
واحدة ؛ وتدفق الجيش المهزوم على العالم الاسلامي في الشرق الادنى ، وعاث فيه فساداً
وخراباً . ولم تنج من هذه الغزوات سوى الهند الشمالية الغربية بفضل تحصنها وراء جبال منيعة ؛
وقد عاشت آنذاك في كنف امارات تركية انتسبت ، من قريب او بعيد ، الى الغزنويين ،
وخضعت منذ اوائل القرن الثالث عشر لنظام عسكري شبيه بنظام المماليك في مصر .

اما آسيا الصغرى المحتلة منذ عهد قريب ، وهي آخر ممتلكات الاسلام التركي ، فقد كوّنت
في البدء عالماً شبه مغلق . ولا يزال الغموض يكتنف هذه الفترة من تاريخها ، لأن الذين احتلوا
كانوا تركاناً خشنين غرباء عن تعاليد الدول الاسلامية القديمة وعن العالم البيزنطي الذي حلوا محله ،
ولأن مؤرخيها ، بالتالي ، لم يبرزوا الا في عهد متأخر . الا اننا نميز فيها ، على الرغم من ذلك ،
قطاعين متقابلين : ففي الولايات المتاخمة للحدود اليونانية من جهة تركان غدير مستقرين تقريباً
يشنون غزوات الحرب المقدسة باستمرار ، كاولئك الذين خضعوا لسلطة رئيس مثل لقبه
- دالشمند - ، في الاربع ، صلة « الحكيم » ، لا اسم العائلة ؛ ومن جهة ثانية أسس احمد
فروع السلالة السلجوقية ، بمساعدة بعض المواطنين الايرانيين ، ورغبة منه في التمايش السلمي مع

بيزنطية ، دولة قوية وحتدت آسيا الصغرى تدريجياً وضمت اليها أرمينيا الغربية نفسها . وفي اوائل القرن الثالث عشر بدت سلطنة « الروم » السلجوقية - أي تلك التي سيطرت على الولايات « الرومانية » القديمة - وكأنها دولة عظمى : فنهضت فيها المدن التي كان التركان الرحل قد أخضعوها ؛ ونشطت التجارة مع آسيا الداخلية والقسطنطينية ، ومع مصر وروسيا ؛ وتدخلت الملكية اخيراً ، بفضل جيشها القوي ، في شؤون سوريا وبلاد ما بين النهرين العليا . فالتجأ الإيرانيون الهاربون من تعسف الخوارزميين ومن الغزو المغولي الى منطقة الاناضول التركية التي ورثت آنذاك حضارة ايران وأطالت بقاءها ؛ اما علائقها بالعالم العربي ، حيث ألف الاتراك استوقراطية عسكرية فحسب ، فقد كانت مقطوعة تماماً .

أدى تقدم تركيا الجديدة نفسه وأخذها بالحضارة الإيرانية تدريجياً الى إيجاد هوة بين سكانها وبين التركمان المتمسكين بعاداتهم . ولكن جماعات مشردة جديدة ، هاربة امام هجمات الشعوب الآسيوية ، ظلت تجتاز الحدود الاناضولية باستمرار طامعة بالمراعي ، نائرة على كل تنظيم اداري . فاتخذ عداؤها للدولة السلجوقية طابع حركة اجتماعية ودينية ، يقودها المدعو « بابا اسحق » الذي لا نعرف عنه شيئاً يذكر . فاليه تعود ابوة كافة النزعات ، المارقة من الدين في الغالب ، التي ارجفت دورياً ، حتى فجر العهد المعاصر ، التركمان المتضايقين في الممالك التي أسسوها بقوة سلاحهم . اجل لقد غلب بابا اسحق على امره ولكن الاضطرابات التي أثارها مهدت الطريق امام نجاحات المغول الذين فرضوا حمايتهم ، في ١٢٤٣ ، على الدولة السلجوقية ، وقضوا نهائياً ، في الواقع ، على سلطتها .

نرى لزاماً علينا هنا القول مرة اخرى ان الشرق الاسلامي ، ثبات الحضارة الاسلامية الذي تبدل تبدلاً عظيماً بفعل الغزوات التركية ، والذي تجزأ ، سياسياً او عنصرياً ، تجزؤاً لم يشاهده من قبل ، ما زال يعرف حضارة زاهية جداً ، بوجهيها الرئيسيين ، العربي والاراني . وانما انطفأت الحياة الفكرية تدريجياً في نطاق البرهان الحر فقط : فالغزالي كان آخر الفلاسفة الشرقيين ، بينما تحول العلم الى تردد اقوال السابقين . اما التاريخ فقد أمسى اعظم الالوان الادبية حيوية في العالم العربي ، واسفر عن انتاج وفير : التواريخ العامة او المغفلة ، او الموسوعات الضخمة الموضوعة للقراء « العرفاء » ؛ مذكرات ابن القلانيسي الدمشقية الى جانب مذكرات اسامة بن منقذ ؛ ترجمة صلاح الدين لعماد الدين الاصفهاني ، وهي بمجملتها جداً في نظرنا ، الى جانب التاريخ العام الذي وضعه ابن الاثير الواسع الاطلاع (اوائل القرن الثالث عشر) وضمنه معلومات وأخباراً صحيحة كثيرة جداً عرضت ببصيرة وألمعية ؛ تراجم العلماء والاطباء لابن القفطي وابن أبي أصيبعة ، وهي جلية الفائدة لمؤرخي العلوم ، وقد جاورت ، في رفوف المكتبات ، القاموس الجغرافي الضخم لياقوت ، الذي يعود الى السنوات الاولى من القرن الثالث عشر ايضاً . وكان الانتاج الادبي بالمقابلة اقل وفرة ؛ ولكنه بلغ ذرى المجد « بمقامات » الحريري الذي سار على خطى الهمذاني ، بينما تمثلت الصوفية خير تمثيل بالاسباني

ابن العربي الذي أمسى ، في ملجأه الشرقي ، اول عالم عربي باصول الصوفية الجديدة ، وبالمصري ابن الفارهي الذي كان شاعراً كبيراً .

واستطاع الادب الايراني من جهته ، بعد ان تخلص من قيود كل ارسوقراطية مستعربة ، ان يتفتح بحرية كاملة . واذا بقيت خوارزم مركزاً لتدريس الثقافة العربية واشتهر فيها اللغوي الزمخشري وكثيرون غيره ، فان اللغة الفارسية قد تفوقت ، منذئذ ، على اللغة العربية كوسيلة للتعبير الادبي . وهو الشعر هنا ما سار في الطليعة وانتج اجمل روائعه : فعمر الخيام الذي عاصر كبار السلاطين السلجوقيين واشتهر خصوصاً برباعياته ، الملأى بتشاورم مستعذب ملعد ، كان رياضياً وفلكياً كبيراً ايضاً ؛ وفي القرن التالي ، كتب النظامي ، الذي جاء من حدود اذربيجان الشمالية ، روايات شعرية طويلة تتميز بشعور رقيق واسلوب متقن السبك ؛ اما السعدي اخيراً ، الذي عثر طويلاً وانهى حياته في عهد المغول ، فهو بدون منازع اشهر الشعراء الفرس بديوانه « حديقة الورود » الذي ضمنه ، نثراً وشعراً ، امثالاً مختلفة في الحقائق الاخلاقية . وانتج الادب الفارسي في الوقت نفسه مؤلفات صوفية أكثر عدداً واروع جمالاً منها في الادب العربي : ونذكر هنا على سبيل المثال السهروردي النازي ، والشاعر « فريد الدين العطار » (اواخر القرن الثاني عشر) الذي اتجه نحو الادب التعليمي ولكنه اوجد لوناً سيبلغ منه الذروة ، ابان الفتح المغولي ، في منتصف القرن التالي ، جلال الدين الرومي الذي ولد في ما وراء النهر ، وقضى كل حياته ، كما يدل على ذلك اسمه ، في آسيا الصغرى حيث اسس جمعية الدراويش المشهورين باسم الدّوارين .

بيد ان بعض الاوساط التركية ، حتى بين الذين لم يأخذوا بالحضارة الايرانية ، تأثرت بالثقافة الاسلامية . ويبدو ان الاتراك قد نسوا كتابتهم الخاصة ؛ فاعتمدوا كتابة القرآن . فاستخدمت وسيلة التعبير هذه ، في آسيا الوسطى ، منذ القرن الحادي عشر ، في وضع ملخص الحكمة الاسلامية ، « كوداتكوبيليك » ، وفي نظم أشعار تركية لا تزال شعبية حتى أيامنا هذه . ادخل عليها « احمد يسفي » بعض المقتبسات الايرانية التي تتفق وشعور ابناء جلدته الاتراك من الناحية الدينية . وارتم عند تركان آسيا الصغرى ايضاً ادب تناقلته الالسن اولاً ، ثم أنتج بعض نفثات الاقلام في عهد السيطرة المغولية .

اضف الى هذا ان العهد التركي - الذي امتد اجمالاً من منتصف القرن الحادي عشر حتى منتصف القرن الثالث عشر - كان ، بالنسبة للشرق الادنى الاسلامي ، فترة ازدهار فني عظيم . اجل ان من شأن اندراس الابنية السابقة اندراساً تاماً تقريباً ان يحملنا على المغالاة في الاهمية النسبية للآثار البنائية التركية . ولكن الواقع هو ان السلجوقيين والزنكيين والايوبيين كانوا مولعين بالبناء وان نوع أبنياتهم ليس دون عددها اهمية وشأناً . ويبرز فيها الاثر الايراني ، او بالاحرى الخراساني ، برونه في الادب ؛ ولكنه ربما تداخل فيها ببعض التقاليد التركية ؛ ومهما يكن من الامر ، فان فناني الاسلام الاتراك هم الذي دفعوا بهذه النهضة العظيمة الى الامام .

لم يبق من الابنية المدنية شيء يذكر ؛ ولكن هندسة العمارة العسكرية كانت اوفر حظاً في البقاء . رأينا من قبل ان حصوناً كثيرة شيدت في الشرق الأدنى خلال القرنين العاشر والحادي عشر . اما في القرن الثاني عشر فقد ارتفعت بصورة خاصة القلاع والاسوار حول المدن : فقد اضاف صلاح الدين قلعة المقطم الى أسوار القاهرة التي بناها بدر الجمالي قبل السنة ١١٠٠ ، بينما شيد ابنه الظاهر في حلب ، القلعة المشهورة التي لا تزال قائمة حتى أيامنا هذه والتي بنيت بهذا الحجم ، كما يبدو ، حتى لا تكون دون الحصون الصليبية أهمية ؛ ولم يتوفق المؤرخون حتى يومنا هذا الى التمييز بين التأثيرات المتبادلة التي تفاعلت في الشعبين المتزاحمين في سوريا فادت الى تقدم سريع في هندسة العمارة العسكرية .

ترك نشاط الملوك الاتراك الديني وأعمالهم الخيرية ، آثاراً بنائية كثيرة . وقد درس العلماء درساً مستفيضاً جامع اصفهان العظيم المجهز بأربعة أواوين فخمة على جوانب فناءه ، وبكشك داخلي كبير مخصص للسلطان ، ومئذنة مستديرة رشيقة لن يلبث طرازها ان ينتشر انتشاراً واسعاً ، وبشرفة منقوشة اخيراً يعتليها المآذن للدعوة الى الصلاة . وراجت سوق القبور الفخمة كضريح سنجر في مرو الذي جاء اجمل وأكمل من القبور السامانية السابقة . اما المدرسة ، وهي طراز بنائي جديد بمساكنها وقاعات التدريس فيها ، فقد جاورها باطراد ، على غرار الجامع ، ضريح مؤسسها . وباستثناء سوريا ، اتاح استيصال البقرميد للبنانيين الاستفادة من تنضيد القراميد نفسه لزخرفة الابنية من الخارج ، بينما استمرت طرائق التزيين النقاشي او المتعدد الالوان في اعمال الزخرفة الداخلية . ونشأت عن اتصال القباب المستديرة بمحدران القاعات المربعة ، وعن تزيين اقواس الابواب الكبرى ، المشاكي المدرجة ، « المقرنصات » ، التي درج استعمالها انطلاقاً من تركستان حتى المغرب . اما نخط الكتابة المدفنية الذي حافظ على دوره الزخرفي ، فقد اقترب تدريجياً من الخط العادي ، وغدا بالتالي أكثر اناقة ورشاقة . اصف الى ذلك ان فن الخطاط ملازم لفن المزوّق الذي تمود نماذجه المعروفة الاولى الى مصانع بلاد ما بين النهرين في اواخر القرن الثاني عشر واولائل القرن الثالث عشر . ويجب ألا ننسى اخيراً آيات الصناعة النحاسية في دمشق ولاسيا في الموصل ؛ فهي تفيض حياة بتمثيل المشاهد على سليقتها ، كتلك المثلة على جرن العماد المنسوب الى القديس لويس ، الذي احضره هذا الملك من الارض المقدسة ليزين به « الكنيسة المقدسة » في باريس .

وفتح الاتراك في الاناضول نطاقاً جديداً للفن ، كما لدين الاسلام ايضاً ؛ فاكنتت البسلاد بالجوامع والمدارس والضرائع والخانات في قونية وقبصرية وسيواس وديفريغي ؛ وقد تداخلت فيها التأثيرات الايرانية . بالتقاليد المحلية في بناء الحجر ، وبالتقنية الارمنية الخاصة بالنقوش البارزة . وليس بمستبعد ان تكون بعض التمثيلات الحيوانية ، وحتى البشرية ، مستوحاة من نماذج تركية قديمة اتقن صنعها في آسيا الوسطى . فلا مجال والحالة هذه ، امام هذا القدر الكبير من المنجزات المعقدة والمبتكرة ، للكلام عن طابع هدام ترتديه السيطرة التركية .

الطوائف المسيحية الشرقية امام هذا الازدهار الادبي والفني ، تبدو نشاطات الطوائف

المسيحية الشرقية هزيلة جداً وشبه رسوبية . وقد أعرب عنها منذ ذاك الحين، الا عند الارمن واليعاقبة ، باللغة العربية وفي مؤلفات معدة لمجهر محدود جداً. وانما تجدر الإشارة الى ان الاقباط ، الذين كانوا متخلفين عن مسيحيي آسيا ، قد بذلوا مجهوداً كبيراً في سبيل نهضة روحية لا مناص منها لبقاء طائفتهم . فنتج عن ذلك وضع مجموعات قانونية أشرف عليها آل عسّال في القرن الثالث عشر، بينما برز بعض المؤرخين الاقباط أيضاً؛ وهكذا فان ابن العميد، الموظف لدى الايوبيين، قد اشتهر في عهد مبكر في اوروبا باسم *Elmacin* ، وان مؤلفاته لقنت « مستشرقينا » الأول مبادئ تاريخ البلدان الناطقة بالضاد . ويجب كذلك ان نخص بالذكر الطوائف اليعقوبية التي حدثت نهضتها الفكرية في العهد السلجوقي منطوية على مغالطة ظاهرية . ولكن لها ما يفسرها فأسياد آسيا الصغرى الجدد ، الحذرين من العرب واليونانيين معاً ، قد آثروا اختيار موظفيهم المحليين بين مسيحيي الطقس السرياني ؛ ولما كان بعض هؤلاء يقيمون في بلاد تتكلم اليونانية والبعض الآخر في بلاد تتكلم العربية ، آثر باعثو هذه النهضة الادبية العودة الى اللهجة السريانية القديمة، مع ان أبناء دينهم قد انقطعوا عن التكلم بها : بهذه اللغة العلمية ، الميتة ، وضع مفكر كبير ، هو البطريرك ميخائيل السوري ، في القرن الثاني عشر ، يوميات نقلت الى الارمنية وهو بعد على قيد الحياة ؛ وبلغت هذه الحركة ذروتها في اوائل العهد المغولي بمؤلفات ابن العبري التاريخية والسياسية والدينية ؛ الا ان عدم انتشار هذا الادب قد جعل من هذا المؤلف آخر مؤلفيه المشهورين .

كانت الثقافة الارمنية آنذاك اعظم حيوية وأكثر تنوعاً . ما زال بعض الارمن يعيشون ، عند حدود الاناضول واذربيجان ، تحت سيطرة الامراء الاتراك ، وضم البعض الآخر منهم الى مملكة جيورجيا التي تأسست وتوسعت في القرنين الثاني عشر والثالث عشر ، فشجع هذا الانصهار في دولة مسيحية ، وان يونانية الطقس ، على نشأة اول مركز للثقافة الارمنية حول بعض الاديعة في حوض الاراكس الاعلى . اضاف الى ذلك ان أرمناً آخرين قد فروا الى كيليكيا امام الفتح التركي لأواسط آسيا الصغرى . فتأسست هنا، خلال القرن الثاني عشر، دولة صغرى مستقلة ساعدتها بيزنطية وفرنجية سوريا تارة وضابقتها اخرى ، بلغت اوج عزها في اوائل القرن التالي مع أميرها ليون الكبير وفتحت أبوابها واسعة امام المقتبسات اليونانية او اللاتينية، محافظة في الوقت نفسه على قومية متحذرة . اما مركز الاراكس ، البعيد عن التأثيرات الغربية ، فقد أنتج خصوصاً مؤلفات تاريخية والجمعية القانونية الهامة السقي وضعها مخبطار غوش . ولكن مركز كيليكيا والفرات يعنينا مباشرة، إذ ان «متى الراوي» هو احد المصادر الرئيسية لتاريخ الحملة الصليبية الاولى، وان للترجمة الارمنية لمجموعة القوانين الانطاكية الفضل في ايصال هذه الوثيقة الاساسية للقانون اللاتيني في الشرق .

ويعود لتأسيس دولة جيورجيا اخيراً بعث ادب هذا الشعب وفنه . فقد انضمت آنذاك الى

المؤلفات الدينية المستوحاة من اليونانيين المؤلفات التاريخية ، والملمعة القومية التي وضعها « شوطا روستافيلي » ، والتي يبرز فيها الاثر الايراني . واستمرت الطوائف الارمنية في الوقت نفسه ، حتى تلك التي حرمت حق تشييد الكنائس ، في وفائها لتزويق المخطوطات . ولكن اسهامها الاعظم في تاريخ الفن يقوم حتى تاريخه في الدروس التي لقنها الارمن والجيورجيون على السواء للفنانين الروس وفناني البلقان ايضاً في الارجح .

اما النتيجة فهي ان حياة هذه الطوائف في وسط الجماهير الاسلامية قد ازدادت انعزالاً يوماً بعد يوم ، وهذا ما يفسر ضعف انتشار ثقافتها ؛ وقد شعر رجال الفكر المستنيرين من أبناءها بمخاطر هذا الوضع . فما ان اتضح ، في القرن الثالث عشر ، فشل الحملات الصليبية للغرب اللاتيني ، حتى جرت بعض الاتصالات بين المرسلين الآتين من روما وكهنوت الطوائف الشرقية ، ولكن على الرغم من الاوهام الساذجة التي غرر موفدو البابوية من فرنسيسكان او دومينيكان انفسهم بها ، فان الاختلافات قد بقيت اعظم من ان يسمي التقارب مشعراً ودائماً ؛ وكان من شأن هذا التقارب ، لو حصل ، ان يهدد بالخطر التساهل الذي أفادت منه الطوائف الشرقية لدى المسلمين الذين ربما كانوا اعتبروه تحالفاً سياسياً مع اعداء الاسلام . اما الموارنة ، الذين ضموا كلهم الى سوريا الفرنجية فقد عادوا كلهم منذ القرن الثاني عشر الى الوحدة الكاثوليكية ، دون ان يضعوا بشيء من استقلالهم على كل حال ، ولكن لم ينح نحوهم ، من الكنائس الاخرى ، سوى بعض الفئات الارمنية في كيليكيا . ثم تجددت هذه الاتصالات بعد الفتح المغولي ، الا انها ، على الرغم من فائدتها ، قد انتهت الى فشل ذريع .

اذا ولتى انصار هذا التقارب وجههم شطر كنيسة روما ، دون كنيسة غسق بيزنطية القسطنطينية ، فلأن الامبراطورية البيزنطية قد زالت عملياً من الوجود ، على الرغم من التاعتها الاخيرة في القرن الثاني عشر . فلا ريب في ان عيوبها الداخلية كانت مسؤولة الى حد بعيد عن الكارثة التي حلت بها من جراء الفتح التركي لآسيا الصغرى والتي اضيف اليها في السنوات الاخيرة من القرن الحادي عشر تقدم "بتشنيك في أعالي الدانوب وهجوم النورمانيين الايطاليين على ابيروس . ولكن البتشنيك محقوا ، والنورمنديين صدوا بعد زمن قصير . أما أتراك آسيا الصغرى الذين لاقوا صعوبات جمة في تنظيم فتوحاتهم ، فقد استطاع البيزنطيون - بفضل عضد الحملة الصليبية الاولى ايضاً - ايقافهم واقصاءهم عن مشارف التجدد الاناضولي على البحر . فباتت بيزنطية آنذاك سيدة المضائق وایجه واليونان وتراقيا وبلغاريا دون منازع ؛ ومن حيث هي حامية الصرب ، فان قوتها ، على هبوطها ، ما زالت تلعب دوراً هاماً في السياسة الدولية . وقد استطاع مانوئيل كومنينوس ، في الربع الثالث من القرن الثاني عشر فرض احترام رأيه في الشؤون الدانوبية والتدخل في الدسائس الايطالية ولعب دور هام في الشرق اللاتيني . اجل لقد ثقلت وطأة تأثير الارستوقراطية العلمانية في داخل الامبراطورية : فقد ازدادت « مداخيل الحبيطة » وأمست وراثية ، وضم العظماء اليها موارد الاديرة التي قدمت لهم بمثابة مكاسب ؛ وكانت سلالة آل كومنينوس عوناً كبيراً لانتصار

الارستوقراطية التي المحدرت منها. ولكن خسارة آسيا الصغرى ، قد اضرت ، في الوقت نفسه ، اضراراً بالغاً بأعظم عائلات الامبراطورية ، فاستطاعت الدولة القاء الالهابة والخوف في قواها الهدامة . وهذا ما يفسر استقرار عهد هذه السلالة اذا ما قورن بالانقلابات المتعاقبة في القرن السابق : فقد خاضت بيزنطية آنذاك حروباً عديدة للذود عن حدودها ، ولكنها نعمت في الداخل ، على العموم ، بسلام نسبي .

بفضل هذا الاستقرار ، سارت النشاطات الفكرية والفنية سيرها الطبيعي . فالتاريخ لا يزال حقلاً خصباً : فروت آنثا كومنينوس وقائع ملك ابها الكسيوس ؛ وأكل كيناموس روايتها حتى ملك مانويل ، وألف نيكيتاس خونياوس بحثاً مفصلاً مستفيضاً في التاريخ البيزنطي منذ تولي يوحنا كومنينوس حتى بعيد الحملة الصليبية التي نظمت في السنة ١٢٠٤ ، بينما حظي موجز التاريخ العام الذي وضعه زوناراس ، بعد مرور زمن قصير على تأليفه ، بشهرة واسعة عظيمة . وكتب في الوقت نفسه ثيوفيلاكثوس الاوكريدي ، المعاصر لالكسيوس ، ثم ميخائيل خونياوس واوستاخوس التسالونيكى ، في اواخر القرن الثاني عشر ، وبلغه كلاسيكية وعلمية ، رسائل وخطباً ومؤلفات دينية ملأى بالمعلومات المفيدة . ووصلت الينا ، بالإضافة الى ذلك ، حاملة اسم ثيودورس بروذروموس بنوع خاص ، مجموعات قصائد منظومة باللغة الشعبية تذكرنا بـ « فيتون » ، وان هذا اللون ، الجديد في بيزنطية ، سيكتب له البقاء . اما الابحاث الفلسفية فقد ضعفت بفعل حركة ماثلة لتلك التي عرفها الاسلام آنذاك : فان جارات يوحنا الايطالي ، احد تلاميذ « بلسوس » قد أفلقت الارثوذكسين ؛ واحترز الناس من المستوحيات الوثنية ، التي اخضبت ذاك الاخصاب المجيب في الاجيال السابقة ، واذعنوا كل الاذعان لتعاليم الدين .

اما الفن فلم يصب بالمقابلة بأي وهن . فان قصر بلاشيرن الذي شيده آل كومنينوس في اقصى « القرن الذهبي » ، والذي تبقّى منه الجزء المعروف اليوم بـ « تكفور - سراي » ، قد اثار الاعجاب على غرار « القصر العظيم » الذي اعمل شيئاً فشيئاً . وما زال البيزنطيون يشيدون الكنائس في الاديرة والابرشيات ، ككنيسة « الضابط الكل » في القسطنطينية . وبلغت الانتباه بصورة خاصة ان اثر الفن البيزنطي ما زال يمتد الى ما وراء حدود الامبراطورية المنكشة : فالبلدان السلافية التي اعتنقت الدين المسيحي حديثاً طلبت الى مهندسي العمارة اليونانيين تشييد كنائسها ؛ وفي ايطاليا الجنوبية وصقلية وضعت مواهب الفنانين المحافظين على التقليد البيزنطي في خدمة كبار البنائين من الامراء النورمنديين ؛ واستوحت بعض أبنية الغرب اللاتيني نفسها كـ « سان - فروت في بريفور » ، بفعل تأثيرات غير واضحة ، بعض النماذج البنائية البيزنطية . واستمل مؤلفو وفنانو البلدان اللاتينية او السلافية ما تعلموه بحرية ، ولم يترددوا في البحث عن مصادر وحي اخرى في امكنة اخرى . وعلى الرغم من ذلك فقد حصل التوازن آنذاك بين بيزنطية التي ما زالت تنبض بالحياة ، وبين الغرب الذي اخذ يستيقظ من سباته .

ان التضاد لمدهش بين نشاطات الفكر هذه والامحطاط الاقتصادي الذي منيت به الامبراطورية اليونانية منذ اواخر القرن الحادي عشر . فلما كانت الفتوحات التركية قد حالت تقريباً دون الاستمارة ببحارة الولايات الآسيوية ، حين مست الحاجة الى اسطول للوقوف في وجه النورمانيين ، اضطر الكيسوس كومنينوس الى التحالف مع البندقية ، القوة البحرية الوحيدة في البحر المتوسط ، لقاء امتيازات وضعت في يدها عملياً احتكار تجارة الامبراطورية الخارجية (١٠٨٢) . ولم يجد خلفاء الكيسوس حلاً آخر لاضعاف نفوذ البندقية الا بموازنتها بامتيازات مماثلة يمنحونها الجنويين والبيزيين ويفيدون من المنافسات التي تقوم بين الطرفين . اما في الامبراطورية التي تناقصت مواردها الجبائية تدريجياً ، فقد تعاضل بطراد تأثير الجاليات الايطالية المقيمة في الاستانة ، وتعاضل معه تدخل اللاتين في السياسة البيزنطية : فدول الصليبيين التي لم تقم بعملية مفيدة ضد اترك الاناضول ، قضت في الشرق على النفوذ اليوناني ؛ والجيش البيزنطي نفسه قد لجأ الى خدمات المرتزقة الغربيين الذين ازداد عددهم ازدياداً مطرداً ؛ وتعددت في العائلات المالكة كما في الارستوقراطية الزواجات المختلطة ، التي ادخلت على بلاط مانويل كومنينوس عادات نصف لاتينية . الا ان الشعب اليوناني لم ينجر في هذا التيار ، فأظهر اشتمرازه ، بتأثير من اكليروسه ، من التدخل الغربي . فحاول مانويل اخيراً (١١٧١) ، بعد فوات الاوان ، التخلص من التجار الايطاليين ، مع انه لم يكن بغنى عنهم ؛ فجاءت محاولته بمثابة حرب معلنة في غير أوانها افضت ، بعد وفاة الامبراطور ، الى تقتيل كافة لاتين القسطنطينية . وبذلك قطعت بيزنطية المستضعفة اتصالها بالغرب حين بدارجحان كفة الغرب على كفتها في ميزان القوى .

جاءت النتيجة سريعة وغامضة ومسرحة . انتهج مانويل كومنينوس سياسة عظمة ارهقت رعاياه ، دون ان تجدي قتيلاً على كل حال ، اذ ان كارثة ميروكيفالون في السنة ١١٧٦ قد أعطت البرهان القاطع على استحالة استعادة تركيا الآسيوية . فاستهدفت غلبة الشعب الارستوقراطية العسكرية واللاتين على السواء ؛ وعجز اندرونيكوس كومنينوس المغتصب ، وحكم سلالة « الملائكة » القصير ، من بعده ، عن تأسيس أي بناء دائم على الانقراض التي كدستها الحركة المعادية لللاتين . فاستفاد النورمانيون والبلغاريون والصرب واطراك الاناضول من تصارع الاحزاب وقاموا في آن واحد بهجماتهم او بشوراتهم على الامبراطورية . واذا سعى « الملائكة » آنذاك للتعاون مع صلاح الدين على اللاتين ، فقد فكرت فئات اخرى بالتعاون مع هؤلاء لاستلام الحكم . اجل نحن لا نعلم بالضبط مدى اطباع بعض قادة الحملة الصليبية الرابعة ، منذ مغادرتها الغرب ، ضد الامبراطورية البيزنطية . ولكن الواقع هو ان البندقيين وفرسان فرنسا الشمالية قد دخلوا القسطنطينية عنوة في اوائل السنة ١٢٠٤ وعملوا فيها نهباً واستلاباً وأقاموا على انقاض بيزنطية « امبراطورية لاتينية » ضعيفة .

قد يجوز ، لاعتبارات شتى ، التوقف بالتاريخ البيزنطي عند هذا التاريخ . ولا يعني ذلك قط ان اللاتين استطاعوا تدوين كافة الاراضي اليونانية : فلا يزال منها ، خارج سيطرتهم ،

منطقة « طرابزون » ومنطقة ايبروس و « امبراطورية » نيقية بصورة خاصة التي يرجع إلى الأتراك رأوا من الخير ابقاءها على شواطئ آسيا الصغرى الغربية ، والتي توصل ملوكها ، بفضل جيش من الفلاحين ، إلى توطيد هذا الملجأ الأخير لثقافة يونانية عرفت ازدهاراً آنذاك على يد « نيكيفوروس بلميدس » واضع دائرة المعارف . ولكن ما أوردنا ليس سوى بقاع متشتتة تسودها التفرقة نفسها التي تسود امارات الامبراطورية اللاتينية . أما الذين سيستفيدون من هذه العملية فهم دول البلقان السلافية في الدرجة الأولى ثم الأتراك في أجل لاحق بعيد . لذلك لم نخدم حلة السنة ١٢٠٤ قضية التقارب اليوناني اللاتيني قط ، بل اوجدت هوة يستحيل اجتيازها بين فرسان الغرب والجمهير اليونانية المتكتلة حول كنيستها ؛ ويمكن القول بهذا الصدد ، ان الانشقاق الديني الذي لا يزال قائماً حتى أيامنا هذه انما يعود تاريخه إلى السنة ١٢٠٤ لا إلى السنة ١٠٥٤ .

روسيا قبيل الفتح المغولي
كان مقدراً للشعوب البلقانية ، بعد ان تحررت بسقوط بيزنطية ، ان تبلغ ذروة قوتها في القرن الرابع عشر . ولكن هذا القول لا يصح في روسيا التي توقفت تاريخها بقسوة ، على غرار الاسلام ، منذ الربع الثاني من القرن الثالث عشر ، بفعل الفتح المغولي . كان التصدع ، في هذه المساحات السلافية الشاسعة ، قد لحق بامارة « كييف » ؛ ولم يكن غريباً عن هذا التصدع نظام انتقال السلطة القاضي باعادة توزيع الاراضي ، بحسب تسلسل معين ، كلما توفي احد امراء العائلة المالكة التي مارست سيادة متضامنة . الا ان المخطاط الدولة « الكييفية » يرد أيضاً إلى توسع الشعب الروسي الذي انجبت تجارتها ، آنذاك ، شطر المانيا وقزوين بالتفضيل على القسطنطينية ؛ ويرد ايضاً وخصوصاً إلى غارات سكان السهول البائرة من « كومان » او « بولوفتس » الذين طردوا سلافي المناطق الجنوبية وأرغوهم على استعمار السهول القليلة السكان التي يرونها الدينستر ، او منطقة الغابات شبه المقفرة ، في الشمال الغربي ، التي تمتد حتى اواسط الفولغا . فنشأت عن هذا التشتت شعوب مختلفة ، الاوكرانيون ، والروس البيض ، والروس الطوال . وتحررت آنذاك منطقتان : نوفغورود وبسكوف ، في أقصى الشمال ، اللتان اعطتا الجمعيات الاقليمية استقلالاً داخلياً وتنظمتا كجمهوريتين تجاريتين ما لبثت عامة الشعب فيها ان قاومت اوليفارشية رجال الاعمال والحكام ؛ ونظم « اندريه بوغوليوسكي » في الشمال الشرقي ، منذ منتصف القرن الثاني عشر ، في المنطقة التي ستنمو فيها موسكو قريباً ، اماره « سوزدال » التي احدثت انقلاباً في تاريخ ماض تمرکزت فيه روسيا حول الدينير .

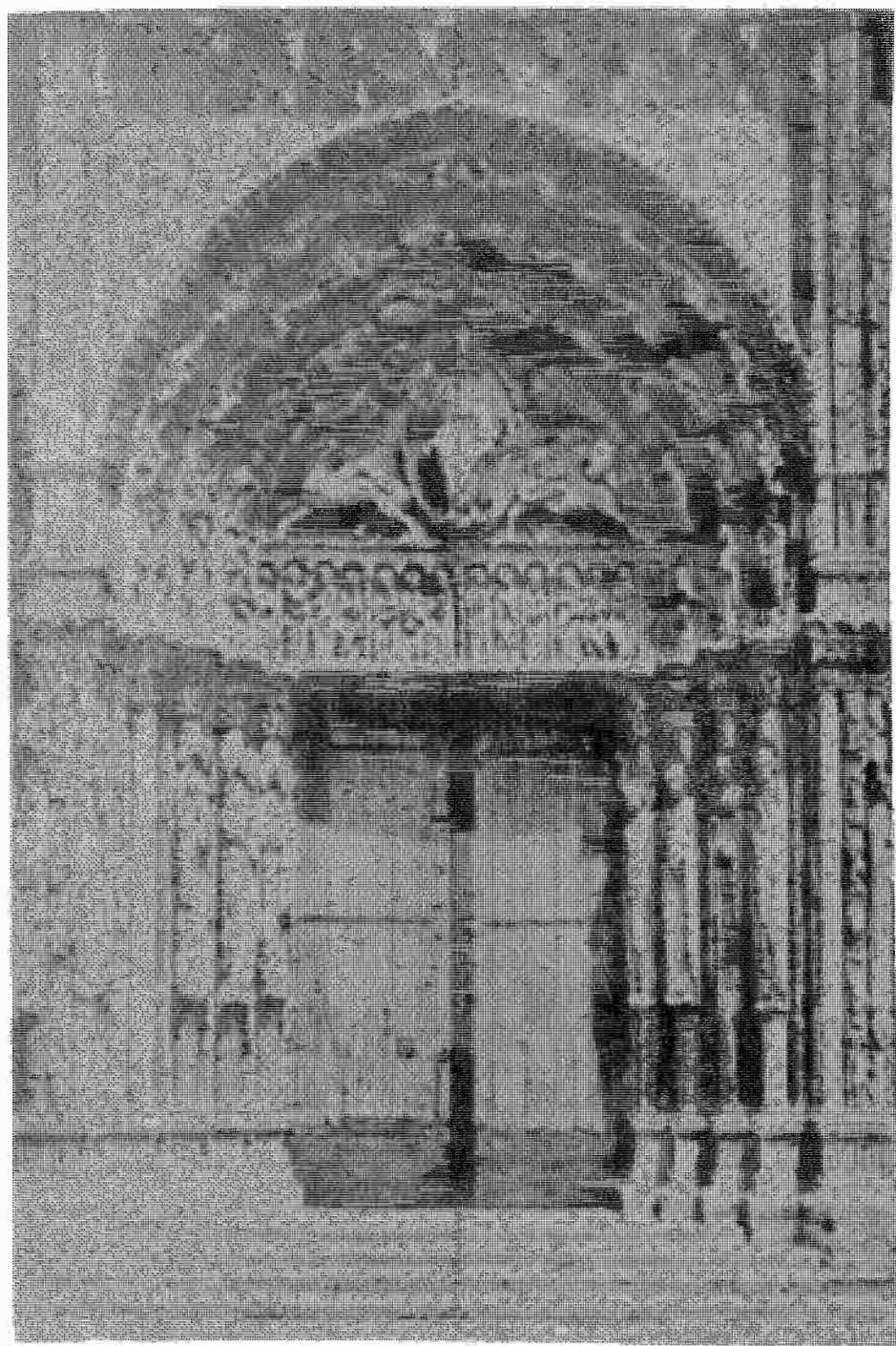
على الرغم من هذه التيارات المختلفة التي ترتسم بين الشعوب الروسية ، احتفظت « كييف » بمركزها الادبي : فانما وضعت في كييف نفسها ، في السنوات الاولى من القرن الثاني عشر ، ال « روسكاي برافدا » أي مجموعة القوانين الروسية ، وظهرت اليوميات المنسوبة لسطور التي تشيد بمآثر اسطورية او واقعية أتها السلالة القديمة . وفي « كييف » ملك على التوالي قسطنطين

مونوماكوس الذي ستجسم الحكمة بخياله الشعبي ، و « ايفور » ، بطل الحرب ضد « الكومان » ،
وان ما يلتفت الانتباه في كل ما بلغنا من الادب المكتوب في ذلك الوقت ، او من التقاليد الشفهية
هو عمق التضامن والوطنية الروسيين . ولذلك لم يكتف الادب بالنقل عن اليونانية ، بل انطلق
انطلاقة قادتة الى الاستقلال . ففي هذا المهد اخذ بعض الشعراء يشيرون روايات نصف اسطورية
تعتبر عن الحكمة الشعبية ، استهوت الفلاحين الروس حتى فجر القرن العشرين . اجل ان تحريرها
قد حدث في عهد متأخر جداً ، وهذا ما يجعل الشك مخيماً على صحة رواية « حكمة ايفور »
الشهرة . ولكن اذا صحت نسبتها الى القرن الثاني عشر فانها تربنا روسيا الناهضة قادرة على
وضع ملحمة خلية ، من حيث قيمتها الادبية ، بأعظم حضارات العصر . وبدا الاستقلال نفسه
والمعبرة نفسها في الفن : فلم تعد روسيا القرن الثاني عشر على غرار الدولة الكييفية القديمة ،
بمجرد ولاية من ولايات الفن البيزنطي . فقد عرف مهندسو ابناء نوفغورود وبسكوف كيف
يوفقون بين التأثيرات اليونانية وتأثيرات المانيا البلطيقية ، كما عرف ذلك ايضاً رسامو الايقونات
ومزوقو الكتب . ونشأت بصورة خاصة في المنطقة التي سيطلق عليها اسم موسكوفيا ، أي
في سوزدال وفلاديمير ، هندسة عمارة حجرية ، جديدة كل الجدة بغنى زخرفتها المصورة ،
يستحيل علينا ان لا نرى فيها تقليداً للنماذج الارمنية والجيورجية . ويبدو في كل مكان ،
بالاضافة الى ذلك ، ان فنانيين روسيين كثيرين قد حلوا محل الفنانين الاجانب وطبقوا دروسهم
بحرية متزايدة .

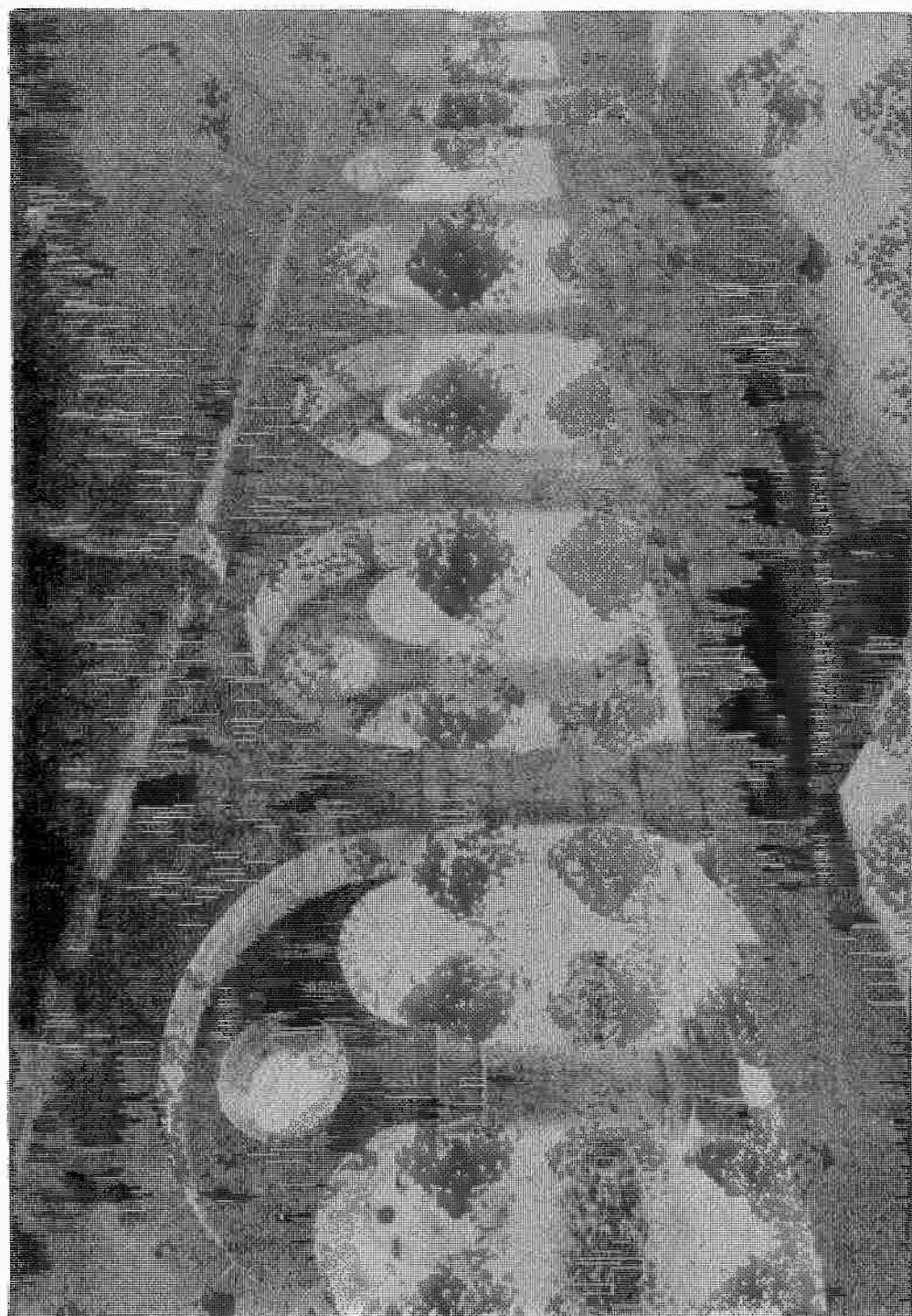
بيد ان روسيا التي بدت حضارتها على وشك التفتح ، لن تنجو ، شأن الاسلام التركي الذي بدا
مستقراً ، من كارثة جديدة : فقد دقت ساعة الغزو المغولي .



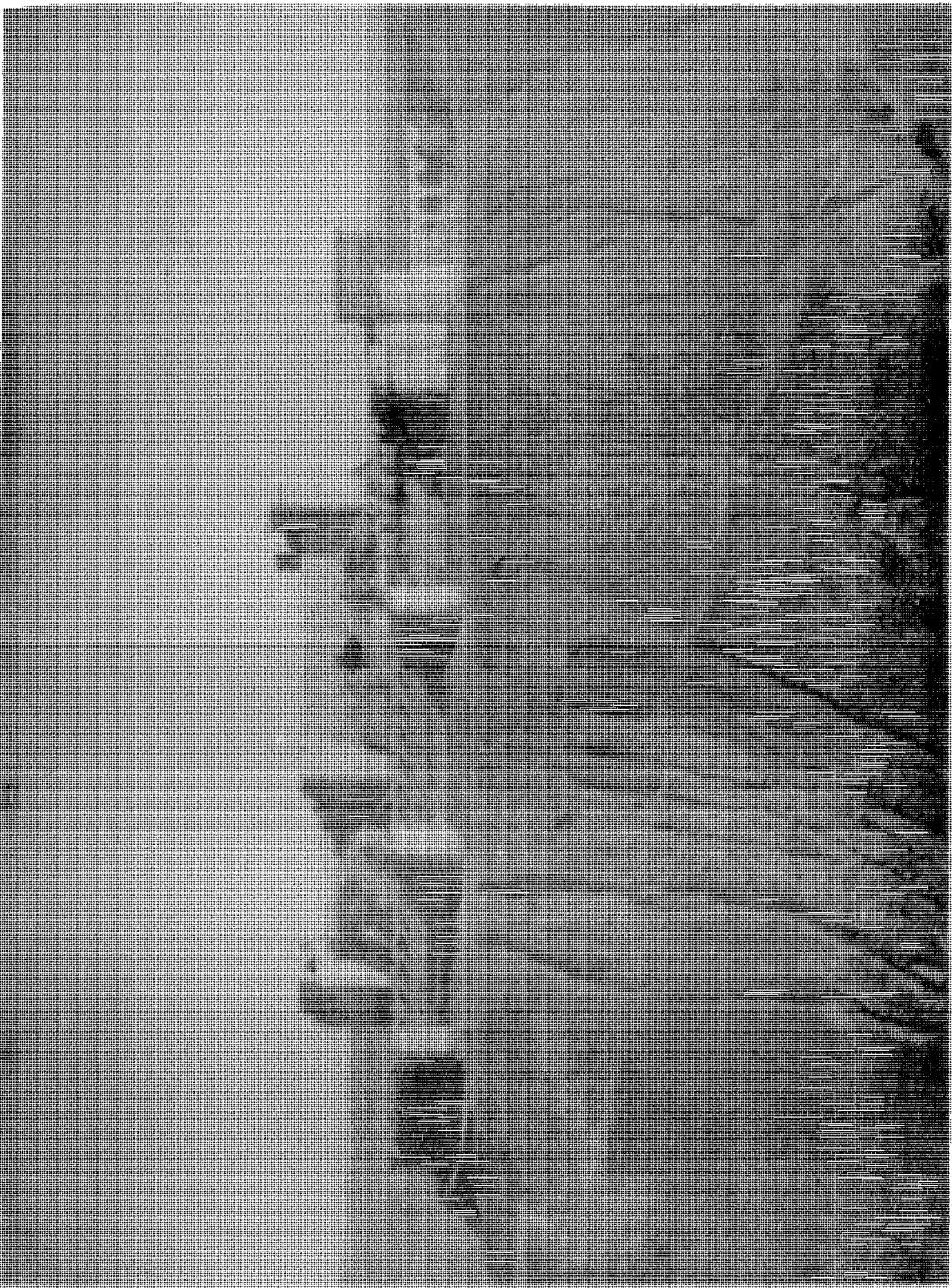
اللوحة ١٧ - المسيح في جلاله



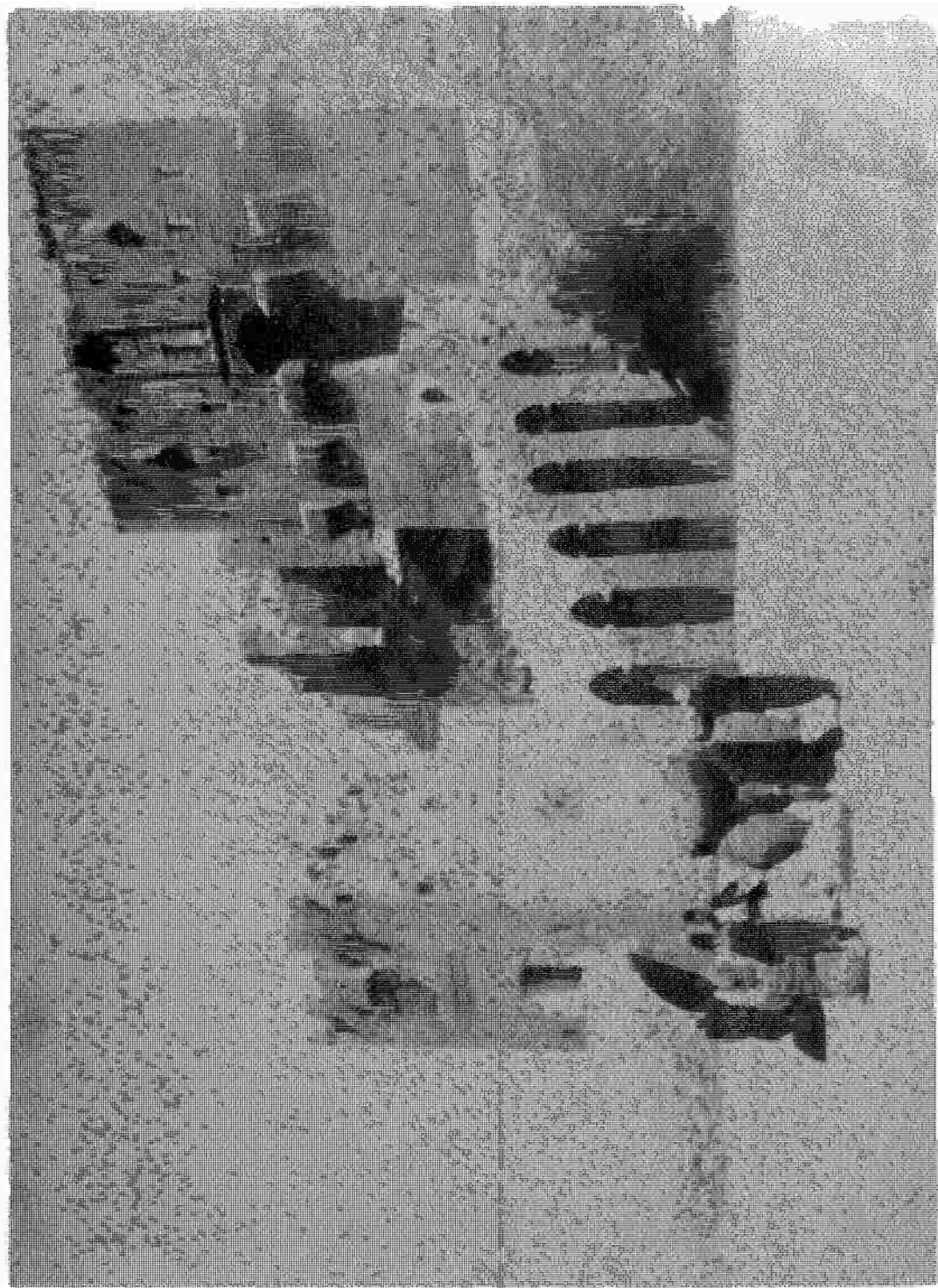
اللوحة ١٨ - الباب الملكي في كاتدرائية شارتر (القرن الثاني عشر) .



اللوحة ١٩ - رواق دير توروبيه (القرن الثاني عشر) .



اللوحة ٢٠ - قلعة العرسان ، حصن الأكراد ، قلعة حلب في سوريا ، القرن الثاني عشر .

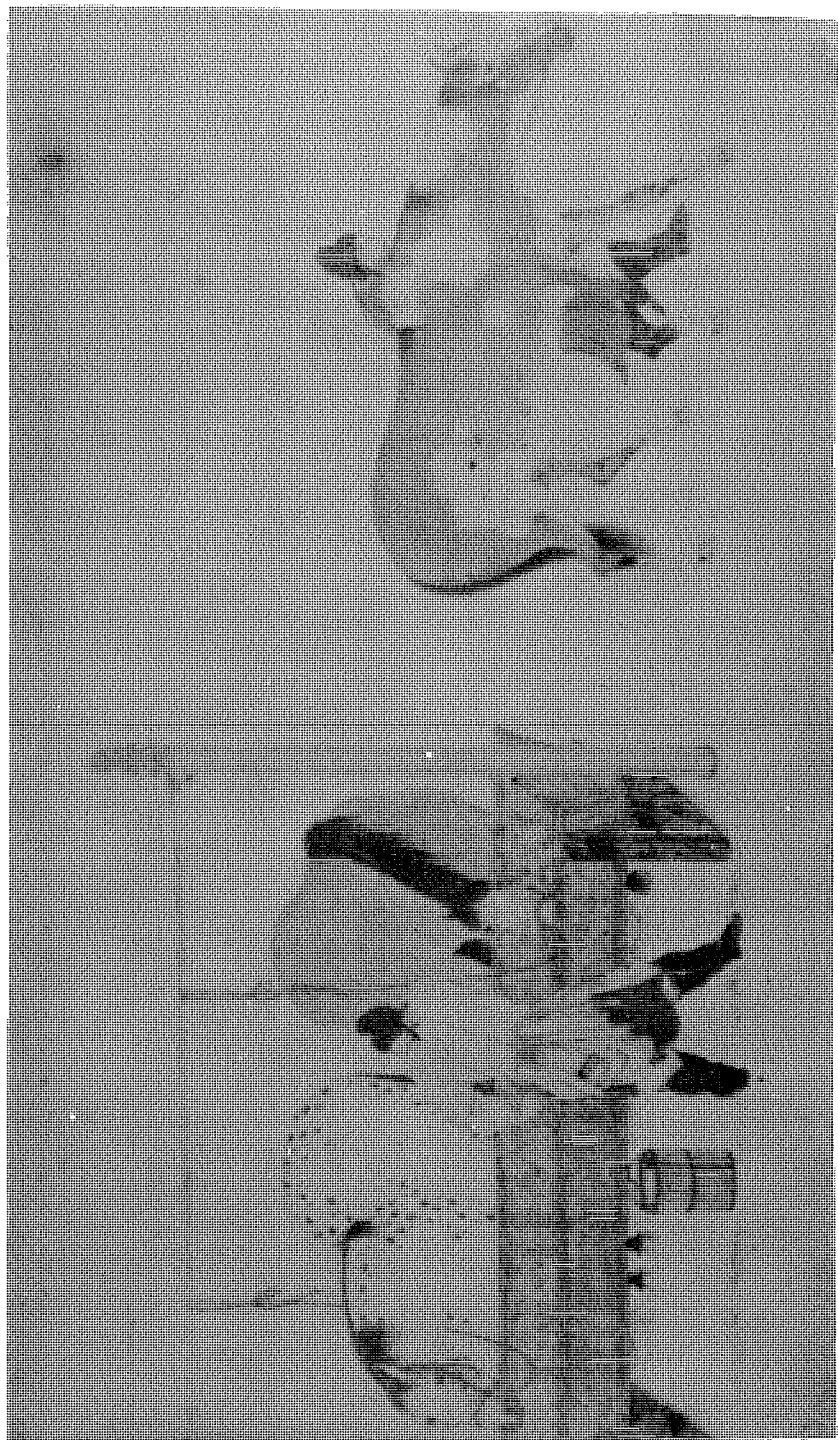


اللوحة ٢١ - قلعة حلب (سوريا) ، القرن الثاني عشر .

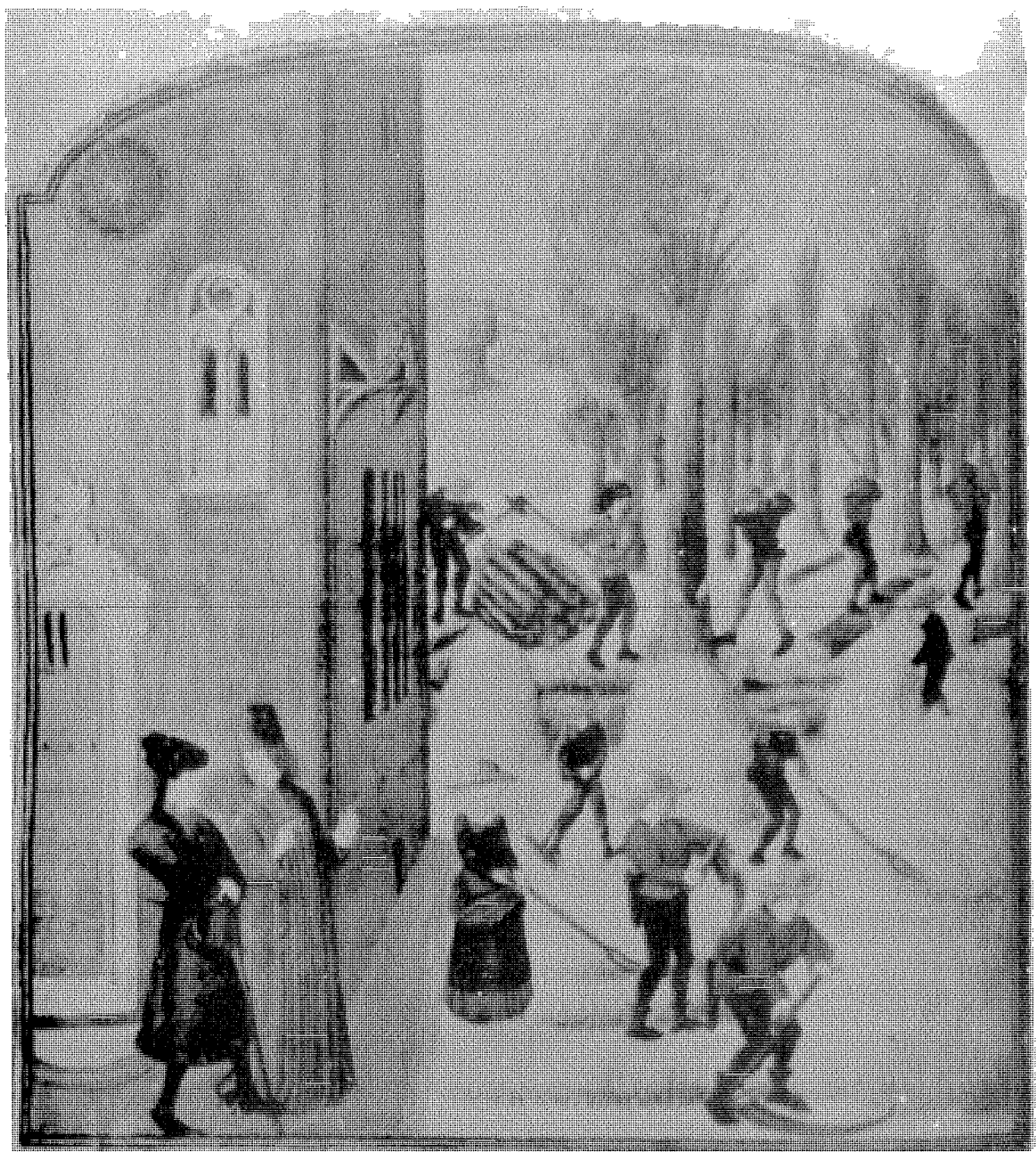


اللوحة ٢٢ - رأس بودا غنيري





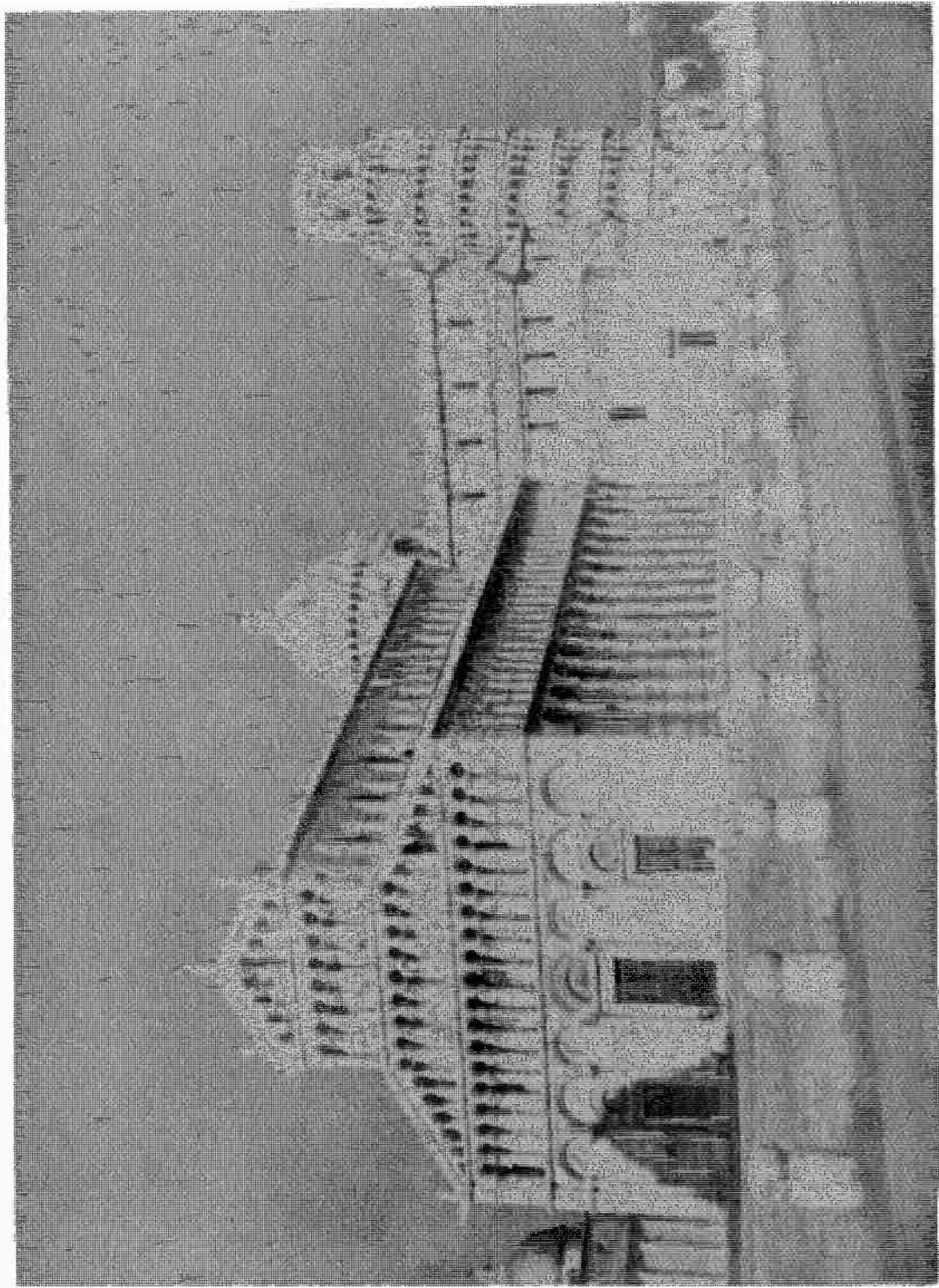
اللوحة ٢٤ - الاحصنة في الشرب



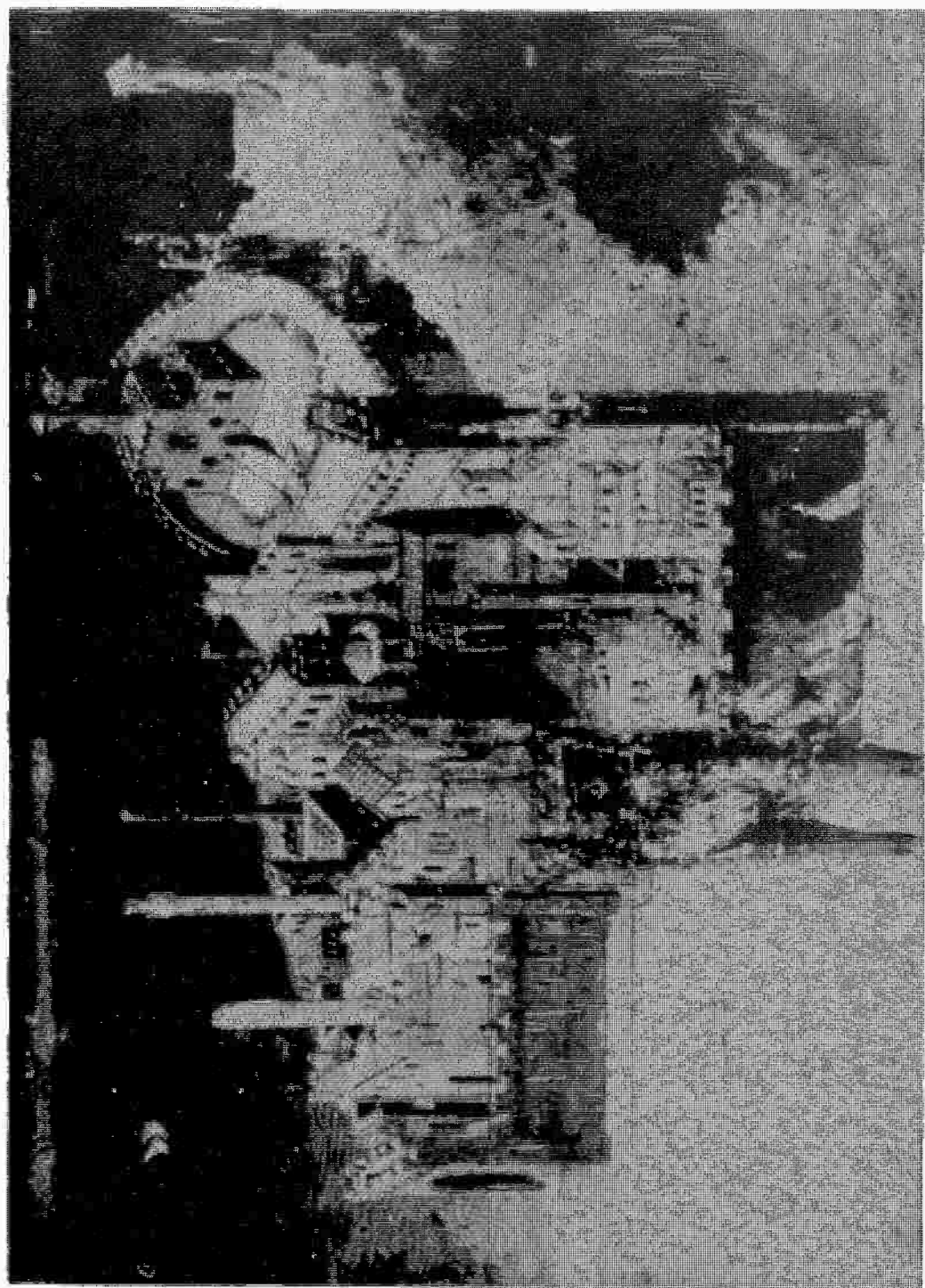
اللوحة ٢٥ - اعمال الحقول



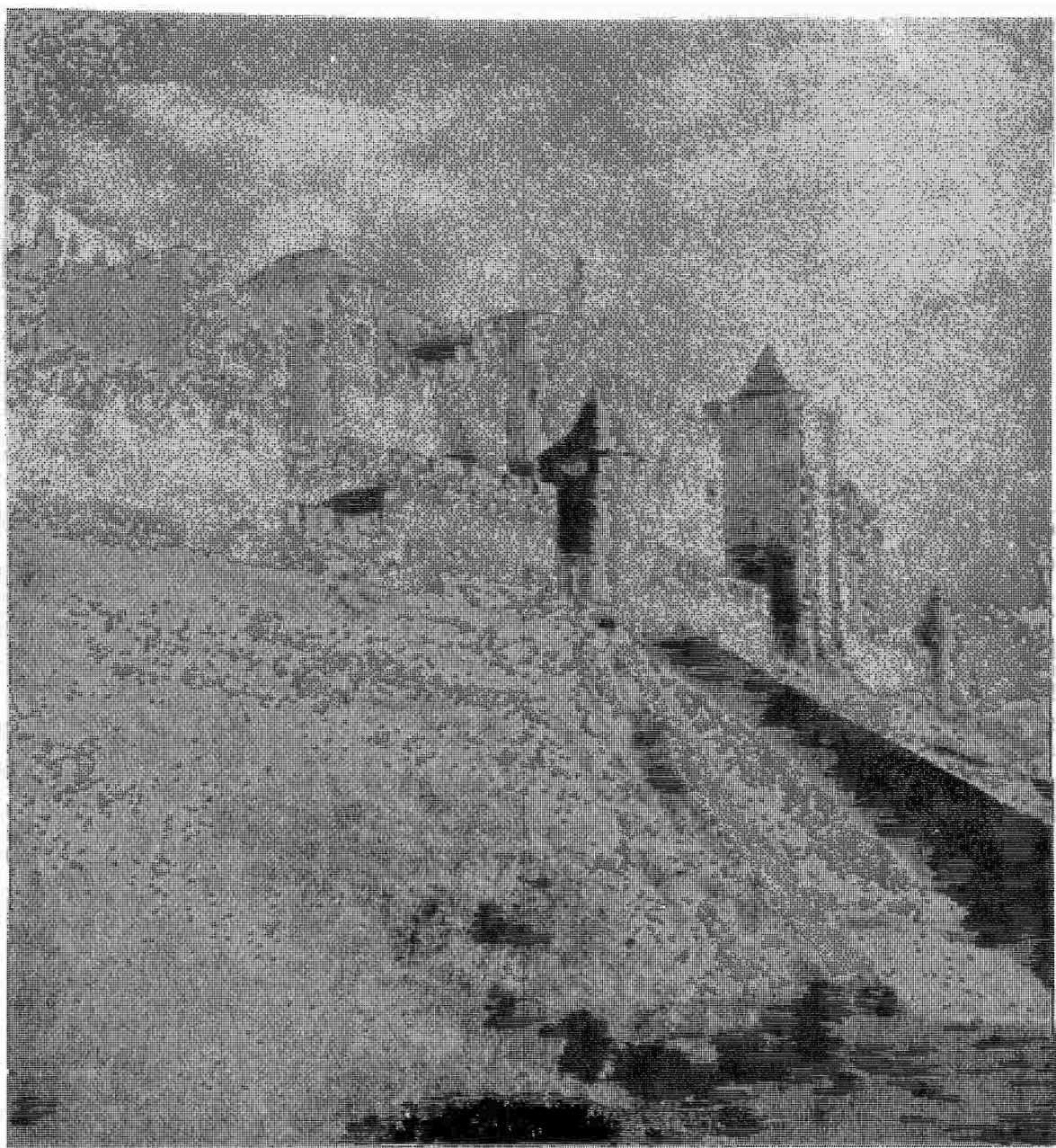
اللوحة ٢٩ - سوق لنديت



اللوحة ٢٧ - قبة يزاويرجها المنعني ، القرن الثاني عشر .



اللوحة ٢٨ - مدينة إيطالية في القرون الوسطى .



اللوحة ٢٩ - مدينة كركستون .



الرياح ٣٠ - كنيسة نوتردام في باريس (القرنان الثاني عشر والثالث عشر) .



اللوحة ٣١ ملك بوموتي .



THE BULLDOG

الفصل الثالث

آسيا المغولية

(القرن الثالث عشر والرابع عشر)

ان الواقع الجديد الذي يميز آسيا في القرن الثاني عشر والذي رأينا في فصل سابق تحيزه البطيء ، هو ان الهند والصين قد فقدتا نفوذهما المريق في القدم على الدول الشرقية في هذه الغارة الواسعة الاطراف . اجل كلتاها لتبها خيلاء ، استناداً الى ماضيها التاريخي الطويل ، بتحقيقاتها المدهشة في الحقل الفلسفي والديني وفي حقول الادب والموسيقى والفنون التصويرية . وكلتاها لا تزالان الزعيميتين الروحيتين لبلدين احدث عهداً في آسيا الجنوبية الشرقية ، أي كوريا واليابان ، تساند مركزهما هذا تجارة لا تزال ناشطة . ولكنها تشكوان كلتاها من وهن داخلي هو النذير بالمحطاط قريب .

آسيا قبيل التوسع المغولي
قسّمت الهند عملياً الى شطرين بفعل الغزو الاسلامي الذي سار في اندفاعه نحو الشرق وبلغ البنغال التي أكمل فتحها في السنة ١٢٠٢ . ولم تحمل الحروب الداخلية التي مزقت الدول الاسلامية الحديثة العهد وأفضت الى هزيمة الغزنويين امام الافغانيين الغوريين ، دون تقدم الفاتحين نحو الجنوب ايضاً . فانكفاء الممالك المحلية نحو « دكن » وتقسيم شبه الجزيرة وانتقلت السيطرة من هذه الى تلك بحسب محالفة الحظ لهذه او لتلك في الممارك . اجل كانت المقاومة ضارية في وجه الغزاة ولكنها تأثرت بهذا الانقسام وهذه الحروب بين الاخوة .

وتجزأت الصين بدورها ايضاً بعد ان اعرض السونغ نهائياً عن استعادة ارض « التانغ » وآثروا ، في مدينتهم - المتحف « هانغ - تشيو » ، الانصراف الى الفن وعلم الجمال وعلم المعقولات . فخصمت كافة مناطق البلاد الشمالية لـ « كين » ، « الجورتشتات » الاذكيا الذين قوّضوا مملكة الـ « كين » وحققوا السيطرة عليهم خلال القرن الثاني عشر ، وبلغ منهم انهم هددوا عاصمة « السونغ » فترة من الزمن . وفي منتصف هذا القرن ، بلغ عدد العواصم في الاراضي الصينية

ستاً على الأقل : « تا - تنغ » في الشمال (جيپول) ؛ « لياو - يانغ » في الشرق ؛ « تا - تونغ » في الغرب ، بكين في الوسط ؛ كي - فونغ (نانكين) جنوبي مملكة الكين ؛ وهانغ - تشيو أخيراً ، عاصمة السونغ . وكان من شأن الصلح غير الثابت الموقود مع الكين ، الذين بقضوه تكراراً ، أن أتاح لهؤلاء السيطرة على أراض شاسعة قاست الأمّرين من غزوات وحروب متتالية دامت قرناً عديدة ؛ وإذا انهمك بلاط السونغ بالمجادلات الأدبية والفلسفية ، فإن شعوب الشمال قد اختبرت الحياة القاسية التي تعيشها بلدان خاضعة لحكام لا يزالون برابرة .

كانت النتيجة الأولى لهذا الانحطاط المزدوج تحرّر الدول الآسيوية الأخرى عملياً إن لم يكن نظرياً ، من سيادة الصين والهند . فسطع نجم الامبراطورية الخيرية آنذاك في عهد ولاية الملك « شوريا فارمان » الثاني الكبير (حوالي ١١١٢ - ١١٥٢) ؛ أجل أنه اغتصب الملك اغتصاباً ، ولكنه كان محارباً شجاعاً وإدارياً لامعاً ضم إليه « سيام » الوسطى (مملكة لوبوري) إلى مملكته ، وأرغم إليه « شيبا » على محالفته لمحاربة « واي كوفيت » (« تام ») وشيّد معبد « انكورفات » المدهش ، وهو أفضل طراز للمعبد . الجبل ، المكرّس لـ « فيشنو » والمعدّل لأن يكون ضريحاً ملكياً ؛ وفي كمال هذا البناء وجمال زخرفته العظيم ما يجعل منه رائعة من روائع الفن العالمي . ثم سطع كذلك ، بعد كسوف نجمهم عن هجوم الشيبا ، في أيام جايا فارمان السابع (أواخر القرن الثاني عشر) ، ولعله أشهر ملوك كبوديا ، الذي جهز المملكة وعاصمتها بأفصح معابدها ، وأنجز العديد من الأعمال العمرانية ، وأسس المستشفيات وسما بالسلطة الامبراطورية حتى ذروتها . وتناقصت بالمقابلة قوة الشيبا التي أفضى اندفاع « تام » نحو الجنوب إلى حصرها في الولايات الجنوبية من الهند الصينية ، فانكسأت التأثيرات الهندية ، بالعمل نفسه ، أمام حضارة صينية الطابع . على الرغم من هذا الوضع اليائس الذي جعل الشيبا تواجه التقدم الآرامي في الشمال والقوة الخيرية في الغرب والجنوب ، نراها محافظة على نزعتها إلى الحرب مستمرة في شن الغارات ، برأ وبحراً ، على كافة جيرانها . إلا أن السيام قد بقيت محروقة ؛ فبينما توسع الـ « طاي » ، الآتون من الشمال ، حتى أواسط البلاد الخاضعة آنذاك لسيطرة الخميريين ، استطاعت مملكة « هاريو ونجاي » الابقاء على حضارتها المونوية المتأثرة بالحضارة الهندية تأثيراً عميقاً . رادطعات في « بورما » سلالة الملوك العظيم الذين دفعوا بلادهم إلى الامام في القرن الثاني عشر ؛ ولكن التقاليد الثقافية ، على الرغم من الفوضى السياسية ، قد انصادت بفضل بوذية « الباب الصغير » التي كانت بورما مركزها المفضل . وبقيت الجزر أخيراً مقدّمة إلى ثلاث ممالك : مملكة الشيلندرا اسباد « كريفيجايا » وأتباع الـ « شولا » اسباد الهند الجنوبية ؛ ومملكة « سورايايا » (جاغا الشرقية) التي لا نعلم عن تاريخها سوى النزر اليسير ؛ ومملكة « قاديري » ، وهي أقوى هذه الممالك وأعظمها نشاطاً ، التي نتمين أن ثقافتها الهندية تخضع تدريجياً للتقاليد المحلية .

أما اليابان ، التي سبق وأينا أنها عاشت طوال قرون عديدة من المـتـوردات الصينية ، والتي كانت آخذة في العودة إلى عبريتها الخاصة في الحقل الفكري والفني ، فما زالت خاضعة لسيطرة

عائلة الـ « فوجيوارا » القوية . وإذا ما سادها الاضطراب ، في القرن الثاني عشر ، بفعل
منازعات العائلات الكبيرة الطامعة بالسلطة ، وإذا ما طرأت على السلالة الامبراطورية تبدلات
خطيرة ، وإذا ما فرض نظام « الشوغونا » السياسي الجديد قوانين صارمة ، فإن الانطلاقة لن
تتوقف الا في السنوات الاخيرة من القرن الثاني عشر ، والاختلال الذي سببه هذا التوقف
سيحدث في الزمن حين يبرز خطر الغزو المغولي . الا ان هذه المرحلة هي أيضاً الفترة التي أخذت
فيها الصوفية « زن » ، وهي في اول عهدها ، تطبع الثقافة اليابانية بطابعها الخاص المميز .

يتضح من ذلك ان البذور التي ألقها الهند والصين في كافة البلدان الشرقية والجنوبية الشرقية
قد أنبتت حضارات جديدة - الخيرية والجافانية واليابانية - وجعلت بعض الشعوب المتخلفة
تعمي حقيقتها وطاقتها . الا ان الهند والصين قد اقتفرتا الى القوة اللازمة لبدست سيطرتها على
الشعوب المحيطة بها ؛ لا بل تعمس عليهما مقاومة ضغط امبراطورية اسلامية تحركها عصبية
الحرب المقدسة وعالم بدو سائر في طريق التنظيم .

منذ العصور القديمة ، جابت جماعات من البدو الرحل منطقة الاراضي
ماضي عالم البدو
البائرة الشاسعة التي تؤلف شطراً هاماً من اوراسيا . وقد انتسب هؤلاء
بلهجاتهم الى الاسرة اللغوية الالتيائية أي التركية المغولية . ولكن مساكنهم نفسها فرضت
عليهم ، منذ الوف السنين ، نمطاً حياتياً راعوياً اتسم بطابع بدائي غريب الى جانب الحضارات
المستقرة التي عاصرتهم . استهوت قبائلهم منذ القدم الاراضي الزراعية المتاخمة لبرواتهم فتجمعت
شيئاً فشيئاً واكتفت في فترة من الزمن بشن غارات صاعقة وحشية على جيرانها ، ثم تكتل عدد
كبير من هذه الجماعات بصورة مفاجئة وقام بغزوة رهيبة فرأ امامها السكان المزارعون الذين
تحولت مزرعاتهم الى مراعى على يد بدو رحل لا يهتمون الا لزراعتهم ومواشيهم . بهذا المد
والجزر وهذا الكر والفر قام تاريخ البلدان المتاخمة للبروات الاوراسية : البدو يسعون البروات
في الاراضي الزراعية ، والعلاحون يسعون اراضيهم الزراعية عند حدود البروات . الا ان نوع
حياة سكان الحدود ، وهو شبيه بحياة البدو ، واختلاط القبائل في الاراضي التي سلكتها في
تنقلاتها ، قد سهلا الاتصال بين البدو الرحل والسكان المقيمين . ومع ذلك فإن سكان البروات ،
الانماء لحياة المراسن والرعاة القاسية ، قد استهوتهم ثروة الحضارات المتطورة وتفعلها . وإذا
هم عندوا في تفويضها ، فإن بعضهم قد تأثروا بسحرها وتكيفوا احياناً بحضارة المقيمين : فتهيمن
البعض ، كالمغول الكيكتات ، الذين استولوا في القرن الحادي عشر على شطر من الصين الشمالية
وجعلوا من بكين مقراً لهم ، وتأثر البعض الآخر بالحضارة الايرانية ، كالترالك الـ « ويفور » ،
الذين اعتنقوا المانوية وتعلموا اصول الادب فعدوا المربين الحقيقين للدول التركية - المغولية
الاخرى ورفضوا العودة الى الحياة البدوية .

لقد برهنوا احياناً عن اخلاصهم في محالفة الدول الكبرى السقي ارتأت طلب مساعدتهم

أو أرغمت على طلبها ، ولكنهم كانوا في الغالب تهديدًا خطيراً ودائماً : فقد أتاحت لهم خيولهم الصغيرة القيام بهجمات صاعقة ، ودرجوا على أن لا يتركوا وراءهم إلا الخراب والدمار ، فكانوا أعداء مرعبين . أجل لم يتوصلوا بعد إلى توحيد جماعاتهم القبلية المشتتة في البورات . ولكنهم توصلوا إلى تأسيس امبراطوريات سريعة الزوال تعاقبت عليها تعاقباً مطرداً على مر الزمن الهيمنة التركية والهيمنة المغولية . وغالباً ما قوض فيها أقل الناس تمحضاً للممالك التي توصل أكثر الناس تطوراً إلى تأسيسها . لذلك بات لزاماً علينا هنا القاء نظرة سريعة على هذا التاريخ منذ غزوات القرن الرابع الكبرى التي بلغت امتداداتها أوروبا ، مع اتسلا ، والهند ، مع ميهراتولا . ومن شأن هذه المعجالة أن تساعد على فهم نشأة عمل جنكيز خان وطابعه المميز .

في القرن السادس ، استقرت فيما بين الصين ومصاب الدون ثلاثة شعوب كبرى : الـ « جوان » - « جوان » في منغوليا ، من منشوريا حتى « طرفان » ، و « الهون الهنتاليون » ، من شمالي منطقة قراشهر إلى مرو ومن الآرال إلى البنجاب ، والهون الأوروبيون ، وهم من العرق التركي في الأرجح ، حول بحر آزوف ومصب الدون . إلا أن الجوان - جوان وهنتالي تركستان ردوا إلى وراء ، في السنة ٥٥٠ ، على يد الـ « تو - كيو » مؤسس الامبراطورية البدوية الأولى التي عرفت تنظيمياً على بعض الاستقرار . أجل لقد انقضى التو - كيو إلى ملكتين توأمين امتدت أراضيها من منشوريا إلى خراسان وكان هذا الانقسام ، بالإضافة إلى فوضويتهم التقليدية مدعاة لضعفهم . وكان للمقيمين منهم في الغرب حدود مشتركة بينهم وبين بلاد فارس الساسانية التي التمسّت بيزنطية مساعدتهم عليها فحافظوا على استقلالهم حتى اليوم الذي استطاعت فيه سلالة « تانغ » الصيلية القوية سحق اخوانهم في منغوليا ، فبسطت حينذاك سيطرتها عليهم . ثم حلت محلهم امبراطورية تركية أخرى هي امبراطورية الويفور الذين أقاموا إلى الجنوب من بحيرة « بيقال » ، جاعلين من « قره بلغاسون » عاصمة لهم ، وسيطروا ، حول طرفان ، على شطر من تركستان . ثم غدا الويفور أهل قرار وضعفوا بفعل تمحضرهم ، فانزعجت عاصمتهم منهم في السنة ٨٤٠ ، على يد « الكرغيز » وهم من الاتراك الهنجهين . كان الـ « آفار » ، في هذه الأثناء ، قد خلفوا الهون في البورات الروسية وأقاموا بين الدينيسر والدانوب ، بينما استفاد الـ « شا - تو » من الاتراك المتصنين العائشين حياة بدوية حول « ها - مي » عند طرف البورات الآخر ، من ضعف التانغ ليستولوا على شمالي غربي الصين (٨٠٨) . وعادت منغوليا ، في عهد « الكرغيز » ، وحتى السنة ٩٢٠ ، إلى هيجيتها الأولى ، بينما تمكن الويفور ، على الرغم من ضعفهم ، من تثبيت أقدامهم في تركستان .

في أوائل القرن العاشر طرد الكرغيز بدورهم وأبيدوا على أيدي برايرة آخرين من العرق المنغولي ، هم « الكيتات » . كان هؤلاء قد حاولوا ، لثلاثة قرون خلت ، الدخول إلى الأراضي الصيلية ، ولكن التانغ ردوهم إلى وراء بضرارة ، فاستفادوا آنذاك من انهيار القوة الصيلية ودخلوا بقيادة رئيس جبري وراء الجدار الكبير وأقاموا على العرش الامبراطوري قائداً صينياً

فرضوا حمايتهم عليه ، فكان ذلك مقدمة لاستيطان العديد من البرابرة في الصين التي ستولى جماعاتهم فتحها . وقد دامت اقامة الكيانات زمناً طويلاً : فتصيّنوا وحملوا اسم « كين » (ذهب) الصيني ، وأغاروا تكررأً ، طيلة قرنين ، على حدود الصين الجنوبية دون ان يفقدوا شيئاً من طاقتهم الحربية . ولهذا فان تاريخهم يختلف بعض الشيء عن تاريخ معاصريهم « المجرّيين » الذين سبق ورأينا انهم وصلوا الى اوربا الوسطى في اواخر القرن التاسع وشنوا غارات مدمّرة ، وان متفرقة ، على بعض ربوع الغرب المسيحي قبل ان يردوا نهائياً الى سهل الدانوب ويستقروا ويعتقوا الدين المسيحي ويؤلفوا بعد ذلك سوراً منيعاً للمسيحية في وجه الموجات الاخيرة لغزوات البدو المتدفقين على اوربا . وفي الواقع اقام برابرة آخرون ، في عهد متأخر ، بين الفولغا وقزوين : ففي هذه الرقعة من الارض التي يتلاقى فيها البيزنطيون والعرب من تجار الفراء ، والتي لجأ اليها العديد من اليهود هرباً من اضطهادات الامبراطور البيزنطي رومانوس ليكاينوس ، يبدو ان الخزر اعتنقوا الدين اليهودي . فردوا الى الورا في السنة ٩٦٥ على يد امير روسي من « كييف » ، ثم سحقوا في السنة ١٠١٦ على يد الامبراطور باسيلوس الثاني ، ولم يتلاشوا نهائياً الا في السنة ١٠٣٠ . في هذه الاثناء ، نجح الاتراك الغربيون ، او القراخانيون ، في اجتياز دولة السامانيين الاسلامية - وهؤلاء ايرانيون سبق ورأينا كيف سيطروا سيطرة واسعة ، سريعة الزوال ، على البختيار ، ومنطقة ما وراء النهر ، وخوارزم وخراسان وسيستان - وانتزعوا منهم منطقة ما وراء النهر التي ضموها اليها قشغاريا فتركوها بأن نشروا فيها الدين الاسلامي الذي كانوا قد اعتنقوه .

بعد تلاشي الخزر ، احتفظ « الكيانات » والقراخانيون بمواقعهم طيلة القسم الاكبر من القرن الحادي عشر . ثم ادمج القراخانيون ، حوالي السنة ١٠٧١ ، في الامبراطورية السلجوقية التي كان مؤسسوها ، المنحدرون من الاوغوز المغمورين ، قد اعتنقوا الاسلام ديناً : فانفصل تاريخهم منذئذ ، كما سبق ورأينا ، عن تاريخ عالم البدو ، مع ان ذهنيّتهم التركانية المتأصلة ستهز تكررأً في تصرفاتهم . وفي الوقت نفسه ، اقام شعب تيبتي في « الاوردوس » و « الألاشان » ؛ فأخضع هؤلاء الرحل الآخرون ، الذين عرفوا باسم « سي - هيا » ، شمالي غربي الصين بينما احتفظ « الكيانات » بشمالها الشرقي .

خلال القرن الثاني عشر ايضاً ، جرت تنقلات الجماعات البدوية عند طرفي عالم البورات . ففي سهول روسيا الجنوبية ، حل محل « الخزر » ، « البتشنيك » الذين سبق وعللنا أي خطر شكلوه على حدود الامبراطورية البيزنطية من جهة الدانوب ، الى ان قضى عليهم الامبراطور يوحنا كومنينوس (١١٢٢) . ثم جاء « الاوغوز » الذين عاثوا فساداً بدورهم في البلقان وخلفوا الـ « كبشاك » . وأحدث الخطر من جهة ثانية بصين السونغ ايضاً ، اذ هدهما « الكيانات » في الشمال الشرقي ، و « السي - هيا » في الشمال الغربي . فكان خطأ الامبراطور « هواي - تسونغ » ، وهو شاعر افضل منه سياسي ، محاولة منه لاجراج الكيانات من بكين ، في الاستعانة

بالـ « جورشات » الذين تشدهم أواصر النسب الى المنشوريين الحاليين. فلم يكتف انتصاف البرابرة هؤلاء بمنغوليا الداخلية ومنشوريا اللتين عينهما لهم « هواي - تسونغ » . فبعد ان قوّضوا امبراطورية « الكيئات » ، الذين كانوا قد ركنوا الى التعقل والهدوء بعد ان تعمّدوا الحياة الصينية ، بسطوا سيادتهم على كافة أنحاء الصين الشمالية مندفعين بمحملاتهم حتى بلاد السونغ التي لم يصدوا فيها الا بصعوبة .

شملت سيطرة الجورشات ، من ثم ، عند فجر القرن الثالث عشر ، وقبيل مغامرة جنكيز خان المظمية ، كافة نواحي منشوريا والصين الشمالية ، بينما احتفظ البسي - هيا بالمناطق الشمالية الغربية . واقام الويغور ، بعد ان باتوا اهل قرار ، في واحات تاريم وكوكا ، وطرغان ، السقي يبدو ان ازدهارها قد تأخر بفعل تراكّم الرمال . وعاش القراخيطة ، المتصنيون والمتنصرون ، عيشة البدو الرحل في الشطر الاخر من تركستان ، من « ها - مي » الى « الآرال » و « خوجند » ، باسطين حمايتهم على المنطقة القائمة بسين أعالي نهر ينيساي ونهر « آمو - داريا » . وحلّت ، وراء هذا النهر ، امارّة الخوارزميين ، وهم اترك اعتنقوا الاسلام ، محل السلاجوقيين في منطقة واسعة الاطراف ظمّت ، بالاضافة الى خوارزم نفسها ، خراسان ومنطقة « كابول » وغزنة وبلاد فارس كلها حتى جيورجيا . اما شمالي الهند اخيراً فقد احتله الغوريون الافغان الذين تغلبوا على الغزنويين . وشمل العالم التركي كافة أنحاء الشرق الادنى الاسلامي ؛ وتوسع الاتراك - المغوليون في روسيا والبلقان حتى سهول الدانوب .

هذه هي الفسيفساء الغربية التي كوّنّها السكان الرحل - وقد أمسى بعضهم اهل قرار - حين ظهر جنكيز خان : تنقلوا تنقلاً مستمراً منذ قرون ، دون ان يربط بينهم تلاحم حقيقي ، وأسسوا بممالك وامبراطوريات غير واضحة الحدود وسريعة الزوال نسبياً. لم تموض وحدة اللغة عن تعدد المعتقدات والكيانات السياسية ؛ تأثروا بالحضارة الصينية تارة والحضارة الايرانية اخرى اوبقوا اماناً للتقاليد التركية - المغولية ، واهتدوا اتفاقاً ، بحسب تغلاتهم المختلفة ، تارة الى البوذية او الكونفوشيوسية ، وطوراً الى المسيحية النسطورية او المانوية او الاسلام او اليهودية . كانت محالقاتهم سريعة الزوال ، ولم يتأثروا بتقدم الحضارات بل حافظوا في الغالب على عاداتهم المجمعية .

ان خضوع هذا العالم البدوي المتشوش لارادة جنكيز خان قد تكون الامبراطورية المغولية
أعد ، والحق يقال ، منذ زمن بعيد . فبعد القرن العاشر تحرّر المغول ، بفضل تغلب الخيطة على الاتراك الكرخيز ، من الوصاية التركية التي فرضت عليهم منذ سقوط الجوان - جوان . اضاف الى ذلك ان تأسيس امبراطورية القراخيطة في الربيع الاول من القرن الثاني عشر ، قد مثلت سلفاً ، على الرغم من ضعف رؤسائها ، موجة الغزوات البدوية الجديدة الظاهرة قبل حصولها بمائة سنة : فهي الامبراطورية المغولية الاولى التي اقامت

بعيداً عن مناشئها الأصلية ، في منطقة هامة من الأراضي الخاضعة حتى ذاك العهد لجماعات من المقيمين .

ولكن قبائل مختلفة جداً ما زالت تتنازع البلدان المغولية حوالي منتصف القرن الثاني عشر : التتر ، والمغول بمحصر المعنى ، والكونغيرات ، والاورات ، والماركيت . وأقام أبعداً إلى الغرب ، في رقعة غير محددة تماماً ، الكراييت الذين عاشوا عيشة بدوية واهتدوا إلى اللسظورية منذ أوائل القرن السابق ، والنشيان ، ولعلمهم من أصل تركي ، الذين اعتنق بعضهم اللسظورية وبقي البعض الآخر أميناً للسامانية . وإذا حقق الكراييت والنشيان ، كما يبدو ، بعض مظاهر الحضارة السطحية ، فإن مجموع البلدان المغولية قد استمر منذ سيطرة الكرغيز في حالة مهيبة ظاهرة . ليس هناك من مجموعات سكانية كبيرة ، ثابتة أو متنقلة ، محاطة بالأوتاد ، على غرار « مدن » الويفور ، أو « التو - كيو » ؛ بل دساكر حقيرة ومعسكرات تتجمع فيها بعض العائلات أو تقيم فيها عائلة واحدة في أغلب الأحيان . فتفسخ المجتمع ، المبني على القبيلة وفروعها ، حتى عاد إلى مستوى العائلة . ثم تمسكت العائلة نفسها أيضاً بفعل الفوضى السائدة .

ارتسمت عند أكثر هؤلاء البدو الرسل تأخراً ، في منغوليا الداخلية ، بعض محاولات التوحيد على أبدي حدود جنكيز خان أنفسهم . فقد جمع أحدهم ، المدعو قايدو ، عملاً بطريقة اعتمدها الفاتح فيما بعد ، حول قبيلته الخاصة ، - البرجيين - العائلات التي طلبت حمايته فأسس بذلك « المملكة » المغولية الأولى وأسند إدارتها إلى حفيده « كابول » الذي خلفه ابن عمه « امباكي » ، ثم ابن هذا الأخير ، كوتولا . اشتد ساعد المغول شيئاً فشيئاً فأقاموا علاقات صداقة « بالكيئات » ، أبناء جلدتهم المنتصين والمتحضرين . ودعي كابول إلى بلاط بكين الامبراطوري فأدهش ضيوفه ، الذين لم يشتهروا برفقتهم ، بتصرفاته الفظة وقابليته النهمة . ولكنه ، على الرغم من الهدايا التي أسبغت عليه ، قد تحسب لكين ينصب له ، وأمر فيما بعد بتقتيل موفدي الامبراطور وانقلب على الكيئات الذين لم يقاوموه ، بسبب انشغالهم بمحاربة السونغ ، المقاومة ضعيفة ، ونخلوا له أخيراً عن بعض المراكز المحصنة في شمالي النهر « سي - بنغ » ، وتعهدوا له بتقديم خراج سنوي من الأبقار والأغنام والحبوب (١١٤٧) . ثم تخاصم المغول وأشقاؤهم التتر ، فتحالف التتر والكيئات وأحرزوا عليهم نصراً سريعاً ، فزالت « الملكية » المغولية في الصراع وعادت القبائل والأحزاب إلى تجزئها الفوضوي .

في هذا التاريخ تقريباً (١١٦٧) ، أبصر جنكيز خان النور في سرادق العائلة المنسوب على ضفة نهر « الاونون » اليمنى . كانت أبوه « ياسوغاي » ، وهو ابن شقيق الخان « كوتولا » ، رئيساً على « الكيئات » في قبيلة البرجيين ، وكان قد اختطف زوجته من بلاد « الماركيت » . حارب التتر إلى جانب عمه وقتل أحد زعمائهم « تاموجين - اوغا » حوالي السنة ١١٥٥ ؛ ثم تدخل في خلافات الكراييت الداخلية وفاز بصداقة خانهم طغريل الذي ساعده على استعادة سلطته على شعبه .

أطلق على بكر أبنائه الاربعة اسم « تاموجين » تخليداً لذكرى انتصاره على الزعيم التتري . ولكن المنية قد أدركته ، على اثر رسم دسه له التتر ، حين لم يتجاوز تاموجين سنه التاسعة . فانترعت مواشيه من ارملة وأبنائه القصر الذين آلت حالتهم الى البؤس والشقاء . اما تاموجين فقد التجأ ، بعد طفولة قاسية وغير مستقرة خلقت فيه جلدأ نادراً ، الى حليف ابيه ، خان الكراييت الذي جعل منه صاحب اخاذه تابعاً له . واثاح له ذكاؤه العملي الفطري ودهاؤه وطموحه ومهارته جبر الشؤون العائلية ، ثم محاولة تجديد الملكية المغولية لمصلحته ، وحمل لقب الخان ، الذي لم يحمله ابوه . هللت له القبائل التي جمعها حوله فاقتاز لنفسه (١١٩٦) اسم « شنكيز خان » الذي جعلنا منه جنكيز خان استمر في استغلال تحالفه المجهدي مع طغريل ، فنظم حملة على التتر ، تلبية لطلب الكيئات ، مما اتاح له جني الالقاب الشرفية الصينية ، ثم اقتص من اعدائه الشخصيين ، واخضع العديد من القبائل المجاورة لسلطة الكراييت . الا ان تعاضل قوة طغريل قد اثار بعض الانتفاضات ولا سيما ثورة بعض القبائل المتحالفة بقيادة رئيس نودي به امبراطوراً (غور - خان) على منغوليا . ولكن الغلبة لمحققت في النهاية لجنكيز خان الذي ساند طغريل . فهزم واخضع ، على التوالي ، « التايديشوت » - الذين تشدهم اواصر سب الى قبيلته - والتتر (١٢٠٢) ، والماركييت ، والعديد من جماعات اخرى دونهم شأناً . لس حينذاك من نفسه القدرة على الانقلاب على الكراييت ، الذين قبلوا بالخضوع له ، بعد ان قتل طغريل ، على الرغم من انتصارهم عليه في معركة ضارية . ثم جاء دور النيان الذين استتبعت هزيمتهم خضوع « الاويرات » ، « الماركييت » ، « المنشقين » و « الكرغيز » (١٢٠٧) وغيرهم .

بعد ان توحدت منغوليا كلها تحت سيطرته ، تولى جنكيز خان ، الذي نودي بها خاناً اعظم (كاهان) ، تنظيم الدولة والجيش وبأمر فتح الدول المتحضرة . بدأ بالصين الشمالية ، مهاجماً السي - هيا (١٢٠٩) أولاً ، وشانغاً بعد ذلك حرباً على الكيئات ستدوم خمساً وعشرين سنة . وقبل ان ينجح احتلال الصين الشمالية ، اندفع غرباً ضد القرا - خيطاط (١٢١٨) وخورازم (١٢٢٠) ، ضاماً الى سلطته كافة المناطق الخاضعة لرقابة هذه الامارة الاخيرة : مناطق ما وراء النهر ، وافغانستان ، والقسم الاكبر من ايران . وارسل اثنين من خيرة قواده الى المناطق الغزوينية ، فاجتاحا جيورجيا واذربيجان واحرقا مدينة همدان ، واصطدما « بالالين » شمالي القفقاس ، واخيراً هزما « الكبشاك » (١٢٢١) وامير « كييف » (١٢٢٢) .

اسس جنكيز خان ، في اقل من عشرين سنة - فهو قد مات في السنة ١٢٢٧ - امبراطورية شاسعة امتدت من بكين الى الفولغا . ثم جاء ابنه الثالث ، « اوغوداي » ، الذي كان قد عينه خلفاً له . وتابع بدوره توسيعها ، فانجز القضاء على الكيئات في مناطق الصين الشمالية الشرقية ، وفتح كوريا ، ودخل في حرب طويلة الامد ضد السونغ سيچي ثمارها خلفه الثاني ، وتولى استعادة بلاد فارس الغربية التي كان قد انتزعها ورثت الامبراطورية الخوارزمية . وبلغ بعض

قواده في اندفاعهم ، جيورجيا وأرمينيا ؛ وارسل غيرهم ضد اوروبا : فان بلغاريا وروسيا الجنوبية واورانيا وبولونيا ومورافيا وهنغاريا وكرواتيا ، وحتى شواطئ الادرياتيكي ، قد عرفت على التوالي ، بين السنة ١٢٣٦ والسنة ١٢٤٢ ، اعمالهم التخريبية وقساواتهم التي لا توصف . اجل ، لقد حملتهم وفاة اوغوداي والتنازع على خلافته على الارتداد الى الورا حتى الفولغا ؛ ولكنهم كانوا قد وسعوا الامبراطورية حتى ابواب اوروبا الوسطى .

وحالت مدة ولاية الخان غويوك القصيرة (١٢٤١ - ١٢٤٨) دون تحقيق فتح الدول المسيحية ، وهو مشروع قد راوده كما يبدو . ثم انصبت جهود الفتح المغولي من بعده على الشرق الاقصى . فتولى ابن عمه « مونكا » (١٢٥١-١٢٥٩) في الدرجة الاولى امر اصلاح ادارة الامبراطورية ؛ الا ان عمله لم يحل دون تفسخها بعد وفاته . وانهى اخوه « كوبيلاي » الحرب ضد السونغ ؛ وتغلب المغول هذه المرة عن الاساليب التدميرية العزيزة عليهم ونهبوا نهجاً جديداً نظموا بوجهه البلدان المحتلة تنظيمًا منطقيًا وحجوا الزراعة ودرسوا المعاضل الادارية الاجتماعية . وبعد انهيار السونغ نهائياً في السنة ١٢٩٧ ، اسس كوبيلاي ، وهو اول اجني سيطر على امبراطورية عمرها ١٥٠٠ سنة ، سلالة « يوان » وتبنى سياسة اباطرة الصين التقليدية . فاجب على اصحاب الاشادات الذين كانوا خاضعين لهذه البلاد ان يخضعوا له ايضاً ، ووطد السيادة المغولية على كوريا ، وحاول تكراراً الاستيلاء على اليابان ، ولكنه اضطر للعدول عن مشروعه بعد ان افتهى احد الاعاصير افراد فرقه الغازية افناء تاماً . ولم يكن اوفر حظاً مع اتام وشيما اللتين فرض عليهما - وعلى بورما ايضاً - حماية غير ذات اثر تقريباً . وتوفق ملك « قاديري » بفضل الحملة التي وجهها على جافا في السنة ١٢٩٣ الى الالقاء بالغزاة في البحر ، فتعاضمت قوته بعمل الانقاذ هذا واسس امبراطورية « ماجا باهيت » .

كان راضحاً من ثم ان الامبراطورية المغولية قد بلغت حدودها القصوى ؛ وكانت الحروب الاهلية ، من جهة ثانية ، قد اندلعت في منغوليا نفسها ، فاضطر كوبيلاي الى تأديب ابنائه جلدته حتى يعيدهم الى النظام . وقد اصبحت بكين في عهده عاصمة امبراطورية شاسعة امتدت حتى الدانوب والفرات . اجل لقد بقيت هذه الامبراطورية تحت سلطة الخان الكبير المقيم في الصين ، ولكن الحكم المباشر في كل « ولاية » اسند الى خان ايضاً ؛ فقد حكم بلاد فارس ، مثلاً ، هولأكو ، اخو كوبيلاي ، (١٢٥٦ - ١٢٦٥) وافراد ذريته من بعده .

لم تخضع الحضارة ، على ما نعم ، خضوع حضارة المغول للمستلزمات
ميزات الحضارة المغولية الجغرافية والاقليمية . فكانت اقامتهم في البورات الشاسعة عرضة لتبدلات قصوى في حالة الطقس : ربيع قصير ، وصيف شديد الحرارة والجفاف وشتاء شديد البرد ؛ وكسحت هذه المساحات ارباع عاصفة لا تصادف في طابعها ما يعيقها . فكان هذا المناخ القاسي قهراً بتقوية صحة الاقوياء ، وبالقضاء على السقاء في سن مبكرة . ولا عجب من ثم

إذا كان الشعب المغولي، سواء أقام في البورات أم في الغابات، شعباً جليداً قوياً الشكيمة. وكان طبيعياً أن تنفض حياة القناصين الشظفة، في مداخل الغابات، أو الرعاة في قلب البورات، إلى تطوير الاجساد وفقاً لمقتضيات البيئة: جذع ضخم وقفص صدري نام فوق سيقان قوسها ركوب الخيل؛ بصر حاد، ورشاقة عظيمة. يأكلون اللحوم ويستهلكون الالبان ويميلون إلى احتساء المسكرات. يتميزون بالمرح والشجاعة، وبوحشية لا توصف أحياناً، وبرهنون في الغالب عن ذكاء ودهاء وحتى عن قابلية للتقيد بالقوانين.

تألفت معظم القبائل من الرعاة. أما القناصون، الذين يحتقرون الرعاة، مع أنهم دونهم تحضراً، فلا يمتلكون ماشية وخيولاً، بل يعيشون من القنص ومن بعض الصناعات اليدوية، كالنجارة والحدادة. يجتذون النمل الخشبية (شانا) شتاءً ويتوكلون على عصي طويلة للسير أو التزلج على الثلج، ويحتذي بعضهم نملاً من العظم الصقيل تساعدهم على التزحلق على الجليد واللحاق بالحيوانات. يبنون أكواخهم من أغصان الشجر ويغطونها بقشور شجرة تعرف بالبتولة، ويستطيعون نقلها جاهزة على العربات.

أما القبائل الراعية، فرغمة، بحسب تقلبات الطقس في البورات وحالة المراعي، على انتجاع الكلاً دورياً وعلى العيش عيشة بدوية. في الشتاء، تنزل القطعان إلى البورات حيث المناخ أقل برداً وتبقى فيها طيلة أشهر الربيع لأن أعشاب البورات آنذاك خير ما تأكله الماشية؛ ثم تعود في الصيف إلى منحدرات الجبال حيث المناخ أقل حرارة. ولأجل هذه الجولات الطويلة يصمم كل شيء في المساكن الوقتية من زاوية سهولة الانتقال. تنضد العربات في دائرة فتؤلف سوراً. أما المظال، التي غالباً ما تبقى جاهزة فوق العربات، فبلى نوعين: بعضها (جير) مستدير ومصنوع من لبد ويركب على هيكل متحرك من قضبان والواح خشبية حول قضيب وسطي يعتبرونه مقدساً؛ ويثبت في اللبد أنبوب صغير للتهوية وتصريف الدخان؛ والبعض الآخر (ميخان) عريض وقليل الارتفاع ويغطي بالصوف، بينما تمتاز مظلة الرئيس بلونها الأبيض أو المذهب.

تجهز العربات الخشبية بحملين كي تنقل، بالإضافة إلى المؤن، بعض الأدوات البدائية كالأوعية الخشبية، والقذور، والدلاء الجلدية، والقرب، والمنافع، وتغطي بلبد اسود يمنع تسرب المياه، ثم تجرها الثيران فتصر وترتج في سيرها على الطرقات. تتكدس فيها العائلات وصغار الحيوانات العاجزة عن قطع المسافات الطويلة سيراً على الأقدام. ثم تليها القطعان التي يحيط بها فرسان يمتطون جياداً صغيرة متشعبة الرؤوس بجهزة بسروج جلدية ليست دون ممتطيها حياة ونزقا. ويختلط في القطعان، التي تهيجها النعير، الاحصنة والافراس والثيران والمعجول والابقار والكباش الداجنة والاغنام والنماج وحتى الابل أحياناً.

لا يتقيد المغول بنظام معين في مأكلهم بل ينتقلون، شأن كافة البدو الرحل، من التفتير إلى الافراط في تناول الطعام. فكل عيد وكل حدث سار مناسبة لاقامة الولائم. يتفدون من لحم

الحصان او الضأن مسلوفاً او مشويا ، واللبن الحائر (ترك) ، والثوم والبصل ، ونوعاً من الزبدة المضروبة في أوعية خشبية بواسطة عصا مجهزة جزئياً بقطعة من جلد ، اما اذا مست الحاجة ، فانهم يكتفون بالغبيراء والعنبيات البرية والجذور الصالحة للأكل . يشملون باحتساء لبن الفرس المختمر (كوميز) ، الذي يحرمون على التزود به اذا ما اضطروا الى السفر عدة أيام متوالية . تشمل نيران المسكر بالزناد وتضرم بالمنافع وتغذى بالاختاء المحففة والاشواك والجذور . قبيل حلول فصل الشتاء ، تنحر الاغنام وتذخر لحوماً مبردة ، ويحفظ كذلك الحليب المحفف المسحوق . ولا يتوفر الطحين الا للقبائل التي تعيش حياة البدو الرحل على طرق القوافل ، كقبيلة « الماركيت » مثلاً .

ومن حيث هم رجال حرب وقناصون وصيادون ورعاة ، فقد اتقنوا استعمال القوس والسهم ، الموضوعة في حقيبة جلدية واحدة شبيهة بتلك التي اعتمدها الغز ، والسيف المعقوف ، والرمح الحديدي . يتعاملون منذ الطفولة على صنع الاقواس والسهم من خشب شجر الدراق او العرعر ويجهزون بها برؤوس من العظم أو من خشب الشربين . ويجهزون بعض السهم برأس حديدي رهيب يحصلون عليه لدى حداثي قبائل الغابات ويطلونه بالسّم احياناً . اما الطرائق السقي يمتدونها في القنص فهي التالية : اخراج الحيوانات من مخبئها ومحاصرتها قبل القضاء عليها ، الاستمارة بالبيزان والشواهد والصقور لقنص الطيور ، استخدام الوشق في قنص الحصان البري والحمار البري والكبش ، او اللجوء الى الجياد والاقواس في مطاردة الايائل والاعوال والظباء . يعرفون كيف يخرجون اليرابيع من الارض بواسطة اداة حديدية وينصبون الشراك للحيوانات ذات الفراء ، ويطردون الذبابة من مأوىها ، ويصطادون بالشباك اسماك البحيرات والانهار ، وتساعدهم في القنص ، كما في الحرب ، كلاب مشهورة بشراستها . فوق المسكر تملق أسراب من غرابان الزرع ، وتطوف حوله ، ليلاً ، الذئاب والثعالب وحتى الأنمر .

بعد اقامة المسكر لقضاء الليل ، ينظم العسس حول النيران ، يلعب العسيس بالكماب او يصغون الى الروايات التي يتناقلها اهل البورات . ويتحول المسكر ، في مكان الاقامة الفصلية ، الى « مدينة » ؛ فيتألف حينذاك من دوائر عربات عديدة ؛ تنصب المظال في الارض ؛ وتؤلف مظال الرئيس وحرمه ، على بعض المسافة من المظال الاخرى ، قصرأ بدائياً يرتبط به ، بالاضافة الى الخندام والعبيد الكثيرين ، قطيع خاص ومراع خاصة . ينصرف المفلو ، في اوقات فراغهم ، الى صنع اللبد والسيور والحبال والدروج وعدد الخيل والجمال والاسلحة والهيكل الخشبية للمظال والعربات ، ويعمدون اخيراً الجلود والفراء .

يعترف تاريخ اليونان السري « بان رائحة كريهة تنبعث من الملابس السوداء اللون السقي يرتديها المفلو » ، ومرد ذلك الى انهم يغطون اجسامهم بالجلود والفراء والى ان الاغنياء بينهم يغطون معاطفهم الشتوية بجلود السماير والثعالب والقواقيم والسناجب ؛ فهم لن يرتدوا الحرير والملسوجات المصنوعة في فصل الصيف قبل ان يفتحوا بسلاخ الصين . يرسل الفتيان والفتيات

شعورهم ويتركونها تتدلى على آذانهم . ويميز الرجال شعر رؤوسهم ما بين الاذنين ويحملونه فوق الجبهة بعرض ثلاثة اصابع بين هديين ، ويجدلون ما تبقى منه ويمقدونه وراء الاذن محتفظين بذؤابة تتدلى فوق الحاجبين . وتعتذر النساء المزوجات قبعة غريبة الشكل مصنوعة من قشور الشجر يبلغ ارتفاعها قدمين صينيتين ، يغطيها احياناً بقمش صوفي ، او حريري ، للدلالة على الثروة ، وتنتهي القبعة بذيل طويل شبه « كيو تشانغ - تشوين » (١٢٢١) بالاوزة او ذكر البطل .

كان هؤلاء المحاربون الجسورون الرواغون في حالة تأهب دائم بغية الدفاع عن انفسهم ضد الحيوانات المفترسة او القبائل المجاورة وكانوا يترصدون بحية المدور الذي يملكون به اذا ما رأوا غنائم الغبار ترتفع في الافق او الصقوا آذانهم بالارض . ويجتمع هؤلاء الفرسان حول راية الحرب التي ترافقهم في كل المعارك والتي هي لهم موضوع عبادة . يعتمدون على مطايا ليست دونهم قوة - تكتفي باعشاب البورات - ويعرفون كيف يدارونها ، ويستطيعون الحصول منها على اكبر مجهود ممكن اذا ما استعملوا معها السياط : فالحصان رفيق الانسان ، وتضفي عليه الروايات المغولية شخصية حقيقية . بتدريج المغول ، للاعمال الحربية ، بلباس وقاية من الجلد المسلوقة ، وينفضون على الاعداد انقضاض الصاعقة ، ولا يترفقون بالحياة البشرية . وهم بالاضافة الى ذلك نبالون يخيفون ، بل « امهر النبالين المعروفين في العالم » كما يقول ماركو بولو . لتحمل جيوشهم المتمودة حياة الصحراء ، بقدرة نادرة على تحمل المشاق وتكتفي بلبن الفرس ، الذي يشربه الفرسان من القرب المعلقة بالسروج ، والعنبيات البرية ، والطرائد التي يقتنصونها في رحلاتهم . يسهرون وينامون على سهوات خيولهم ، ويقطعون مسافات طويلة دون توقف . ويستطيعون اذا ما نفذت مؤنهم ، تأمين معيشتهم لمدة عشرة ايام ، بامتصاص دم جياهم ، التي يفتشون احد عروقها ثم يشدونه بمشاقصة الحرير او الكتان ، او باذابة بعض الحليب الجفلف في قليل من الماء .

يمتصمون ، اذا ما فوجئوا بهجوم ، وراء عرباتهم الخفاة بالدغال : او يهربون ويرشقون مهاجمهم ، اثناء هربهم ، بالسهم ، لانهم يتقنون الالتفات نحو ردف جوادهم السائر بهم بسرعة : وقد اعتمد الغز والفارتيون هذه الطريقة الخفية من قبلهم . يلجأون بسهولة الى خدمات الجواسيس والجنود المتتبعين بهم من الاعداء ، ولا يرون في الحرب سوى ظرف للتفتيل والسلب والنهب . يخضعون الاسرى لاعذبة وحشية : ولا يستفيد من عقوبة الموت خفناً ، بدون اراقة دماء ، سوى اولئك الذين يكونون لهم بعض الاعتبار ، لانهم يعتقدون بان الروح تقيم في الدم . ولما كانوا ، شأن كافة البدو الرحل ، لصوصاً ونهابين وقطاع طرق ، فانهم يأتون باستمرار احوالاً ثائرة لا يكفر عنها ، مبيدين هائلة بكاملها دونما تمييز ، مستولين على المواسي ، مخربين المواد والادوات ومضرمين النار في مراعي اطراف النزاع المغلوبة على امرها . وتوزع غنائم الحرب ، شأن الطرائد المغتنمة ، بين الرؤساء والقادة والمحاربين .

المجتمع المغربي خضع المجتمع البدوي ، في هذا العالم المهدد بالاختطاف ، خضوعاً مبدئياً على الأقل ، الى تسلسل سلطة منظمة جداً يؤلف التكتل داخل القبيلة عنصرها الاساسي ، وهو يضم العائلات المنحدرة من جد واحد التي يعتبر جميع اعضائها بان ما يجمعهم هو صلة النسب الشرعي . يحظر من ثم اختيار الزوجة من التكتل نفسه ؛ ولما كانت صلة القرى من جهة الاب قد شملت ، بسبب المتفرعات العائلية ، عدة تكتلات مجاورة ، توجب البحث عن الزوجات من التكتلات التي لا جد مشتركاً بينها وبينهم ، والتي غالباً ما تكون مع مواشيها في مراعي نائية جداً ، وغالباً ما يبحث رجال تكتل معين عن الزوجات في التكتل نفسه الذي لا تشدهم اليه اواصر القرى . ولذلك فان العناية ببذل في نقل حقيقة روابط النسب ، شفياً ، من جيل الى جيل . ويرافق هذا الزواج من الغريبات تعدد الزوجات ايضاً ، الا ان الزوجة الاولى تعتبر ابداً الزوجة البكر او الزوجة الرئيسية . اختطاف الزوجات عادة دارجة غالباً ما تؤدي الى اعمال ثأرية . وقد يحدث ان يكون الزواج موضوع مفاوضات بين العائلات - ويكون اذ ذلك تكلمة مفيدة للتحالف بين التكتلات - ، فاما يهب الآباء ابناهم قبل سن البلوغ بزمين طويل ، فيذهب الخطيب في هذه الحالة ويعيش في عائلة عروسه ، واما يتفق اليافع مع اهل الفتاة فيبادلها الهدايا - عجل او جلود سمير سوداء - ويدفع لها فدية ، في حين تقدم العروس ، بالاضافة الى مهرها وخدامها ، هدية تعدها والدتها لحماة ابنتها .

العائلات كبيرة ابدأ ، وولادة الصبي حدث سار جداً ؛ يطلقون على المولود الجديد اسم اول شيء وقع عليه نظر امه بعد الوضع ؛ ثم يسبقون عليه بعض الهدايا : دثار ، وفراش من جلد السمير ، وقمط مبطن بالفرور . كل الاولاد ، حتى اولاد النساء الثانويات ، يعتبرون شرعيين ، ويعاملون معاملة الاخوة والاسخوات ويربون معاً تربية واحدة . يضاف اليهم اولاد التبنين من الايتام ، والمخدولين ، والمفقودين ، وحتى من ابناهم الزنى ؛ بيد ان ابناهم الزنى الذين يشبه بانهم ينحدرون من اب غريب عن التكتل يحرمون من الاشتراك في الذبائح ؛ وطبيعي انهم يقصرون عن التكتل ، فيغرمون في اغلب الاحيان ، على تأسيس تكتل آخر . ولكن الاولاد المتبنين ، وان كانوا غرباء عن التكتل قانوناً ، يتمتعون بالحقوق نفسها التي يتمتع بها الاولاد الشرعيون .

يعيش الاولاد كلهم مع والديهم حتى زواجهم . الا ان الابن الثاني وحده ، حتى بعد زواجه ، يبقى في خباء ابيه ، لانه هو الذي يصبح ، بعد وفاة ابيه ، حارس الدار ، ويرث خبائه وزوجائه والادوات والمواد والمراعي العائدة له . ويتقاسم الآخرون ما تبقى من الاملاك ؛ اما المتبنون فلا يصيبهم سوى قنوة وضيفة ، ولكن البكر يحصل على حقوق خاصة تشده الى عبادة التكتل . وغني عن البيان ان كثيراً من البدو ، حتى في الطبقة الارستوقراطية ، يؤولون الى الاملاق ولا يستطيعون الحصول على نصيبهم من الارث اذا لم ينتزعه بالقوة من انسابهم الاغنياء الجشعين .

ارت للنساء ، اللواتي تعود الاعمال المنزلية اليهن ، دوراً عظيماً جداً في هذا المجتمع : فمن ينصبن ويفككن المطال ؛ ويقدن العربات ويحملن المواشي ويضربن الزبدة ويمعدن الحليب الجلف ويساعدن الرجال في اعداد الجلود وصنع الاحذية وجمع اللبد ويشترين بالمقايضة كل ما هو ضروري للمنزل . ويرافقن القادة احياناً في الحروب ويقمن ايان المعركة باعمال الرجال . ولذلك فان هؤلاء كثيراً ما يطلبون مشورتهم ؛ وقد حفظ التاريخ اسماء من كان لهن اثرهن في مقررات بعض القادة . يضاف الى ذلك ان الامراة ، بعد ترميلها ، تؤمن الوصاية على اولادها الصغر ، وتتصرف تصرفاً مطلقاً بممتلكات العائلة ، وتتولى ادارة المعسكر وتقوم المحاربين احياناً . وقد تقوم اخيراً ، عن طريق اقسام اليمين ، بعض الاخوات ، خارج نطاق العائلة ؛ فقد يحدث ان يعقد رجلاً ، ينتسب ان على العموم الى تكتلات مختلفة ، اتفاق صداقة يوطده بالضرورة تبادل الهدايا ويحتفل به بوليمة ورقصات طقسية ؛ وبعد ان يسبها « اخوين محلفين » ، يلزمان بتبادل المساعدة في شتى الظروف .

يتألف مجتمع المغول الرحل من اربع طبقات متميزة : النظام الاجتماعي قبل الامبراطورية
الارستوقراطية الحاكمة ، والرجال الاحرار او المحاربون ، وعامة الشعب ، والعبيد الذين يشملون ، الى حد ما ، الحادام والصناعيين اليدويين . يختطف العبيد من تكتلهم اثناء حرب خاسرة او غزوة يستلب فيها الفتيان والحياد على السواء ، وينضم الى صفوفهم بعض المساكين الذين يهون انفسهم لتكتل غير تكتلهم ؛ او بعض ابناء عامة الشعب الذين يقدمهم آباؤهم لأحد القادة او احد المحاربين اعترافاً بخدمة مؤداة . يصبغون كلهم جزءاً من املاك العائلة التي تقتنصهم ، ويوزعون مع الاملاك او يدخلون في مهر الفتيات ويرافقون عند ازواجهن . عوديتهم وراثية ولا تزول الا بالاعتاق . وقد يحدث ان تستعبد قبيلة كاملة اذا ما غلبت على امرها ، بينما تخضع قبائل اخرى ، بل ارادتها ، الى قبائل اعظم شأناً . حياة العبيد قاسية ، ولكن عملهم لا يختلف قط عن عمل الحادام الذين ازداد عددهم بازدياد ثروة الارستوقراطية .

تتصرف عائلات عامة الشعب بممتلكات فردية ما عدا المراعي وربما القطعان فهذا يختلف عليه . المشتركة بينها في التكتل . ويرجع انها ملزمة بتقديم بعض الخدمات والاقوات للقادة . المحاربون او « الرفاق » ، وهم شبهيون بمطوعي الجيوش الجرمانية ، يأثرون عادة من تكتل غير التكتل الذي يدخلون في خدمته ، دون ان يفقدوا شيئاً من حريتهم . يمثلون بالطبقة الحاكمة في المجتمع المغولي ويرتبطون بزعيم التكتل او بالنبل المتحكين باتباع كثيرين ، ولكن لهم الحرية في ترك خدمتهم والانتقال الى تكتل آخر دون ان يتهموا بالخيانة . يؤلفون حرس السيد الخاص وينفذون بهذه الصفة المهام الخطيرة الفجائية ، فيختطفون اجل نساء القبائل المجاورة ويستولون على الخيول ويسيرون بها نحو المعسكر ، ويشتركون في الممارك ؛ يعينون قادة على جيش التكتل الذي لا يجند الا في حالة الحرب . يستخدمون كذلك مندوبين

مشتملة بذلك تركيب القبيلة . فهي قد شعرت ، قبل ان يحقق جنكيز خان توحيدها تحت سلطته ، بضرورة الاتحاد تحت قيادة الزعماء الذين يختارهم مجلس القبيلة لفترات معينة ، كالحرب والصيد المثمر مثلاً ، والذين لا يمكن من ثم ان تصبح سلطتهم وراثية .

يؤلف مجموع التكتل ، من الزعيم حتى العبيد ، وحدة وثيقة العرى ، عرفت باسم « اولوس » الذي يعني على وجه التقريب « التراث » او « الملك » . ويملك ارضا (يورت) تسرح فيها قطعانه ويتقوت هو بما هو ضروري لحياته ، ولا يعرف من انواع التبادل سوى المقايضة البدائية . للزعيم يعود امر معرفة المراعي المخصصة للتكتل وحدود اراضيه ، وتحديد مواعيد التنقلات واقامة المعسكر ، وتعيين الطرقات الواجب سلوكها او تجنبها وادارة عمليات القنص لتوفير المواد الضرورية لأود التكتل .

منذ ان ارتقى جنكيز خان الى مقام الخان الأعظم ، النظام الاجتماعي في ظل الامبراطورية توطد التسلسل الاجتماعي ، ولكنه ارتدى في الوقت نفسه طابعاً اقطاعياً : غدت الامبراطورية « الاولوس » المغولي ، و « الشعب - الدولة » ، كما غدت تراث التكتل الامبراطوري . وغدا افراد هذا التكتل ، وكلهم أنساب الامبراطور امراء امبراطورين ؛ فجلسهم هو الذي ينتخب الخان الأعظم ، ولا يحق لأحد سواهم ان يعين خليفة للامبراطور . يطعمون ايضاً في امتلاك « اولوس » خاص بهم ، ويصبون بذلتك اصحاب الأخاذات الكبرى في الامبراطورية ، ويخضعون ، حين التنصيب ، لواجب السجود تسع مرات على ان تمس جبهتهم الارض كل مرة . اجل للخان الحق في ان يسلم كل او بعض تراثهم الذي هو عظيم جداً على العموم : جمهور كبير من السكان ، الاراضي الضرورية لتجولاتهم ، وخصوصاً المداخيل الضرورية لتعهد المنزل الاميري التي توفرها الأتاوات المفروضة على اهمل القرار في البلدان المحتلة حديثاً . وتوزع هذه « الاقطاعات » من جهة ثانية دونما نظر الى التجمع الجغرافي لأن الامبراطورية ، بحسب ذهنية البدو ، واحدة لا تنجزأ .

توزع الاقطاعات ايضاً على خدام الامبراطور الأمناء ومرافقيه وعلى الارستوقراطيين والمحاربين المتفنين وراء الامراء الامبراطوريين الذين يحملون جميعهم اسم الزعيم (نوايان) : وتتألف الاقطاعات من بعض العائلات وما يعود اليها من مراعي وقد تصبح هذه الاقطاعات « اولوس » اذا ما امتدت وتوسعت . يقيم المستفيدون من هذه الانعامات في وسط أتباعهم ولكنهم يستمرون في خدمة زعيمهم مع المهنددين الذين يخضعون لارادتهم ؛ واذا هم ألزموا بالاخراج وبوضع مجنديهم تحت تصرف الامير الامبراطوري واحتفال التنصيب امام الامبراطور ، فان لهم ملء السلطة على مرؤوسيههم ، وينظرون في الدعاوى ، ويوزعون المراعي ، ويتولون ، بالوراثة ، قيادة الجيوش المقسمة ، بحسب أهميتها ، مئآت والوفاء (حتى عشرة آلاف رجل) ، ويحتلون افضل مركز في عمليات القنص ، ويستأثرون بأحسن الطرائد المقتنصة ، ويفرضون اخيراً الأتاوات

وأعمال التسخير على عائلات اتباعهم . وباستطاعتهم تعيين مرؤوسهم العسكريين أيضاً ، فيكتفي الامبراطور اذ ذاك بالموافقة على اختيارهم ، وفرض حاية على بعض المواقع في اراضيهم يدفن فيها



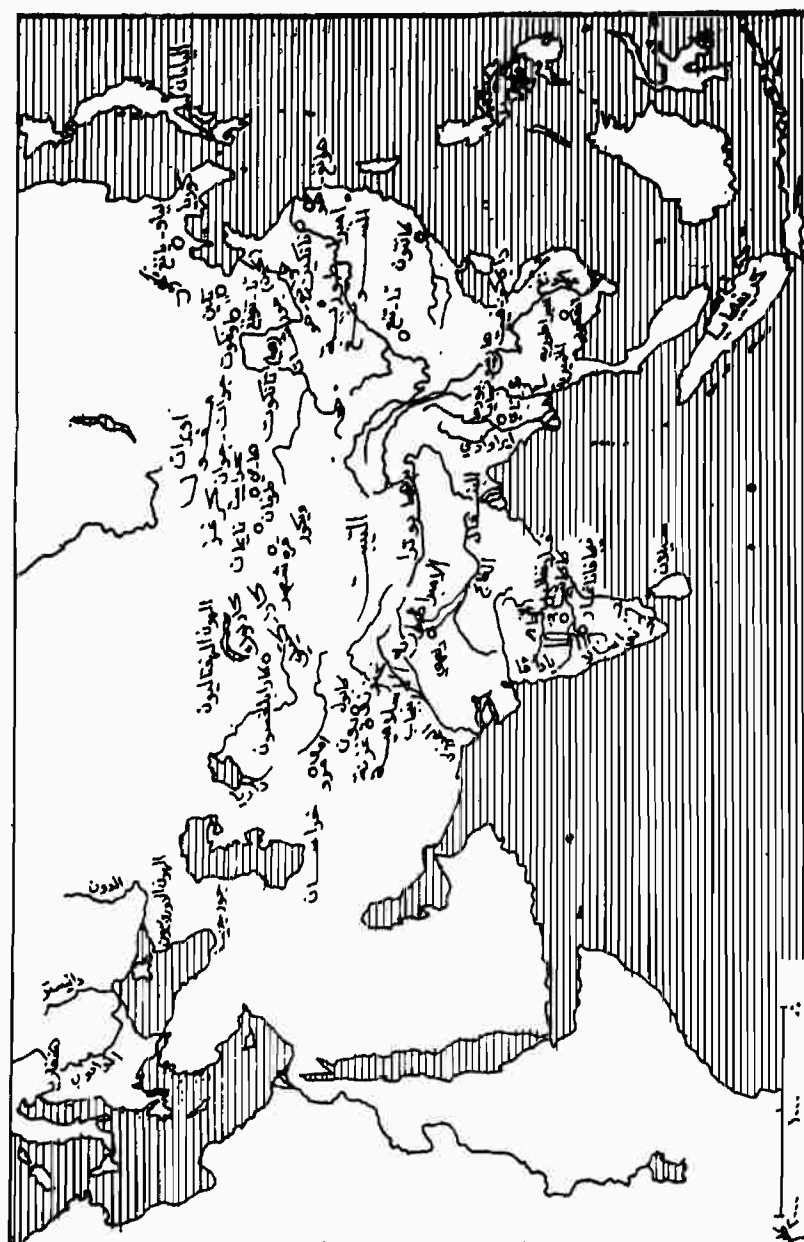
الشكل (رقم ١٢) - الشرق الأدنى واوربا الشرقية في اوائل القرن الثالث عشر
١ - الدول اللاتينية ٢ - الدول اليونانية ٣ - دول البلقان السلافية ٤ - الدول الارمنية والجيورجية

أعضاء التكتل الملكي او تخصص للقنص . الا انهم ، بالمقابلة ، يخضعون خضوعاً عميقاً للامبراطور ولسيد عهدتهم اللذين لا يمكنهم ترك خدمتها كما لا يمكنهم بيع اقطاعهم ؛ اما سيدهم فيستطيع حرمانهم من هذه الاقطاعة وتسليمها لغيرهم ؛ كما يستطيع حرمانهم من قيادتهم العسكرية دون

ان يقبل بأية مراجعة او شفاعة . ولكن مركزهم يكرس رسمياً بكتاب توليصة ، او ببعض
 الالقاب الشرفية - كـ « كلب » حامل الكنانة ، الذي منحه جنكيز خان - او بلوحات فسر لنا
 « ماركو بولو » تسلسلها : للسيادة التي تضم ١٠٠ رجل - أي تجند ١٠٠ جندي - الخلق بلوحة
 ذهبية او فضية مذهبة ، واللوحة ذهبية ابدأ ومزدانة برأس اسد للسيادة التي تضم ألف رجل .
 وتحمل اللوحة كتابة منقوشة تبارك الخان الاعظم وتلان من يمضي أوامره . ولداكي اللوحات
 جميعهم حق بالمظلة في تنقلاتهم ، وبالعرش الفضي عند مقابلة الناس لهم . وباستطاعة أرفعهم مرتبة
 اقتناء جياد لنقل البريد دون اذن صريح من الامبراطور ، ويستفيدون كذلك من الانعامات
 الامبراطورية : الآنية الفضية ، و « السروج الجليلة » ، والجواهر والحجارة الكريمة ، والخيول
 أخيراً ، وهي خير ما يهداه أبناء البورات هؤلاء بعد ان يجمدوا ثروة طائلة . وأضاف كوبيلاي
 الى هذه الانعامات انعاماً أخيراً يمنح مرة كل ثلاث سنوات : لباس ابيه ، وزنار ذهبي ، وأحذية
 من جلد الابل المطرز بالخيوط الفضية ، وكان كل ذلك « مزداناً بالحجارة الكريمة والجواهر وأشياء
 أخرى غالية الثمن عظيمة القيمة » . فلمي كل عيد ، يرتدي الامبراطور وأصحاب الاقطاعات
 الـ ١٢٠٠٠ الذين يشكلون حرسه الخاص ، ثياباً فاخرة كلها من لون واحد .

ان اعتلاء جنكيز خان عرش الامبراطورية لم يغير في الظاهر شيئاً من الاصول
 الخان الاعظم
 المغولية القديمة التي اعتمدها مجلس التكتل في تعيين رئيس لا يتمتع بسلطة
 وراثية . فبعد ان اصبح لتكتل القانج مجلساً امبراطورياً ، بات من حقه انتخاب الامبراطور
 الذي لا يمكن اختياره الا من بين أعضائه . الا ان الوراثة أمست في الواقع امراً واجباً ، بعد
 ان اخذ الامبراطور يعين خلفه بموجب وصية ، - ابنه الثاني بحسب تقاليد المهادل - وهو اختيار
 يوافق عليه المجلس بصورة عامة . ولدي جمعية التكتل ، في هذا « نظارف » ، مظهر احتفالي
 خاصاً استطاع الراهب الايطالي « جان دي بيان كاربينو » رؤيته والاعجاب به في السنة ١٢٤٦ ،
 حين جرى انتخاب « كوبروك » : فبينما تسود المذاكرة في السرايق الامبراطورية ، يجتمع
 الفرسان وأهل المقامات داخل اسوار القصر ، وفي الخارج يلتظرون الحدث حشد عظيم بالاضافة الى
 الجيش الملتف حول اعلامه . وما ان يتم التعيين حتى يقوم اعضاء التكتل بالطقوس التقليدية التي
 توافق كافة الاحتفالات المدنية او الدينية ، يرفعون القبة عن الرأس ، ويحلون الزنار الذي
 يلقونه على الأكتاف ، ويجلسون الملك على العرش المذهب الذي حل محل الطنفسة اللبديّة القديمة ،
 ويحيونه بلقبه الجديد . ثم يقدمون له الخضوع ساجدين أمامه تسع مرات بحيث يمس رأسهم
 الأرض ، فتحذو حذوهم جماهير المنتظرين في الخارج . وبعد اقسام الايمان الاحتفالية وتقديم
 الذبائح الحيوانية (فحول وحجور) ، يبدن الامبراطور عهده بتوزيع الالقاب والمرتبات
 والدرجات الرفيعة على خدام الامبراطورية الممتازين .

حين بلغت السيطرة المغولية أقصى حدودها ، نظمت حياة الخان الاعظم ، مستقرة كانت
 ام ثقيلة ، تنظيمًا دقيقاً جداً . فخلال أشهر الامطار الستة ، أي من ايلول الى شباط ، يقيم في



الشكل (رقم ١٣) - آسيا في عهد جنكيز خان

قصره في بكين ، حيث يحتفل ببدء السنة الجديدة في شهر شباط . ومن آذار الى لوار ، يلتقل المسكر الامبراطوري الزاهي الى القنص بواسطة الشواهين . بعد العودة ، لا يقيم الامبراطور في بكين سوى ثلاثة ايام يحتفل خلالها بأعياد كبرى ، ثم يذهب لقضاء فصل الحر في مقره الصيفي « شانغ - لو » ، في قصر من الخيزران . فالبون شاسع بين هذه الحياة المتفخلة وشطف العيش والاضطراب في المعسكرات المغولية القديمة . 'يقام الى جانب المسكر الامبراطوري ، الذي يضم مظال لا تحصي لأهل المقامات وعائلاتهم واخرى تجمع فيها الأسلحة والسروج والشواهين ، معسكر آخر خاص بزوجات الملك ، « الوردوس » ، له خدماته ومراعيه الخاصة . وتقوم بجانب المظلة الامبراطورية الكبرى ، وهي أنفس المظال اطلاقاً ، مظلة اخرى يستخدمها الملك مسكناً له ؛ يحرس مدخلها باستمرار ، وهو ابدأ الى الجنوب ، اسيد من المراتب الرفيعة . تغطي مجلود الاثمن وتفرش جميع اقسامها الداخلية ، بما فيها العوارض الخشبية ، مجلود القوائم والسماير ، وتشد فيها حبال حريرية ، وتستخدم لاستقبال السفراء الأجانب - كغليوم دي روبروك في السنة ١٢٥٣ ؛ يجلس فيها الامبراطور على سرير مذهب يصمد اليه بثلاث درجات ، ترافقه زوجته الرئيسية ويحيط به كبار موظفيه الذين يجلسون بحسب مرتبتهم .

كل اجتماع هام وكل عيد مناسبة لوليمة . وقد وصف لنا تنظيمها ماركو بولو : يجلس الامبراطور باتجاه الجنوب امام الطاولة العليا ، وتجلس الى يساره امرأته الاولى (اليسار عند الصينيين هو المقام الاول) ؛ يجلس الامراء الامبراطوريون الى اليمين امام طاولات أدنى ارتفاعاً ، بحيث لا يتجاوز رأسهم اقدام السيد الاكبر ، ؛ ويجلس الاسياد الآخرون امام طاولات اقل ارتفاعاً ايضاً ؛ وتجلس الى اليسار ، وفقاً للتدريج نفسه ، زوجات الأمراء والاسياد ، بحيث يستطيع الامبراطور رؤية جميع مدعويه . يوضع على طاولته اثناء ذهبي كبير يفترق منه النبيذ بأكواب من الملك الصيني المذهب ويستكتب في أكواب اصغر حجماً ، ملأى بالتوابل ، يفترق النبيذ من كل منها مدعوان . يؤمن خدمة الخان اسيد عظام بسر أنفهم وفهم حجاب حريري مذهب ، فيقدمون له اصناف المأكول والمشرب . تزن الآلات الموسيقية حين يهيم بالشرب ، فيجثو كافة الحاضرين الى ان يشفي غلته .

لنذكر بين الأعياد البارزة في حياة البلاط عيد الذكرى السنوية لجلوس الامبراطور الذي يرتدي ، مع كبار موظفيه ، الثياب المذهبة ويتقبل الفرائث والهدايا المبلية من رعاياه . ولندكر خصوصاً عيد رأس السنة الجديدة الذي يحتفل به في شباط ؛ ترتدي البسلاذ كلمة بيضاء ، والبياضلون يتيمن به المغول - مع انه سيصبح لون الحداد عندما تتولى الحكمة سلالة المنغ . يحاط الامبراطور في هذا العيد بأفراد عائلته ويستقبل صفوف اصحاب الاخاذات ابتداء من الامراء حتى المنجمين ومن كبار الاسياد حتى الاطباء والقناصة . تقدم له الهدايا التي يتبادلها الجميع في ذلك النهار ؛ وتقدم له كذلك ، في هذه المناسبة ، الجزى المفروضة على البلدان المحتلة : الاحصنة من تركستان ومنغوليا ، والقبيلة من الهند وشها والابل من خراسان ، والآنية الذهبية والفضية .

كل فرد يقدم الخضوع بدوره للامبراطور ثم يبخر اللوحة الذهبية الحاملة اسمه والموضوعة على طاولة أشبه بالمذبح . وتلي المأدبة التقليدية ألعاب المشعوذين لتسليّة الحضور .

يتلّى الامبراطور بلعبة الكرة الهوائية التي يشترك معه فيها كبار موظفيه ، وبمعاقة المسكرات ساعات طويلة يتخللها عزف الموسيقى ؛ ولكن لهُو الاول هو القنص الذي يخضع لنظام دقيق ويشترك فيه الوف الضباط و يروض لاجله ٥٠٠ باژ وصقر وشاهين ، بالإضافة الى الحيوانات السوروية الصغيرة التي تروض لاجل قنص الطرائد الكبيرة ، والى اسراب كلاب الصيد التي يتعمدها بعض كبار الاسياد لخدمة الامبراطور . ويخضع لهذا النظام كذلك اطلاق الشواهين واسترجاع الطيور المفقودة والتعمد بالبحث عن الاشياء الضائعة . يسهم الامبراطور بالقنص من على ظهر فيله ، في حمل هو له بمثابة غرفة اثناء تنقلاته . وعلى كافة سكان المنطقة ، المسموح لهم باقتناص الطرائد باستثناء الايائل واليحمير ، طيلة الشهرين او الثلاثة اشهر التي يستغرقها القنص ، ان يقدموا للامبراطور حصيلة اقتناصهم .

اعدت المدافن الامبراطورية منذ جنكيز خان في منحدرات جبل « كنتاي » المقدس ؛ ينقل جنائز الخان الميت اليها في موكب جنائزي طويل يسير ببطء في المسالك حتى قلب البلاد المغولية القديمة . وعلى غرار ما درج عليه الغز والصينيون ، يقتل جميع المارة الذين يصادفهم الموكب . فهل نحن امام طقس من طقوس الذبائح طالما يرافقه ذبح الخيول ايضاً ؟ ام اننا ، كما يزعم رشيد الدين ، امام تدبير احتياطي للمحافظة ، ما امكنت المحافظة ، على سر وفاة الملك ؟ مهما يكن من الامر ، فان الهزيمة التي اودت ، كما يبدو ، بحياة ٢٠٠٠ ضحية اثناء جنازة « مونكا » تذكرنا تذكيراً غريباً بطقوس « مدافن العربات » في عهد اولئ التاريخ المعروف .

قبل ان ينظم جنكيز خان جيشاً امبراطورياً ، قامت الحرب عند المغول الجيش والحرب على اكتاف السكان المسلحين والجنود المحترفين معاً . وقسم رجال التكتلات ، برئاسة زعمائهم القبليين الى فرق محاربة وفرق مساعدة ، يضاف اليها ، حول الرئيس ، فرقة مختارة قد تضم الف رجل . اما المحاربون المحترفون ، الى اي تكتل انتمسوا ، فيحيطون بالحرس القومي او يوضعون احياناً ، بحسب مقتضيات الظروف ، تحت امرة هذا القائد او ذاك .

اساعد جنكيز خان نفسه ، في البدء ، بحراسة متواضعة - ٧٠ رجلاً فقط - وتولى في الوقت نفسه القيادة العليا لكافة وحدات الجيش المغولي . ثم اضطره توسع الامبراطورية وتعدد حملات الفتح في المناطق النائية الى وضع تنظيم ثابت حازم . فوزع السكان الذكور ، اعداداً للتمسبة ، عشرات ومئات والوفاء ، ثم وحدات يضم كل منها عشرة آلاف رجل . ورفع الحرس الامبراطوري كذلك الى عشرة الاف رجل يحمون جميعهم من بين ابناء الاسياد والاحرار البواسل ؛ واختارهم الخسان نفسه ، بالاستناد الى صفاتهم الجسدية وشجاعتهن ، من بين المهندسين المتطوعين - « لا يجوز لاحد الاحتفاظ بمن يريد الانضمام الى الحرس » - الذين يقدمهم اصحاب الاخذات

وفاقاً للقاعدة التالية : « اخ » عشرة رجال لقائد الالف ، اخ وخسة رجال لقائد المائة ، اخ وثلاثة رجال لقائد العشرة ، على ان تؤمن كل من هذه الفئات ، بالإضافة الى ذلك ، احصنة مجنديا وُعددهم . على عاتق هذه الوحدة المختارة ، التي يشكل ١٠٠٠ من خيرة رجالها مقدمة الجيش اiban الحرب ، القيت واجبات دقيقة دائمة . فهي توزع على الشكل التالي : الف عاس والـ « حامل كنانة » ، وحراس نهاريون وحراس مائدة وحراس مظلة وامراء اخور . يخدمون مناوبة طيلة ثلاثة نهارات وثلاثة ليال متواصلة . لا يستطيع احد دخول المظلة الامبراطورية اذا لم يرافقه رجال الحراسة ؛ ومن واجب هؤلاء ، منذ الفسق ، القاء القبض على كل من يحاول الاقترب منها ؛ ويعاقب افشاء عدد الحراس وموعد ابدالهم بغرامة عينية : ملابس وجـواد مجهز بكامل عدته . وتتراوح العقوبات ، التي يحكم بها الامبراطور نفسه ، بين الضرب المكرر بالعصا وقطع الرأس . اما التخلف عن الخدمة فيعاقب بثلاثين ضربة عصا في المرة الاولى ، وسبعين في المرة الثانية وبالنفى اخيراً في المرة الثالثة . واكن الحراس استفادوا من امتيازات تموض عن هذه العبوديات . فالحارس البسيط يقدم على قائد الالف ؛ واذا ما تنازعا فالقائد هو من يعاقب .

اهتم الحكام ، في هذه الدولة التي بقيت عسكرية بدوية ، بالجيش والحرب فوق اهتمامهم بالمسائل الاقتصادية والعقائد الدينية . لذلك فان المصادر الادبية الحافلة بالنصائح المسداة للجنود ترفع النقاب عن الاساليب الحربية الخاصة بالشعوب البدوية ؛ يشدد فيها على العناية بالطبول والرماح ، وحراسة الاعلام ، وسلامة العربات والمظال ؛ كما يشدد على ضرورة الاقتصاد في المؤن اiban المعارك وعلى حصر انتجاع الكلأ الضروري لتموين الجيوش ، وعلى عدم اصطحاب الاحصنة الهزيلة الماجزة عن تسلق الجبال او اجتياز الانهر ، واخيراً على تخفيف عدة الحصان بالاستغناء عن كل ما هو مزعج او ثقيل ؛ يجب ان لا تضايق الانفار الركوبة وان لا يترك الفارس الاعنة منسدلة .

والامبراطور هو الذي يقرر موعد الذهاب الى الحرب بالاستناد الى رأي منجميه ، ويرسل ، قبل هذا الموعد بيومين ، بضع مئات من الفرسان الكشافة . لا تزال القوة خفيفة ، اذ ان الجندي لا ينقل سوى قربتين ملأين بلبن الفرس الرائب ، وانا خزفي لطهي الطرائد التي قد يقتنصها في الطريق ، ومظلة فردية صغيرة تقيه من المطر ، ويعلق كل ذلك بالسرّج . فجميع الاحتياطات متخذة اذن لتأمين سهولة تحرك الجيش . وهذه السهولة هي ما جعل المغول يتفوقون على اعدائهم واحداث ثورة في فن الحرب شبيهة بتلك التي حدثت في القرون الوسطى واعطت الاولوية ، في الغرب والشرق الادنى على السواء ، لكتائب الفرسان الثقيلي التسلح . وهي ايضاً ما اوم العدو ، الذي يهاجمه فجأة نبالون خفيفو الحركة ، بانه امام جيش لا يحصى له عد . اجل لقد فاق عدد الجنود المغوليين ، وقد ضم شعباً كاملاً تحمل السلاح ، عدد الفرسان الغربيين ، الموزعين وحدات صغيرة ، الذي لم يتجاوز ، الا في ظروف استثنائية نادرة ، عشرة آلاف محارب . ولكن

ما نعرفه عن الفارات الصاعقة التي شنها المغول على تركستان والشرق الأدنى وأوروبا يحملنا على الاعتقاد بأن الذين اشتركوا فيها لم يتجاوزوا عشرين أو ثلاثين ألف رجل دفعة واحدة. وقد بلغ الجيش المدد للحرب ، حين وفاة جنكيز خان ، على ذمة رشيد الدين ، ١٢٩٠٠٠ رجل خصص منهم ٢٨٠٠٠ لحراسة الامبراطورة والامراء الامبراطوريين ووزع الباقون ثلاث وحدات في الوسط والشرق والغرب . وحين يتكلم المؤلفون الشرقيون والرحالة الغربيون ، في عهد لاحق ، عن جيش مؤلف من ٥٠٠.٠٠٠ رجل كوحدة غازية قليلة العدد ، وحين يشيرون الى ان الامبراطور يحمل قواد العشرات والمئات والالوف ولا يصدر او امره المباشرة الا لقواد وحدات المائة الف ، فان هذه الاعداد غير جديرة بالتصديق اذا لم ندخل فيها فرق المهندسين المبعثين في البلدان الخاضعة للسيطرة المغولية ، وهي فرق لا قيمة لها ولا تنقل الى مسافات بعيدة. ونحن نعلم من جهة ثانية ان وحدات الفرمان قد بقيت اهم وحدات الجيش ؛ فان سرعة تحركها وخدماتها الكشفية والجاسوسية الممتازة ، وغوينها عبر مساحات شاسعة شبه صحراوية قد فرضت الاكتفاء بمهندسين اقل عدداً - واعظم تفوقاً - الى حد بعيد من كل ما استطاعت تعبئته آنذاك الامبراطوريات والملوكيات المتحضرة .

يبدو ان المغول قد تعودوا أساليب اعدائهم الحربية ، وانهم قبلوا في الدرجة الاولى بالمعركة بين جيشين متقابلين . ولكننا لا نعلم الشيء الكثير عن تقنية المعركة نفسها . اذ ان مصادرنا لا تصف لنا سوى نوع من قانون مثالي يفرض الاقتراب « في الاعشاب الكثيفة » واعداد الجنود للمعركة « بشكل بحيرة » ، وشن الهجوم بغية اختراق صفوف الاعداء « كالثقب » . يعتلي الخان مرتفعاً يراقب منه حركات الجيوش ويتسم قواه ثلاث وحدات : أقلها عدداً يوضع تحت قيادته المباشرة ويتألف من اشد المحاربين مقاومة وبشكل الوسط ؛ وتنتشر الوحداتان الرئيسيتان على جانبي الوسط يميناً وشمالاً ، أي شرقاً وغرباً ، لأن المغول يتجهون أبداً الى الجنوب . قبيل المعركة التي تعطى اشارتها بدق طبول الخان ، ينشد المحاربون « ويعزفون على آلة شجيرة ذات وترين » (ماركو بولو) . لا تدور المعركة الا في النهار ، وتتوقف في الليل ، ولكن ذلك لا يفيدنا شيئاً عن مراحلها الفنية . الا ان اعتماد الآلات الحربية الشبيهة بالغرف المستطيلة التي تصنع من الاخشاب وتنقلها الفيلة ، لا تخلو من الدلالة . يتباهى ماركو بولو ، بما عرف عنه من غرقة ، بانه واعمامه قد عدوا ضباط كوبيلاي ، استهمل المنجنيق الذي اتاح في السنة ١٢٧٣ دخول سيانغ - يانغ على الهان السفلى ، بعد حصار دام خمس سنوات . اما نحن فنرجح ان مثل آلات الحصار هذه قد احضرها مهندسون مسلمون آتون من بلاد ما بين النهرين .

لم يتصور المغول ، شأن أمثالهم من البدو الرحل ، قانوناً غير قانون القبيلة التنظيم الداخلي وانتجاع الكلاً ، فاحتقروا اهل القرار ولم يفكروا الا بتدمير قراهم وتخريب حقوقهم . الا ان فتوحاتهم جعلتهم يحاطون أناساً تفوقوا عليهم حضارة ، فأحسنوا صنماً أحياناً بالاصفاء اليهم . وهكذا فان جنكيز خان قد صادف ، في السنة ١٢٠٤ ، كاتباً تركياً في خدمة

زعيم « النيان » يتكلم ويكتب لغة « الويفور » ؛ عندما وقع في الاسر حاملاً خاتم سيده - مما أثار دهشة الفاتحين البرابرة - استخدمه جنكيز خان، فحررت وثائقه الرسمية، منذ ذلك التاريخ، باللغة التركية الويفورية . ثم اسندت اليه مهمة تهذيب أبناء الامبراطور وتعليمهم الكتابة الويفورية، المشتقة من الكتابة السريانية، التي سكتشتق منها الاحرف المغولية . ثم الحق به شخص آخر كرايتي الاصل « ويفوري » الثقافة ايضاً؛ فاسندت اليها اعمال ديوان الامبراطورية الذي قسم بفضلهم شيئاً فشيئاً الى دوائر ، وما لبث ان شمل « الدوائر الصينية » بغية ادارة امبراطورية واسعة الاطراف .

نمت هذه النواة الادارية وتجهزت في عهد اوغوداي ، لا سيما بفضل وزيره وصديقه الكيتاني « يي - ليو تشو - تساي »، وهو رجل عالي القدر لم يلبث ان اخذ بالحضارة الصينية . فأضيفت الى الدوائر المغولية والصينية مصالح اخرى تانغوتية وفارسية . فقسمت أراضي الامبراطورية أقساماً ادارية ، كالمقاطعات العشر في المنطقة المحتلة من الصين مثلاً . وبذلت المحاولات اخيراً لتحديد أراضي التجول والمراعي لكل قبيلة مغولية . وأقرت في الوقت نفسه ، على أسس نظامية ، الميزانية التي قامت على نوعين من الواردات : عشر نقدي يدفعه فلاحو المناطق المتحضرة من اصل مواسمهم ، واقتطاع رأس من كل ١٠٠ رأس ماشية فرض على الرعاة . وفي سبيل تأمين الجباية بسرعة احدث جنكيز خان هيئة من المفوضين الامبراطوريين ، استطاعت استخدام البريد الامبراطوري ، ثم اعاد اوغوداي تنظيمها ، ولكنها لم تعيش طويلاً .

في عهد كوبيلاي ، الذي اصلح الطرقات وخانات القوافل وزرع الاشجار الظليلة على جوانب المسالك ، أثار ت خدمة البريد هذه اعجاب ماركو بولو . ولما كان المؤرخون قد اتخدعوا منذ ذلك التاريخ بمواهب المغول الادارية وعبقريتهم التنظيمية ، يجدر بنا هنا ان نصف هذه الخدمة وصفاً موجزاً : فالطرقات والمسالك تسمح للسعاة بنقل الاوامر بسرعة حتى أقاصي حدود الامبراطورية . تقوم على مسافات معينة - من ٢٥ الى ٤٥ ميلاً - محطات يوجد فيها على الدوام ساقية ، وهداة ، ورباطات ، وقطيع غنم ومخزن حبوب لتموين المسافرين ، بالإضافة الى مبيت مجهز خير تجهيز ، معدة لكبار الموظفين من ناقلي الاوامر الامبراطورية . واذ كانت بعض المحطات الهامة تتسع لأربعمائة حصان ، أمكن القول بأن أكثر من ٣٠٠.٠٠٠ حصان كانت من ثم موزعة على الطرقات ، يقدمها كلها ويتمهدا - الا في المناطق الصحراوية حيث يأخذها الخان على عاتقه - اسياد المناطق وملاكوها . وقامت بين المحطة والمحطة ، كل ثلاثة اميال ، قرى او مراكز سعاة ينقلون ، سعيًا على الاقدام ، الرسائل والمواد الغذائية و « الأشياء الغريبة الاخرى » المبعوث بها الى الامبراطور؛ كان هؤلاء موظفين ذوي اجور معين من الضرائب على غرار أغلبية الضباط الامبراطوريين ، يراقب تنقلاتهم كتبة مقيمون في كل مركز . اما السعاة المفرسات السرعة الذين يحملون ابدأ اللوحة الامبراطورية التي تسمح لهم بمصادرة الركائب ، فكانوا ينقلون الاوامر العاجلة الى الأماكن البعيدة .

وإذا نسبت الى اوغوداي ايضاً بعض اشغال المنفعة العامة ، كحفر الآبار في المناطق الصحراوية تسهيلاً لاجتيازها ، فان الادارة قد تنظمت تنظيمها نهائياً في عهد كوبيلاي . ولكن الحان كان آنذاك ، في الدرجة الاولى ، امبراطور الصين ، لذلك كانت طرائقه صينية وموظفوه الاداريون صينيين . وفي الواقع اسندت ادارة الامبراطورية ، المقسمة الى ٣٤ مقاطعة ، الى اثني عشر وزيراً صلياً من عظام الاسياد يقيمون في احد قصور بكين ويعنى كل منهم بنوع مسن الشؤون ، ويختارون بدورهم حكام المقاطعات ، ويؤلفون اخيراً محكمة عليا حيث يعاونهم قاض وعدد من الكتبة لكل مقاطعة ويتخذون قرارات مطلقة في الشؤون العسكرية ويحددون عدد الفرق الواجب تجهيدها ويصدرون ، في الدعاوى الهامة ، احكاماً مبرمة ، باستثناء الحالات الخطيرة التي تعرض على الامبراطور للفصل فيها .

اما تنظيم القضاء في المقاطعات فأكثر تعقيداً اذ ان ثمة محكمة اولية تسوّي الخلافات في كل معسكر ، بينما يمارس الاسياد سلطة قضائية في اقطاعاتهم ، وتلثم في الاولوس محاكم خاصة يرؤس كلا منها قاض كبير . ويبدو ان السرقة أكثر الجرائم تكراراً في المسالم المغولي . وهي تعاقب بحسب أهميتها اما بضربات العصي - من ٧ الى ١٠٧ - واما باعدام تراق فيه الدماء ، الا اذا استطاع السارق دفع تسعة اضعاف قيمة المسروق .

امام صعوبات التموين في امبراطورية على مثل هذا الاتساع ، اضطرت حكومة كوبيلاي ، أكثر من سابقتها ، الى حصر جهودها في المشاغل الاقتصادية . فأحدثت أفنية كبرى بين بكين ويانغ - تشو ؛ وطافت هيئة من المحققين على المقاطعات للاستعلام عن حاجاتها ؛ وأعفي ضحايا الاوبئة والكوارث الطبيعية مؤقناً من الضرائب ؛ وأعيد نظام قروض الدولة الذي عرفته الصين في أيام السونغ ؛ ووزعت الادارة ، في السنوات القليلة ، الحبوب والمواشي التي جمعها في سنوات الاخصاب ، ومن أدلة سياسة المساعدات هذه تأسيس المستشفيات والمي�م ومستوصفات المعجز ، وتوزيع الاطعمة واللبسة بالهجان ، و'حسانات اليومية في فناء القصر .

كانت الاتاوات والضرائب ، لفترة من الزمن ، كافية لتغذية الخزانة الامبراطورية . وكان للضرائب المعينة أهمية عظيمة : الطرائد الصغيرة والكبيرة ، الاحصنة التي يقدمها الاسياد للبريد والحرس والجيش ؛ المواد الغذائية على أنواعها ، بما فيها البطيخ والعنب ، التي تقدمها البلدان المحتلة . يضاف الى ذلك الضريبة النقدية (فضة) المفروضة على المزارعين المنتهضين ، وضريبة اخرى خاصة (ذهباً) مفروضة على الملح ، ورسوم اخرى على السكر والفحم الحجري المستخرج من جبال الصين الشمالية بكلفة اقل من كلفة الوقود . ويدخل الخزانة أيضاً قسم من الرسوم المفروضة على كافة السلع والجزى المتوجبة على البلدان الاجنبية او التابعة للامبراطورية . فبدت فرة الامبراطورية وكأنها تمتعة بالنفاد ؛ ولكنها تلاشت بالاكثر من المقد الورقي الذي كان ، كما سنرى ذلك ، احد الأسباب الرئيسية لانهار « اليوان » .

فأين نحن اذن من اقتصاد بدائي ساد عالم المغول الذين لم يعرفوا، كما نرجح ، القطع النقدية واكتفوا بالمقايضة البدائية ؟ الا ان بعض تجار تركستان الصيني قد ركبوا الأخطار منذ أوائل القرن الثالث عشر وتوغلوا في منغوليا بغية تبادل الاغنام والابل بحلود السماير والسناجب . اضاف الى ذلك ان قيام الامبراطورية الجنكيزخانية ، بتسهيله جمع الثروات الطائلة في المعسكر الامبراطوري ، قد سمح باعادة فتح طرق المقايضة القديمة المهجورة منذ قرون عديدة بسبب مخاطر المسير في البورات . ولكن منغوليا ليست من أفاد من ذلك ، اذ ان نقل العاصمة الى بكين قد حول التجارة شطر الصين الشمالية . وقد يكون جنكيز خان أدرك بسرعة أهمية طرق الحرير الخاضعة آنذاك لسيطرة الويغور ؟ فنظم ، بالاتفاق مع هذا الشعب ، قافلة كبرى ، مؤلفة من ٥٠٠ رجل حملها من كافة ثروات آسيا ، وأعد لها لاقامة العلاقات التجارية مع خوارزم . فكان الهجوم على هذه القافلة ونهبها ، اللذان نظمهما احد الحكام الخوارزميين ، مصادفة مشؤومة وفاتحة حرب لا هودة فيها استمرت عدة سنوات خربت المغول خلالها تخريباً نهائياً المناطق الغنية التي كان الخان قد رغب في الاتجار معها . اضاف الى ذلك ان الوزير يي - ليوتشو ، حين جاء دور الصين ، لم يتوصل الا بكل صعوبة الى اقناع جنكيز خان بالعدول عن مشروع وضعه ، تحت تأثير ذهنيته البدوية ، لافناء السكان وتقويض المدن والاسواق واعادة المساحات المحتلة الشاسعة الى بورات ومراع للمغول . ولكن فتح بلاد السي - هيا آنذاك (١٢٢٦) قد سمح يجعلها طريقاً رئيسية للقوافل بين الشرق الاقصى والغرب ، بينما كان لا مناص في السابق ، لبلوغ ايران والصين ، من سلوك طريق طويلة محفوفة بالاعطال تمر بمنغوليا العليا . فأثاحت الطريق المباشرة ، المارة بـ « سو - تشيو » و « توان - هوانغ » ، واعادة النظام مؤقتاً الى الربوع المنغولية ، ظهور التجار الاجانب مرة اخرى في آسيا العليا وبلوغهم الصين .

كان استثمار السكان استثماراً منسقاً . ينظم في هذه البلاد الأخيرة ، كلما امتد الفتح المنغولي ، فكر الأسياد المغول ، الذين غدوا من كبار الملاكين في البلاد المحتلة ، باقراض الصينيين ، بفوائد مفرطة ، الأموال التي انتزعوها منهم ، وذلك بالاتفاق مع تجار جلعهم من المسلمين ، أسسوا نقابات وشركات مصرفية ، وقاموا بدور الوسيط لاقناع الأسياد بالموافقة على القروض للصينيين . الا ان هذا النظام ، الذي جنى منه « تجار الاموال » المكاسب الرئيسية ، قد ألغى رسمياً في السنة ١٢٩٨ : فان السكان الصينيين ، الذين عوملوا منذئذ معاملة المغول ، قد حصلوا على ضمانات قانونية ضد الفوائد الجائرة التي تتقاضاها النقابات الاسلامية وضد مصادرة نساء المدنيين واولادهم . ولكن هذا التشريع لم يأت بالنتيجة المتوخاة ، فاقتضى اقرار تشريع جديد في السنة ١٣٠١ والسنة ١٣٠٢ ضد استثمار استهدف الفلاحين والصناعيين اليدويين ، لم يحل دون انطلاقة التجارة الكبرى . ويبدو ان نشاطات المقايضات هذه قد بلغت ذروتها في عهد كوبيلاي ؛ او ان ما يجوز قوله فيها هو ان ماركو بولو قد افقتن آنذاك بمشاهدتها .

في الصين الوسطى مخمرت السفن الشراعية نهر « اليانغ - تسو » وسار غيرها في القناة الكبرى ، التي رملها واكملها كوبيلاي ، لتموين بكين بالارز والحرير الضروري لانتاج اقمشتها الموشاة بأشكال الزهور ومنسوجاتها التي تتخللها الخيوط الذهبية ، ومنسوجاتها الحريرية الملساء ؛ وقد صدرت تشنغ - تو ، في الغرب (سو - تشوان) الحرائر الصينية حق اواسط آسيا . وانتشرت على السواحل البحرية مرافئ عجت بنشاط منقطع النظير ، فكانت « يانغ - تشيو » ، سوق الارز الكبرى ، وكانت « هانغ - تشيو » ، حيث عاشت النقابات عيشة الامراء ، مستودعاً للسكر وصدرت الحرائر الى الهند والعالم الاسلامي ؛ والتجرت فو - تشيو بالتوابل والحجارة الكريمة التي قامت اهم اسواقها في « تسويوان - تشيو » بينما اشتهرت منطقة « فو - كيان » بصناعة الاواني الصينية . فتوافد التجار الاجانب على الصين من عرب ، وفرنس ، ومسيحيين شرقيين وغربيين ، وهنود وماليزيين ، فاسسوا مستعمرات حقيقية وجمعوا ثروات طائلة من بيع توابل جاوا والهند برباح مرتفعة جداً . وبفضل المعاهدات التجارية التي عقدها كوبيلاي مع « راجوات » الهند الجنوبية ، ولا سيما راجوات ترافنكور وكرثات . وقصد التجار الصينيون بدورهم المناطق النائية كي يبيعوا فيها الحرير الخام والمنسوجات الحريرية ويستحضروا منها التوابل والاقمشة الموصلة والمنسوجات القطنية والحجارة الكريمة .

نشطت العلاقات التجارية ، برأ وبحراً ، مع ايران ، حيث تولت الحكم آنذاك عائلة هولوكو المغولية ، التي صدرت الطنافس والسروج وآلات الوقاية المدنية والادوات البرونزية والاراني المزدانة بالمينا . وما الاثر الصيني البارز في التزاويق الفارسية سوى نتيجة هذه العلاقات . واخيراً اقيمت العلاقات مع اوروبا ايضاً . فوصلت طرقات عدة بين مصب « الدون » وبكين مروراً بخانية الكيشاك المغولية وشمالى تركستان الصيني ومنغوليا و« وقره كورم » . وانتهت الى هذه الطرق طرقات اخرى تنطلق من ترابزون والمتوسط الشرقي وتجتاز خانبة فارس وتمر بتبريز وسمرقند وطشكند وواحات تركستان . واسست البندقية وجنوى اسواقاً تجارية في القرى ومستعمرات في بلاد فارس ، فقامت للمرة الاولى في تاريخ العالم الغربي ، على طول هذه الطرق ، علاقات مباشرة بينه وبين الشرق الاقصى ؛ وهذه هي المغالطة في نتيجته فتوحات المغول الخربة . ونشطت في الصين نفسها حركة الصلقات التجارية بفضل استعمال النقد الورقي ، الذي سبق للسونغ ان استعملوه ، والذي اقتبس اوغوداي مبدأه ، منذ السنة ١٢٣٦ ، عن الكيئات في الصين الشمالية ، والذي استعمله كوبيلاي اخيراً استعمالاً منظماً . صنعت الاوراق النقدية « السوداء » من قشور شجرة التوت ، وصدرت عن قصر النقود في بكين ، متفاوتة القياسات بحسب القيمة التي تمثلها ، وحاملة خاتم الامبراطور الذي يضمن شرعيتها . وقد فرض التداول بها ، تحت طائلة عقوبة الاعدام ، على كافة رعايا الامبراطورية . اجل لم يبد التجار استيائهم من هذا النقد لانهم استطاعوا بسهولة استبداله بمواد غذائية مفيدة للتصدير . الا ان كوبيلاي ، بالاكثار من هذه الاصدارات ، قد فتح الباب امام التضخم الذي سيلهي في القرن الرابع عشر الى انهيار الامبراطورية الصينية .

ادت اعادة العلائق الدولية واستتباب الامن على الطرقات ، بدورهما ، الى ازدياد عدد المبشرين المتوافدين على الشرق الاقصى من كل قطر ومصر . ولكن المسائل الدينية ليست شغل المغول الشاغل . فاذا اعتنقت بعض القبائل النسطورية او البوذية وحتى الاسلام ، فان اغلبية القبائل قد حافظت على مفاهيم البدو القديمة حيال تكوّن العالم ، وهي معتقدات بسيطة جداً قامت عليها الديانة الشامانية الخاصة بكافة الشعوب التركية - المغولية . العالم في نظرها مؤلف من طبقات متعاقبة ؛ المنطقة السماوية ، وهي مملكة النور ومقر النفوس الفاضلة ، تضم ١٧ طبقة عليا ؛ العالم السفلي ، وهو مقر الظلمات والاشرار ، يقسم الى سبع او تسع طبقات ؛ وتقوم بين الاثنتين مساحة الارض حيث يعيش بنو الانسان . تخضع السماء والارض الى كائن اعظم يقيم في الطبقة العليا ، ثانغري ، او السماء - المؤله . وبين الالهة الآخرين ، تعنى الالهة اوماي بالاطفال ، وتمثل اتوغان او إيتوغان ، الهة الارض ، بالهة الجبل ، اوتوكان ، في الارجح . ويقم عفاريت لا يحصى لهم عد في الارض ، والمياه ، والجبال ، والينابيع ، وهي اماكن مقدسة احيطت بالاكرام منذ القدم . ويتمثل العفريت حارس القبيلة ، « السولد » ، مثلاً محسوساً ، بسارّ تعلموه جدائل من سبيبة الفحول ، وهي في الارجح حيوانات مقدسة ، غنبيه اللون وسوداوية الذنب والغفرة ؛ وينصب الساري في حظار يحيط به نطاق من شجر الصنصاف يقوم على حراسته متولو شؤون العبادة . ولكن العفريت يسكن علم القبيلة ايضاً (توك) الذي تقدم له ذبيحة قبل كل حملة عسكرية . ولكل انسان كذلك إله مصير يؤدي له واجب عبادة : فقد اكرم جنكيز خان اله مصيره ، السماء - الزرقاء - الازلية ، في كافة ظروف حياته العصبية : وقد درج الفاتح على أن يتسلق جبلاً مقدساً ويرفع قبعته عن رأسه ويلقي زناره على كتفيه ، ويسجد تسع مرات مولياً وجهه شطر الجنوب .

ومن الجائز ايضاً ان يكون « السولد » قد استخدم كذلك نطاقاً لارواح الاجساد اذ ان المغول قد قدموا لها فيه حوماً كان افراد القبيلة يلتهمونها بعد ذلك في مأدبة طقسية . واعتبر جنكيز خان بعد وفاته كمفريت حام ، فاديت له عبادة خاصة كادت تمثله باله حقيقي . ولكن الطقس الذي احتفلوا به اكراماً للجدود كان اهم الطقوس اطلاقاً ؛ وكان الاقصاء عنه بمثابة طرد من القبيلة .

كان لسجود « الكوميز » وسكب الخمر الطقسي صداهما حتى في الاميد الكبير الذي امر كوبيلاي باحيائه في بكين في الثامن والعشرين من آب ؛ فقد سكب فيه على الارض ، لاختصاصها ، حليب الافراس الامبراطورية : قربان جماعي يقدم ، كما ذكر ماركو بولو ، للارض والسماء والارواح ، ومن شأنه ان يؤمن للشعب بكامله السعادة والخصب والازدهار .

فنحن اذن امام ديانة بدائية احيطت بعبادات خرافية ، كالتأمل في راسل خروف محموس بغية معرفة الحظ ؛ وباللعنات : فاذا ما قذفوا بالحجارة الى الماء ، استنزوا على العدو عاصفة ثلج ومطر ؛ وبالدلالات الطبيعية المشؤومة ، كنباح الكلاب ؛ وبالايمان التي ترافقها الهدايا

والمآدب والرقصات الطقسية ؛ وربما بالوشم أخيراً : فان بعض تلميحات « التاريخ السري » تحمل على الاعتقاد بأن الذئب والوعلة كانا رمزين لحدود القبيلة الجنكيز خانية بينما الصق ببعض المصنوعات ، كالمرآة ، طابع مقدس يحرم مسها أو استخدامها .

ليس لهذه الديانة من كهنة سوى السحرة أو الشامانيين المسلحين بطبل شد عليه جلد ثور اسود . استخدم هؤلاء الرجال الحشنون الدهاء ، السلطة الفائقة الطبيعية ، المعترف لهم بها ، بغية لعب دور شعبي عام ، والاستئثار - لا سيما بين قبائل الغابات - بلقب الزعيم (باقي) وفرض انفسهم على ولاة الشعب . فلم يتردد جنكيز خان وخلفاؤه في اقضاء اكثرهم ازعاجاً وحتى في التخلص منهم اغتيالاً . وعلى الرغم من ذلك كان وجود الشاماني ضرورياً للقيام ببعض الطقوس وتقديم بعض الذبائح وتفسير بعض الدلالات الطبيعية . وفي البلاط ، تقدم الشاماني الاعظم ، المتجلبب بالثياب البيضاء والمعتلي صهوة جواد أبيض ، على كافة اصحاب المقامات في حاشية الامبراطور ؛ وقد درج التقليد على التماس تنبؤاته قبل كل مشروع حربي .

الديانات الغربية لم يكن المغول ، على امانة سوادهم الاعظم للمعتقدات الشامانية القديمة ، مرتبطين بآية عقيدة معينة . فبرهنوا من ثم عن تساهل متساو ، في كافة الحماة الامبراطورية ، حيال الديانات المتجانية فيها : البوذية والطاوية والكونفوشيوسية والاسلام والمناوية واليهودية والمسيحية النسطورية او الكاثوليكية ، بالإضافة الى شتى الشيع المشاقة . فتمتعت كل كنيسة بنظام قانوني وصلاحيات قضائية عادلة ؛ لا بل حصل بعضها على اعفاءات من الضرائب لاتباعها . واشتهر المغول بفضولهم في سؤال الاجانب عن ديانتهم دون ان يعني ذلك ، بالضرورة ، اعتناقهم اية ديانة ؛ واذا ما اقدم بعضهم على ذلك ، فانهم كانوا يحفظون بحرافات غليظة ادت بكثير من الديانات الغربية الى الفساد والانحطاط .

يبدو ان جنكيز خان قد اعار الطاوية في البداية اهتماماً خاصاً . ومرد ذلك في الأرجح الى القوى الفائقة الطبيعية الممزوة الى كهانها ، والى انه نظر اليها نظرتة الى شامانية فضلى . استدعى الى معسكره كاهناً مشهوراً من « هو - بي » ، يدعى « كيو تشانغ - تشوان » ، آملاً الحصول منه على العقار الذي يؤمن الخلود . ذهب الكاهن المعجوز في شهر آذار من السنة ١٢٢١ واضطر الى سلوك طريق طويلة تفادياً للمخاطر ، فلم يبلغ الاوردوس الامبراطوري ، وهو آنذاك في البلاد الافغانية ، الا في الخامس عشر من نوار من السنة ١٢٢٢ ، ومكث فيه قرابة السنة . الا ان رواية مرافقه ، وهي مفيدة جداً لمعرفة البلدان التي اجتازها ، لا تخفي اخفاق المهمة الدينية ؛ فخاب امل الفاتح لأنه لم يجد فيه ذلك المعجائي القادر على ان يؤمن له الخلود ، ولكنه أصفى بلطف الى الحكم وتظاهر بالتأثر بتعاليمه واصدر أمراً مهوراً بالخاتم الامبراطوري بإعفاء كافة رؤساء الطاوية من الضرائب ، على الرغم من انه لم يهتم اهتماماً خاصاً لفلسفة الطاو .

اما في بلاط خلفاء جنكيز خان فكانت المسيحية النسطورية اولى الديانات التي تمتعت بنفوذ

واسع. انتشرت النسطورية في آسيا العليا والصين منذ القرن الثامن بفضل كنائس إيران ، ولكن التانغ حرّموها في السنة ٨٤٥ ، فنلاشت بعد ذلك في الصين . بيد انها حافظت على حيويتها في تركستان فاستمادت لنشاطها التبشيري في الشرق ، ولا سيما في اوساط قبائل الكرايت والاونكوت والثانكوت المغولية . وفتح لها الاحتلال الجنكيزخاني ابواب الصين مرة اخرى ، فتمكن البطريرك للنسطوري ، في السنة ١٢٧٥ ، من احداث أسقفية في بكين .

بيد ان النسطورة لم يمتظروا هذا الاعتراف الرسمي حتى يظهررا في البلاط المغولي ، فان النسطوري تشنكاي الكرايتي (١١٧١ - ١٢٥١) ، الذي جعل منه جنكيز خان مستشاره حتى قبل ان يبلغ ذروة قوته ، قد احتفظ بهامه في ولايتي اوغوداي وغويوك . ولم يفته ، كما نرجح ، بينما كان يشغل منصباً اسهم فيه اسهاماً كبيراً في تنظيم ادارة الامبراطورية ، ان يقدم كل مساعدة ممكنة لأبناء دينه ، اذ ان رشيد الدين يشكو من عدائه للسلمين الذي شاطره اياه نسطوري آخر هو كاداك ، ذو الثقافة الوينغورية ايضاً ، والذي اسندت اليه مهمة تهذيب غويوك ثم أصبح رئيس وزرائه . الا ان الاثنين اعدما عندما آل الحكم الى مونكا الذي أتى بذلك عملاً سياسياً لا اضهاداً دينياً ، اذ ان هذا الامبراطور الجديد قد اختار نسطورياً آخر ليحل محل تشنكاي . اضاف الى ذلك ان مونكا ، وهو ابن اميرة كراييتية نسطورية ومزوج من امرأتين نسطوريتين ، قد شمل بتساهله كل الديانات لأنه رأى فيها خير اداة لتسيير دولة الحكم . ففي « اوردوسه » - كما ذكر روبردك - اشترك رجال الدين النسطوريون والمسلمون والبوذيون والطاويون ، باللبسهم الدينية الرسمية ، في اعياد البلاط وباركوا كأس الحان الاعظم ، الا ان النسطوريين كانوا في مقدمة هذا الموكب المقدس . وقد حدث احياناً ان رافق مونكا زوجته الى القداديس النسطورية التي كان يحضرها على سرير مذهب موضوع قبالة المذبح . وقد اشتهرت والدته ، التي اعتلى ثلاثة من أبنائها العرش الامبراطوري ، ببصيرة سياسية وسلك لالومة فيه . وبعد مرور ٨٤ سنة على وفاتها ، أي في السنة ١٣٣٣ ، توجهت ادارة كنيسة الصليب ، وهي إحدى الكنائس النسطورية الثلاث في كان - تشيو من اعمال كان - سو ، الى البلاط الامبراطوري بسؤال عن الاكرامات التي يستطيع مؤمنوها تأديتها لصورة الامبراطورة التي كانت قد وضعت في المعبد .

في عهد كوييلاي رغب راهبان نسطوريان شرقيان في الحج الى اورشليم . وصلا الى بلاد ما بين النهرين في السنة ١٢٧٨ ولم يتمكن أي منهما بلوغ الاماكن المقدسة ، ولكن الاونكوي مرقس (الذي توفي في السنة ١٣١٧) قد انتخب بطريركاً نسطورياً على بغداد بينما اصبح رفيقه « ربان صوما » ، الذي ينتسب الى « هو - بي » سفير خان فارس لدى ملوك الغرب ، فاستقبله « قليسب له بيل » في باريس ، ثم استقبله في « بوردو » ادوارد الاول ملك انكلترا ، واستقبله اخيراً في روما البابا الجديد لوقلا الرابع (١٢٨٨) . اجل لم يتوفى الى حمل الغرب على محالفة سيده ضد الممالك ، ولكن زيارته قد اطلعت الكاثوليك الرومانيين على أهمية المسيحية المغولية التي كانت اعظم ازدهاراً في فارس منها في الصين على كل حال .

وحدث باتجاه معكوس ان عين كوبيلاي النسطوري السوري عيسى ، الذي كان قد دخل في خدمة غويوك ، مديراً لمكتب الابحاث الفلكية (١٢٦٣) . ويبدو ان هذا العالم والطبيب الذي ألم بلغات كثيرة قد أوحى قراراً صدر في السنة ١٢٧٩ قضى بحظر الدعاوة الاسلامية في الصين . وعين بعد ذلك مفوضاً لشؤون العبادة المسيحية ، ثم وزيراً ، فعين كافة أبنائه ، وهم نسطوريون ايضاً ، في مناصب مرموقة .

يجب اخيراً ان نفرز مكاناً خاصاً ، في حاشية كوبيلاي النسطورية ، للأمير الاونكوني « كورغوز » الذي أطلق عليه الصينيون اسم « كوو - لي - كي - سو » والاوريون اسم « الامير جورج » . كان ، لجهة والدته ، حفيداً للإمبراطور ، ولم ينقطع ، بهذه الصفة ، عن استخدام نفوذه في البلاط لحير المسيحيين ، فأسس المدارس والكنائس النسطورية . اضاف الى ذلك انه كان ذا ثقافة رفيعة واقتنى مكتبة قيمة ، واستهوت المباحثات حول الكلاسيكيين الصينيين والفلسفة والتنجم والرياضيات . انضم في السنة ١٢٩٤ ، تحت تأثير المبشر « جان دي مونتيكورفينو » ، الى الكتلركة الرومانية ، وعمد ابنه باسم يوحنا (شو - غنان) اكراما للراهب الايطالي . وكان لارتداد عده صده البعيد لأنه ادخل الكتلركة الى قلب العائلة الجنكينزخانية .

أدى تقدم المغول الصاعق منذ نصف قرن قريباً ، الى اختلاطهم
المغول والمسيحية الرومانية
بالمسيحية اللاتينية في اوروبا الوسطى وفي سوريا الفرنجية على
السواء . الا ان غزوهم ، على ما رافقه من تخريب وارهاب ، قد خلق في نفوس الحكام المسيحيين وهماً - غذاه استمرار اسطورة الخوري يوحنا - بأن هؤلاء الغزاة البرابرة قد يصبحون حلفاءهم على الاسلام . ومن واجبتنا هنا ان تأتي على ذكر هذه المحاولات التي لا فضل لها ، بالنسبة للمؤرخ ، سوى انها أتاحت الطرف لروايات عديدة دونها المسافرون ، ما كنا لنعلم بدونها شيئاً يذكر عن العالم المغولي . كان البابا انوشنتيوس الرابع ، منذ افتتاح مجمع « ليون » ، قد أوفد الراهب الفرنسي سكاني « جان دي بيان كارينو » الى الخان الاعظم ليدعوه الى ايقاف هجماته على المؤمنين والى اعتناق الدين المسيحي مع شعبه . فسار الرسول عن طريق المانيا وبولونيا وامارة كييف وبلاد الكباشك وبلغ منطقة قره كوروم حين كان مجلس الامبراطورية ملتئماً لانتخاب غويوك (١٢٤٦) . قدمه الوزراء النسطوريون الى الخان الاعظم - مع ان التفاهم لم يكن امراً سهلاً بين النساطرة الذين يحميهم المغول لأنهم يؤلفون جزءاً من شعوب آسيا العليا ، وبين الرومان الغرباء عن الامبراطورية والخارجين من ثم على سيطرتها - فتلقى جواباً خطياً (مقدمته تركيه ونصه فارسي) ينذر البابا ومؤمنيه بالخضوع الى من هو ، بنعمة السماء - الخالدة ، « الخان المحيطي لشعب المغول العظام » . بيد ان القديس لويس قد جدد المحاولة خلال اقامته في الارض المقدسة في السنة ١٢٥٠ ؛ فأوفد الرهبان الدومينيكان الثلاثة « جان دي كاركاسون » و « اندريه دي لونغومو » وأخاه الذين ساروا عن طريق تبريز وطالاس وبلغوا المعسكر الامبراطوري في منطقة الايميل والقوبق ؛ فتقبلت ارملة غويوك هدايا ملك فرنسا ، ولكنها طالبت بخضوع صريح .

وانطلق رسول آخر ، هو الفرنسي سكالي غليوم دي روبروك ، من القسطنطينية في السنة ١٢٥٣ واجتاز بلاد الكباشاك حيث ادرك مدى اطلاق الاوساط النسطورية على شؤون الغرب ، ومرّ في « قباليغ » وهي مركز طائفة نسطورية وطائفة بوذية ، وقابل مونكا في جبال الالتي . فصادف هناك اوربيين عدّة اختطفوا في هنغاريا واستخدموا في البلاط المغولي - لورينية من مائتة زوجة من مهندس روسي ، وصانغ باريسي « يقيم أخوه على الجسر الكبير في باريس » متزوج مسلمة هنغارية ، وابن رجل انكليزي مولود في هنغاريا ايضا - وسمح له بالاحتفال بالخدمة الالهية ، يوم عيد الفصح ، في كنيسة قره كوروم النسطورية ، واستطاع ، امام ثلاثة محكّمين عيّنهم الخان ، الاشتراك في مجادلة دينية علنية وقف فيها ، على صعيد الايمان بإله واحد ، الى جانب الفقهاء المسلمين ضد الفلاسفة البوذيين . ولكنه على غرار سابقيه ، لم يحرز أي نجاح على الصعيد السياسي . « هذه هي. وهي السماء - الأزلية : لا اله الا اله واحد في السماء ، ولا ملك الا ملك واحد على الارض هو جنكيز خان بن الله » . فطولب ملك فرنسا من ثم بتقديم خضوعه للخان الاعظم . وقابل روبروك ، في طريق العودة ، ملك ارمينيا (كيليكيا) هيثوم الاول الذي كان أكثر واقعية ولم يتردد في الاعتراف بسيادة الخان الاعظم ، فحصل منه بعد ذلك على صلح حماية « يحرّر الكنائس في كل مكان » ، ويمد بمساعدة عسكرية .

تبدلت الامور بعض الشيء في أيام كوبيلاي بعد ان بلغ بعض التجار الايطاليين ، من جهة ، أسواق الشرق الأقصى ، وبعد ان اطلعت بعثة « رابان صوما » الغربيين ، من جهة ثانية ، على أهمية الطوائف المسيحية الآسيوية . وليس ، بين المسافرين الايطاليين ، أشهر من الأخوين البندقيين نيكولو ومافيو بولو اللذين حظيا ، أثناء اقامتهما الأولى في بكين (١٢٦٦) ، بمقابلة كوبيلاي الذي كلّفهما رجاء البابا بأن ينتدب الى الصين مائة مثقف « متممقين في الفنون السبعة » . وعندما عادا في السنة ١٢٧١ ، دون التمكن من تلبية طلب الخان ، اصطحبا ابن نيكولو ، ماركو بولو ، الذي تسمع لنا روايته المشهورة بتتبع مغامراتهم . مرّوا بفارس وخراسان وقشغاريا ولوب نور ، وبلغوا الصين الغربية ؛ ثم اجتازوا بلاد الاونكوت التي أرهمهم معتقدها النسطوري بأنهم - مملكة الخوري يوحنا ، وانتهوا في شهر نوار من السنة ١٢٧٥ الى « شانغ - تو » مقر كوبيلاي الصيفي . عين ماركو بولو في الادارة الامبراطورية - في مكاتب جباية الضريبة على الملح ، في الارجح - وأسندت اليه عدّة اعمال هامة ، فكث في الصين أكثر من ١٥ سنة : ويناب انه رافق بعض البعثات المغولية الى شيبا وسيلان . وغادر الصين بحراً في السنة ١٢٩١ عندما طلب اليه كوبيلاي مواكبة اميرة مغولية كان قد خطبها لحفيد أخيه ، خان فارس . ولم يعد بعد ذلك الى الشرق مع انه كان قد حمل رسائل موجهة الى البابا وملوك فرنسا وقشتالة وانكلترا . ولكن مغامرته ليست فريدة من نوعها ؛ فان ايطاليين آخرين قد أقاموا في الصين وجمعوا ثروات طائلة وأسندت اليهم مهام رسمية ، كـ « أندالو دي سافينيانو » الجنوي الذي عاد الى اوروبا في السنة ١٣٣٨ بصفة سفير لخان الصين .

في هذه الاثناء ، كان المبشرون الكاثوليك الأولون قد توجهوا الى الشرق الاقصى بايعاز من البابا نقولا الرابع . وحمل الراهب الفرنسي سكاني « جان دي مونتيكورفينو » رسائل بابوية الى خان فارس وكوبيلاي ، فأقام بعض الوقت في تبريز ، وذهب الى الهند مستهدياً تاجراً إيطالياً ، ثم الى الصين حيث قابل حفيد الخان الاعظم وخليفته ، تيمور ، وسرّ بأنه حمله على « تقبيل الصليب بكل تقوى » . ولا ريب في ان اعتناق الامير جورج للايمان الروماني وتشديد كنيستين في بكين قد خلفا تياراً تنصرياً : « أكثر من عشرة آلاف تاري » ، وهو عدد مبالغ فيه في الارجح ؛ ولكن النتائج كانت مرضية حقاً اذ ان البابا اكليمنضوس الخامس قد رقى « مونتيكورفينو » ، في السنة ١٣٠٧ ، الى درجة رئيس أساقفة ، ثم ارسل اليه اساقفة آخرين ، قبل احداث الاسقفيات في القرم و « تسوان - تشيو » . وتؤيسد وجود هذه الجمعيات التبشيرية رواية « اودوريك دي بوردنن » ؛ فبين السنة ١٣١٤ والسنة ١٣٣٠ زار هذا الراهب الفرنسي سكاني بلاد فارس التي تعرّف الى كنائسها للسطورية ، والهند حيث أفضى التعصب الاسلامي ، قبيل زيارته ، الى تقتيل اربعة اشقاء قصر ، وحيث ما زال للكنيسة السطورية مؤمنوها في « القديس توما » (ميلباورا) وسيلان وجاوا وشبها ، والصين اخيراً عن طريق كانتون ؛ وكان هنالك جمعيات فرنسيسكانية في تسوان - تشيو ، وهانغ - تشيو ، وبكين حيث مكث ثلاث سنوات . وقد استفاد رئيس الاساقفة مونتيكورفينو الذي خصّ ، كغيره من المبشرين ، بمرتبات رسمية ، من « حماية بعض ذوي المقامات الرفيعة المعتقدين » ؛ وكان يتوجه الى الخان الاعظم بوصف احتفالي ويبخره ويقدم له الصليب كي يقبله .

بعد وفاة مونتيكورفينو ، شغل مركزه زمناً طويلاً ؛ ثم عين بندكتوس الثاني عشر خلفاً له لم يقم في بكين سوى خمس سنوات ؛ وسين عينت البابوية ، في السنة ١٣٧٠ ، رئيس أساقفة جديداً ، كانت الصين قد آلت الى سلطة المنغ الذين حرّموا ممارسة الدين المسيحي في امبراطوريتهم بسبب ارتباطه الوثيق بالسيطرة المغولية . وباستطاعتنا التساؤل هنا عما اذا لم تكن الاراساليات الكاثوليكية ، حتى بدون ردة الفعل القومية هذه ، صائرة الى فشل محتم . فمسل يجب ان نغير أهمية كبرى لارتداد جمهور من الألبان المسيحيين التابعين للطقس البيزنطي المنحرفين في الحرس الامبراطوري الذين جاء مندوبهم يقدمون خضوعهم للسلطة الرومانية في السنة ١٣٣٨ ؟ ان الابطرة المغول أنفسهم ، على الرغم من تساهلهم نحو كافة العبادات ، قسّد برهنوا ، منذ قبل كوبيلاي ، عن تفضيل ظاهر للديانات الآسيوية . فقد سبق لمونكا ان استدعى الى بلاطه طاوياً ، ولما تجردا فيه للمجادلات اللاهوتية ؛ وقد انعم في قره كوروم في السنة ١٢٥٦ ما هو أشبه بجمع بوذي اصدر حكماً صريحاً على الطاويين بسبب نشرهم كتابات مزيفة تحرف تاريخ الاصول البوذية . فرجعت منذ ذلك التاريخ كافة البوذية . واذا أبقى على « مكاتب » العبادات المختلفة التي كانت وسائل مفيدة للحكم ، واذا تأيد تكرار الاعفاء من الضرائب الذي استفاد منه كافة « الرهبان » ، نسطرة او طاويين ، مسلمين او بوذيين ، فان ذلك لم يمنع كوبيلاي من التمسك بتدابير تمييزية تناولت المسلمين كالرسوم الذي صدر في السنة ١٢٧٩ حول تنظيم ذبح المواشي

المعدة للقصابة بشكل يتنافى والطقوس الاسلامية - ولا سيما الطاويين : اذ قد صدرت الأوامر تكراراً بلاشاة مؤلفاتهم التي تمنح الاصول البوذية . ولعل الخان ، كما يؤكد ماركو بولو ، قد تلقى بقايا جسد بوذا من ملك سيلان مستقبلاً ايها بأبهة عظيمة ؛ ومن الثابت انه استدعى الى بلاطه لاما تيبتيًا ، مستهدفاً ، من وراء ذلك ، هدي المغول وثمان وفاء التيبث على السواء .

ازدادت هذه النزعات شدة في عهد خلفاء كوبيلاي الذين كانوا كلهم بوذيين نشاطاً، باستثناء الأمير أناندا الذي اعتنق الاسلام ثم اغتيل قبل ان يجلس على العرش . عرفت الصين من ثم غزوة حقيقية من الرهبان التيبثيين حاول الامبراطور يسون (١٣٢٣ - ١٣٢٨) في فترة من الزمن اخضاعها لقانون ، بينما كان بعض المثقفين الكونفوشيوسيين قد حصلوا من أسلافه على بعض الاصلاحات الوحيدة التي لم تحمّد من تجاوزات الكهان البوذيين . فاستمدت القومية الصيلية من عدائه للبوذية غذاء جديداً لمقاومة سلالة اليوان .

ان المغامرة المغولية المدهشة ، بافضائها الى تكوين امبراطورية آسيوية
تصدع آسيا وانحطاطها
في أواخر القرون الوسطى
عظيمة ، قد حوت في نفسها جراثيم المحلها . لما ان انتهى الفتح
حتى مست الحاجة الى تنظيم وادارة . ولكن التفاوت كان عظيماً
جداً بين البربرية المغولية وتفعل الشعوب المتحضرة التي شملتها وطمعت في حكمها . وقد برهن
النظام الاقطاعي للمجتمع الجديد عن انه مجرد مسكن وقعي لكبح هذه البربرية وتدارك فوضى
المغول العميقة التي غدت الآن خطراً سياسياً ؛ ومرد ذلك الى انها قد خلقت ، بدورها ، في قلب
الشعب المغولي ، هوة بين الأسياد والكبار المتشبعين عظمة وبذخاً ، وبين المحاربين البدو الذين ما
زال يؤس البورات تخمياً عليهم . وكان من شأن سجنس هؤلاء ، اذا تعذر اخضاعهم للنظام ، ان
يهدد بالخطر وحدة الامبراطورية وازدهارها ؛ وكان من شأن تحضر اولئك ، من جهة ثانية ، ان
يفقد العنصر المغولي الضائع في بحر الشعوب المحتلة طاقته الهجومية وشخصيته نفسها . اجل لقد
استغنى بمرکز متمسكاً لمسطر رأس الحدود ، منغولياً ؛ وأبقى على التقاليد والعادات والطقوس
المغولية ؛ ولكن المغول ، في الأمور الجوهرية ، قد ذابوا في حضارة البلدان المتحضرة المتفخمة ؛
وقد زاد في ذوبانهم ان الادارة ، التي تمرد لتطعيمها وفقاً لطريقة البورات السريعة في تصريف
الأمور ، قد اسندت بالضرورة الى موظفين بلديين . ولذلك فان كوبيلاي وحفيده تيمور
(١٣٩٤ - ١٣٠٧) ، وهما الممثلان الحازمان الاخيران للسلالة الجنكيزخانية ، كانا امبراطورين
صليبيين أكثر منها خناين مغوليين . فما لبث سجنس مغول منغوليا ، المحرومين من مكاسب السلطة ،
ان عاد الى الظهور : فقد أسس «قايدو» ، في آسيا العليا ، خانية انفصلت عملياً عن الامبراطورية .
واذا لم يستطع هذا التكتل من قبائل البورات اعادة وحدة العالم المغولي لمصلحته ، فانه قد شكّل
حاجزاً بين الصين التي انحصرت فيها ، في الواقع ، سلطة الخان الاعظم ، وبين فارس التي ما زال
حلفاء هولاءو جبالسين على عرشها . فكان هذا التكتل من ثم عاملاً أساسياً من عوامل
التقسيم اللاحق .

سندرس في فصل آخر تأثر خانية فارس السريع بالحضارة الايرانية وسنبين كيف ان نفوذ العناصر التركية المتعاطف في المناطق الغربية من الامبراطورية الجنكيزخانية، قد لاقى ، خلال أجيال معدودة ، كل ما يميز الاسم المغولي ، ان لم يلاش هذا الاسم نفسه كلياً . ويكفي هنا ان نذكر بأسرع انهيال مفاجيء للسيطرة المغولية في الصين الذي سهل ، في آن واحد ، ضعف الاباطرة الاخيرين - وقد كانوا منعطين يتحكم بهم أجبائهم المفضلون او بعض المتطرفين في التقوى - ويقظة القومية الصينية .

ولدت هذه الحركة الاخيرة في أوساط جميعات سرية سهل نموها وانتشارها تساهل الجنكيزخانين الديني الذي استفادت منه الشيع والديانات الرسمية على السواء . وكانت هذه الجمعيات قد انضمت في البدء الى النظام المغولي لأنها قد ذاقت الأمرين في السابق من اضطهاد السونغ . استمدت شيعة التيلوفر الابيض ، وهي احدى اعظم هذه الجمعيات نشاطاً ، نفوذها القوي من ايمانها بمسيح بوذي ، ميتريا ، بشرت بمجيئه القريب . فانطلقت الحركة الثورية من منطقة كانتون في السنة ١٣٥٢ ، وتعاظمت قوتها بفعل الفوضى المتفاقمة ، وتجاوزت « اللامات » المسيطرين على البلاط ، والاضطراب المالي اخيراً الذي سببه التضخم المستمر في الورق النقدي ، فما لبثت ان عمت كافة أنحاء الصين الجنوبية . الا ان الاضطراب قد سيطر عليها في البداية ، اذ ان العصاة المسلمين قد أثروا اعمالاً تخريبية فظيعة . ولكن احدى رؤساء الفرق المسلحة ، الكاهن السابق « تشو يوان - تشانغ » ، وهو مغامر في الخامسة والعشرين ، ما لبث ان تميز ببعده نظره السياسي والنظام الشديد الذي فرضه على جنوده ، محظراً عليهم كل سلب ونهب ، واستلم قيادة حركة التحرير . وبعد ان بات سيد الصين الجنوبية كلها ، استولى على بكين بسهولة في السنة ١٣٦٨ وقتل ، دونما شفقة ، كافة المغول الذين لم يتبعوا امبراطورهم الاخير في قراره نحو البورات .

انه لحدث فريد من نوعه في تاريخ الصين التي طالما اخضعها الفاتحون الشماليون . فالثورة القومية قد حررت ، في الدرجة الاولى ، الصين الجنوبية من استعباد مغولي استمر أكثر من قرن ؛ ثم استعادت مناطق الشمال التي سيطر عليها منذ ٤٠٠ سنة ملوك وارسوقراطيات عسكرية من اصل اجني . كان عمل تشو يوان - تشانغ ، الذي أسس سلالة المنغ ، باسم « هونغ - وو » الامبراطوري ، حركة قومية في الدرجة الاولى ، استمدت قوتها الرئيسية من العودة الى التقاليد الصينية الصميمة . وقد ادعى هذا المؤسس نفسه ، بفعل غريزة استمرار غريبة ، الانتساب الى عائلة التانغ ، آخر سلالة قومية سيطرت على الصين بكليتها مع ان سقوطها يعود الى ٤٠٠ سنة . وسيستهدف كل عمله ، خلال ملك دام ثلاثين سنة - اذ انه لن يموت قبل السنة ١٣٩٨ - طمس خلة السيطرة المغولية وربط الصين الجديدة بأبعد ماض قومي ، وذلك باعداد حضارة تراعي ، في جوهرها ، التقاليد الصينية : وقد ارسخ كل هذا على سلطة امبراطورية مطلقة توطدت تدريجياً ، واعادة منصب المندرين والالاقاب الشرفية ، والاحتفال بالعبادة الكونفوشيوسية ، واحياء مجامع المثقفين العلمية . ولكن هونغ - وو الذي ما زال يذكر انه

عاش في احد الاديرة حياة كامن صيفي، لم يستجب كل الاستجابة ، في الحقل الديني فقط ، لرغبة الكونفوشيوسيين ، واستمر في حماية البوذية . اما في الحقول الاخرى ، فقد عبق الصين بروح قومية وتحفرت في تقاليد ستمرف الديمومة حتى سقوط المنغ في القرن السابع عشر .

نترك اذن حضارات الشرق الاقصى ساعة جعلها تقسيم الامبراطورية المغولية تنكشف على نفسها وقطع كل علاقة بينها وبين الغرب . فلن يحدد الاوروبيون هذه العلاقات الا بعد مرور اجيال عديدة ، أي في اوائل القرن السادس عشر ، تاريخ اسفار البحارة البرتغاليين . اجل لم يبق من المغامرة المغولية العظمى سوى ذكريات شتمتها الصين الجديدة ، ولكن متاحفنا تجملت بما بقي من رسوم مدهشة لفرسان وحيوانات جمعت بين الاناقة الصينية والواقعية المغولية . اما في آسيا الغربية فكان مقدرا للذكريات الملحمة الجنكيزخانية ان تعرف ديمومة اطول عهداً وتحاط بهالة من المجد . فطيلة قرون سيطلق اسم التتر على جماعات مختلفة الاجناس ، اعتنقت كلها الاسلام ، وعاشت حياة البدو الرحل في السهول الروسية . وعندما سيقرر التركاني تيمورلنك ، بعيد تولى المنغ السلطة في الصين ، ان يقذف بمواطنيه من وراء النهر لمهاجمة كافة الحماة الشرق الادنى ، سنراه يختبئ وراء الاسم المغولي ويزعم انه انمسا يكل او يحدد عمل جنكيزخان وجاغاتاي : ولكنه انتساب خادع ، اذ ان النفوذ التركي قد حل منذ زمن طويل محل السيطرة المغولية في البلدان الممتدة من قشغاريا حتى مصاب الدانوب .

تَفْجُّ أوروبَّا الاقطاعية (حوالي ١١٥٠ - ١٣٢٠)

يتوافق المؤرخون على اعتبار الحقبة الممتدة من منتصف القرن الثاني عشر حتى السنة ١٣٢٠ تقريباً بمثابة العهد الكلاسيكي للقرون الوسطى الغربية ، والفترة التي بلغت فيها حضارة القرون الوسطى ذروتها وحقت توازنها . لا ريب في ان الانطلاقة الصاخبة التي اتاحت مزيداً من التقدم منذ السنة ١٠٠٠ قد هدأت آنذاك وانتظمت : فان اطراد السهولة في اقامة العلائق ، واختصار المسافات ، وقيام المفارق الفكرية الكبرى - كجامعة باريس مثلاً - حيث يلتقي رجال قادمون من كل البلدان المسيحية ، قد مهدت الطريق لزوال الفوارق الاقليمية وتلاشي العقليات المتباينة وانسجام الاكتشافات المتنافرة والتوق الى الوحدة . ان هذا العهد هو عهد التآليف الكبرى ، عهد « المرايا » ، اي دوائر المعارف التي احصيت فيها المعارف الشاملة ونسقت تنسيقاً منظماً ؛ وعهد « المجموعات » حيث يجمع اللاهوتيون ويقارنون كافة الآراء العقائدية ويصرفون ذهنهم وفطنتهم في الترفيق بين البرهنة والوحي ؛ وعهد البحث عن الوحدة والتوازن اللذين تعبر عنهما ، عند مدخل الكاتدرانيات ، صور المسيح التي تجمع جمعاً يثير الاعجاب بين قسبات الاله وقسمات الانسان والتي هي اجل تمثيل تصويري لسر التجسد المسيحي .

بيد ان هذه الوحدة وهذا التوازن لقصيان . فتحت الانسجام الظاهر اخذت القيم تنقلب انقلاباً كلياً عميقاً . فقد اخذت تزداد ، ويوما بعد يوم ، اهمية النقد والتجارة في عالم كان ما يزال شبه ريفي ، فتخلخلت قواعد النظام الاجتماعي ؛ كما ان رسوخ قدم الملكيات ، التي اخذت تتجابه ، ونشوء الروح العلمانية ونموها السريع ، قد هدد تلاحم المسيحية بالخطر ؛ فبدت من ثم في الافق دلائل الازمات الاقتصادية ، والخلافات السياسية ، وقلق الضائير ، التي ستبرز بكل واقعها في القرون الاخيرة من القرون الوسطى .

١ - الاقتصاد الاوروبي

بعد السنة ١١٥٠ اخذت حركة الاستعمار الداخلي تسير ببطء في استقرار الاقتصاد الزراعي . دول الغرب القديمة . اجل ما زلنا في القرن الثالث عشر نشاهد امتداد الاراضي الخصبة في منطقة لنكولن وقيام قرى جديدة في حوض الفارون ؛ ولكن المساحة الزراعية ، بصورة عامة ، لم تتوسع قط . فقد امتد الاصلاح الى اقصى حدود الاراضي الصالحة للاستثمار وذلك نتيجة لتقنية زراعية لم تتحسن تحسنا محسوسا منذ التعديلات التي ادخلت عليها في القرن الحادي عشر ؛ وقد كان يحدث احيانا ان بعض الحقول ، التي جوزف باستئجارها تحت تأثير الشعوب بالرضى الذي يحدثه كسب مساحات جديدة من الاراضي المجهدة ، قد يتكشف لمعالها ، فاهملت بعد عدة مواسم مخيبة . وغالبا ما ضاقت مساحات الغابات الضرورية لتوازن الاقتصاد الريفي ، فاصطدم جامعو الاخشاب بمقاومة الاسياد والجمعيات القروية ، دفاعا عن حقوقهم في الكلاً والاحتطاب . ونتيجة لاطراد نشاط الفلاحين ، بات نمو تربية المواشي ، لتأمين المدن باللحوم وصناعات الاجواخ بالاصواف ، يتعارض وتوسع اعمال الحراثة : اذ ان ملاكي الاراضي البائرة ، الذين كانوا يحاولون استالة واجتذاب الفلاحين لزيادة مداخيلهم ، في الماضي ، اصبحوا يرفضونهم لانهم باتوا يمنون مزيدا من الارباح من هذه الاراضي بتخصيصها مراعي للاغنام والابقار ؛ وفي ولايات كثيرة - خصوصا في انكلترا حيث سمحت انظمة مورتون وانظمة ونشتر للاسياد ، في القرن الثالث عشر ، بضم الغابات الى المراعي العمومية - امست الزراعة محصورة في مساحات معينة بفعل توسع المراعي . ولما كان عدد السكان ما زال يرتفع باطراد ، على الرغم من توقف اصلاح الاراضي البائرة ، فقد حدث في اوائل القرن الرابع عشر ان اكتظت الارياف بالبشر وكادت الاراضي الزراعية لا تكفي لتغذية عائلات الفلاحين ؛ ولندكر هنا مثل احدى الاقطاعات ، الى الشمال من حوض لندن ، حيث ارتفع عدد الشركاه الزراعيين بنسبة الثلث في النصف الثاني من القرن الثالث عشر دون ان تتبدل مساحة الاراضي الزراعية ، فكانت النتيجة ، بعد هذا الارتفاع ، ان ثلاثة ارباع العائلات لم تتمكن من تأمين اودها في الاراضي الضيقة التي استلمتها . وهكذا فقد ضعفت ، قبل ان تنقلب كليا ، النزعة المواتية الكبرى التي بعثت في آن واحد ، منذ ٣٠٠ سنة ، انطلاقا للاقتصاد الريفي وتقدم الاسكان ، واعطت امتن اساس لتفتح الحضارة الرومانية . وما توازن منتصف القرن الثالث عشر ، الجزئي ، سوى نتيجة الركود الذي سيطر على انتاج معظم المواد الغذائية

ومع ذلك ، فملى الرغم من ظهور اولى دلائل التدهور في النشاط الزراعي في بلدان اوروبا الغربية ، توالى التقدم الاقتصادي في حقول ونطاقات اخرى . فقد برز اولاً ، في مناطق الحدود الشمالية والشرقية للعالم المسيحي ، باعداد الحقول الزراعية وتأسيس القرى : ففي سكندينايفيا تضاعف عدد المراكز القديمة المأهولة ، آنذاك ، بمراكز سكنية اخرى عرفت باسم (تورب) ؛

وحصل في السهول الشرقية الكبرى ، بنوع خاص ، حدث ذو أهمية رئيسية في تاريخ الغرب ، اعني به انتشار المزارعين الالمان .

حوالي السنة ١١٥٠ ، ما كان الجرمانيون ، الذين توسعوا بسرعة في الاستعمار الالمانى في الشرق المستنقعات المقفرة القائمة على شواطىء بحر الشمال وراء نهر الفيزير ، ليتخطوا ، شرقاً ، المنحدر الشرقى لغابات تورنج ، الا في حالات نادرة ، مما يثبت تراجعهم المحسوس تحت ضغط السلافيين منذ العهد الكارولنجي . اما هؤلاء ، فهم وان اقبلوا تدريجياً على التنصر وخضعوا شيئاً فشيئاً لنظام الامارات ، قد اشتقروا في مستوى حضارة مادية غاية في التدني . فالفلاحون منهم ، الذين يعيشون جماعات في قرى صغيرة ومتنقلة ، قد خضعوا خضوعاً تاماً لطبقة الاشراف والكنيسة اللتين استغلتهما بقساوة ؛ وقد تماطوا بصورة خاصة تربية المواشي وزراعة الحبوب الثانوية والذرة البيضاء ، معتمدين ادوات بدائية جداً ، في اراض صالحة للزراعة ؛ لذلك خلت بلادهم من المدن وبار الشطر الاكبر منها .

الا ان الالمان ، الذين اهتموا في الدرجة الاولى لمقاومة غزواتهم ، توصلوا ، بفضل ارتفاع عددهم وتحسن اسلحتهم ، الى بسط سيطرتهم عليهم . وبينما كان بعض الرهبان الجرمانيين ، من سيستريين وبريمونترية ، عاكفين ، في النصف الثاني من القرن الثاني عشر ، على تأسيس اديرة كثيرة بين نهري الالب والفيستول ، ادخل الامراء المستقرون عند حدود الامبراطورية ، في طاعتهم ، الزعماء السلافيين المسيحيين في « شوارين » ومكلمبورغ وبوميرانيا وسيليزيا واقدموا على فتح اراض مازالت وثنية . وسار دوق ساكس ، « هنري الاسد » ، وافنى القبائل الفنندية في « نورالبنجيا » ؛ كما ان انسال « البير اللب » ، فاتح « براندنورغ » ، وسعوا دولتهم على طول نهر السبريه بين الامارات السلافية المسيحية واجتازوا نهر الاودر في السنة ١٢٥٣ ، وضموا بوميرانيا في السنة ١٢٦٩ . والحزب في القرن الثالث عشر عمل على جانب من الامة ، في مناطق نائية ، بغية فرض الايمان بالمسيح على الشعوب الباطنيكية : الروس والفنلنديون والليتوانيون ، الذين كانوا آخر مجموعة وثنية هامة في اوروبا . وقد نهضت بهذا العمل جمعيات دينية وعسكرية من المتطوعين الجرمانيين : مثل جمعية الفرسان المعروفين باسم « حاملي السيوف » ، وقد أسست خصيصاً لنشر تعاليم الانجيل في « كورلاند » ؛ وجمعية الفرسان التوتونيين الذين نقلوا من فلسطين الى الجبهة التبشيرية في المانيا الشرقية . وقد استدعى هؤلاء دوق مازوفيا البولوني ، فتولوا فتح بروسيا فتحاً منظماً انطلاقاً من الفيستول الادنى ؛ فجمعوا في حلات صليبية سنوية امراء وفرسان جرمانيا وبوهيميا وبولونيا ونظموا الاراضي المحتلة تدريجياً وأسسوا بين السنة ١٢٣٠ ومنتصف القرن الرابع عشر دولة رهبانية وعسكرية كبرى .

رافق هذا العمل السياسي استعمار زراعي واسع . فقد أقدم السيسترييون والنوربرتيون ، رغبة منهم في توفير النجدة لرهبانهم المساعدين واستئثار ممتلكاتهم استئثاراً افضل ، والفالحون

الجرمانيون ، لأجل احكام السيطرة على البلاد المحتلة ولجني أعظم مكسب منها ، والامراء السلافيون المحميون ، لأجل تأمين رعايا اشد اخلاصاً من رعاياهم البلديين ، والتوتونيون اخيراً ، لأجل اعادة اعمار بروسيا بعد ثورة السنة ١٢٤٠ وعملية الافناء التي استهدفت البلديين بسببها ، على الاستعانة باليد العاملة الالمانية . وكان جمع المهاجرين ونقلهم الى مسافات بعيدة عملاً شاقاً يستلزم اموالاً طائلة وجهازاً دعائياً ، فأسندة الأسياد الى ملتزمين ، عرفوا بـ « المستأجرين » ، من الفرسان ولا سيما البورجوازيين الذين حصلوا ، لقاء اتعابهم ، على مركز ممتاز في القرى الجديدة التي أسهموا في اعمارها ، وتقاضوا جزءاً من المداخل السيدية . فاستألت شروط المشاركة الزراعية (ضرائب خفيفة) فلاحى هولندا وريانيا وتورنج فجاءوا من ثم ونزلوا بأعداد كبيرة في المنطقة الواقعة بين الالب وبحر البلطيك والاورد والجبال المعدنية ؛ ونزل آخرون ابعد الى الشرق في بروسيا وبولونيا الصغرى وحتى في الاراضي المجاورة للبرغ ؛ ونزل غيرهم اخيراً في بعض البقاع المنعزلة من السهول الهنغارية وترانسيلفانيا . فكانت نتيجة هذه الهجرة الكبرى تزايداً سريعاً في عدد السكان : تأمست في سيليزيا وحدها أكثر من ١٢٠٠ قرية جديدة بين السنة ١٢٠٠ والسنة ١٣٥٠ . وكانت نتيجتها كذلك تبديلاً كلياً في منظر الارياف . ومرد ذلك الى ان المزارعين الالمان قد أدخلوا الى البلاد السلافية تقنيات زراعية أكمل اتقاناً الى حد بعيد : أدوات فضلى ، والمطحنة المائية ، والآلات - المحراث الكبير ذو الباسنة الحديدية وفأس الحطابين الثقيلة - التي أتاحت استثمار الاراضي التارية والغابات الظليلة ؛ وزراعة الكرمة ، وزراعة الحنطة التي حلت محل الذرة البيضاء ؛ وراحة الارض سنة كل ثلاث سنوات ؛ والتخصص الزراعي الذي لم يترك للنشاط الراعي سوى مركز ثانوي . وقامت في المساحات الكبرى المقفرة ، التي باعدت في ما مضى بين المراكز السكنية السلافية ، قرى كبيرة ذات نظام جماعي تأسست في وسط مقاطعة مقسمة الى اراض تزرع اصنافاً مختلفة متعاقبة .

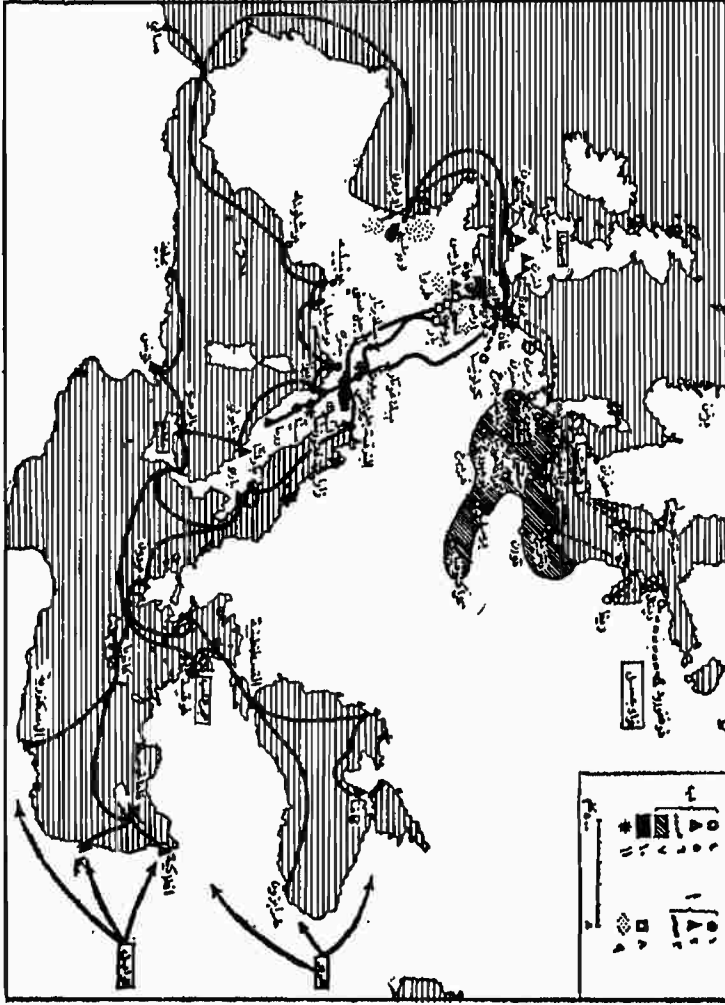
لم يكن الاستثمار الالمانى عسكرياً وريانياً فحسب . فقد جاء اختصاصيون آخرون ايضاً : معدنون فحصدوا الاراضي في كافة بلدان اوروبا الوسطى واستثمروا عروقها المعدنية ، واهل تجارة خصوصاً - ولذلك تميز الوجود الالمانى بظهور بعض المدن في مناطق لم تعرف المدن قط . فان المستعمرات الزراعية الجديدة ، التي قامت في اراض بكر خصيبة جداً ، واستندت الى انتاج الحبوب الثمينة السهلة التصريف ، واستثمرت على أيدي شركاء زراعيين فرضت عليهم أتاوات نقدية في الدرجة الاولى وأرغموا من ثم على العمل في سبيل البيع ، قد تهيأت بصورة طبيعية للاقتصاد التجاري . وقد توفقت قرى جديدة كثيرة ، منذ تأسيسها ، الى أحداث سوق ذات امتياز ؛ وكانت كلها وثيقة الارتباط بمدينة قام دورها بالضبط ، بتأمين اتصال هذه القرى بالتيارات التجارية الكبرى . فانتشرت من ثم في مهاجر الفلاحين الالمان قرى كبيرة تكاد تكون محض جرمانية . بيد ان الاستثمار المدني قد نخطى هذه المنطقة نخطياً بعيداً : فقد قامت سلسلة من المدن التجارية على شواطئ البلطيك الجنوبية والشرقية ابتداء من لوبك (١١٤٣) حتى رينا (١٢٠١) وريفال (١٢٧٠) ، كما أعمار التجار الالمان ، في القرن الثالث

عشر أكثر الأحياء نشاطاً في المدن الجديدة التي قامت في بولونيا والدول الدانوبية وسكندنافيا، ابتداء من « برغن » حتى ستوكهولم .

ان هذه الهجرة الجرمانية الكبرى ادخلت نظم الحضارة الغربية المثل الى بلدان لا تزال بربرية ، وحتى حدود البورات الخاضعة آنذاك لسيطرة المغول ، وأعطت البلدان السلافية مقوماتها . فموض هذا التوسع الجاني ، باعداد اراض جديدة لزراعة الحنطة التي اتيح تصدير معظم مواسمها ، وبتنمية الصيد في بحر البلطيك الغني بأنواع الرنك ، وبتشجيع كافة انواع المغايضات ، عن الركود الزراعي التدريجي في البلدان الغربية . كما اسهم في انطلاقة التجارة الأوروبية الكبرى .

ان النشاط التجاري الوثيق الارتباط بتقدم الصناعة وحركة تداول
اجواخ « فلاندر »
النقود قد تزايد باطراد في كافة أنحاء أوروبا حتى اواخر القرن
والتجارة الداخلية المشتركة
الثالث عشر . وانتظمت نهائياً حركة اقتصادية دائرية : مركزان
رئيسيان هما شواطئ بحر الشمال وشبه الجزيرة الإيطالية - وقد اشتهرا منذ اوائل القرون
الوسطى ، بسبب موقعهما ، بنشاط التجارة - ومركز منظم هو اسواق شيمانيا الدورية .

كان المرتكز الرئيسي للازدهار المطرد في المركز الشمالي التقدم المستمر في صناعة الاجواخ . وكان هذا التقدم نفسه وثيق الارتباط بذبوع المبل ، في طبقات المجتمع العليا ، للمنسوجات الصوفية التي تفوق انتاج الانوال المنزلية اتقاناً وتنوعاً والواناً ؛ ووثيق الارتباط من ثم بتقدم الحياة الاجتماعية . وانتشرت اهم مراكز حياكة الاقشة وصباغتها ، في القرن الثاني عشر ، غربي الراين والاسكو : سانت اومير وأراس وليل ودواي واميان وبوفيه وكمبريه وتورنيه . ولكن اكثر المصانع نشاطاً تجمعت شيئاً فشيئاً في الفلاندر التي حاول كونتيتها بشق الوسائل ، منذ القرن التاسع ، بعث حياستها الاقتصادية . فأقيم معظمها في دواي أولاً ، ثم في ايبير وغنت اللتين انتهى نشاطهما ، في اواخر القرن الثالث عشر ، الى السيطرة سيطرة تامة على سوق الجبوج . لم تكن الصناعة ، في هذه المدن الصناعية الكبرى - وهي الاولى من نوعها التي عرفها الغرب والتي جاوز سكانها ، للمرة الاولى في ذاك العهد ، ٣٠.٠٠٠ نسمة - متمركزة في مصانع كبرى ، بل موزعة على عدد كبير من المشاغل الصغرى المتخصصة كل منها بمرحلة معينة من مراحل العمل ، والمشرف على ادارتها رب عمل هو ، بحسب المشاغل ، حائك او مقصّر ، حلاج او صباغ ، ينظم العمل كما يطيب له بمساعدة بعض الرفاق . الا ان الانتاج ، الممدد جله للتصدير البعيد ، خضع بكليته لرقابة تجار مهرة ، اصحاب اموال طائلة ، وقادرين وحدهم على ابتياع الخامات في الاسواق النائية ، وتأمين تصريف المصنوعات . وكان هؤلاء التجار ، الذين غالباً ما اجتروا ادواتهم للصناعيين اليدويين ودفعوا لهم اتعابهم على اساس الوحدة المصنوعة ، يمارسون رقابة اقتصادية تامة على ارباب الحرف الصغرى الذين استقلوا بدورهم الرفاق ، وهم



الشكل (رقم ١٥) - الاقتصاد الأوروبي في اواخر القرن الثالث عشر

- أ - الإيطاليون : ١ - المراكز الاقتصادية الرئيسية . ٢ - الأسواق الرئيسية . ٣ - الطرق التجارية الرئيسية .
 ب - الهانسون : ٤ - مدن الهانسون الرئيسية . ٥ - الأسواق الرئيسية . ٦ - الطرق التجارية الرئيسية .
 ٧ - منطقة الاستعمار الزراعي الألماني . ٨ - الأسواق الدورية الشبهانية . ٩ - أهم مناطق تصدير النسيج . ١٠ - أهم مناطق تصدير العظم . ١١ - أهم مراكز صناعة الاجراع .

عمال متضورون جوعاً يستخدمون اسبوعياً ولا ينعمون بأية حماية . فنجم عن مثل هذا الوضع ، منذ الربع الاول من القرن الثالث عشر ، قلق اجتماعي عبّرت عنه الارجيف

والاضرابات عن العمل . وقد حدثت اولى الاضرابات ، بمفهومها الحاضر ، في السنة ١٢٥٠ . فاجد هذا الصراع الحفي اخيراً بين اليد العاملة وكبار الملتزمين ، وقد استمر بفعل الخلافات السياسية والرسوم على المواد الغذائية التي فرضها شيوخ البلد النبلاء حتى لا يلزموا برفع الاجور ، في السنوات الاولى من القرن الرابع عشر ، ازمة انتاج ، انحصرت في المدن الفلنكية على كل حال ، وعوّض عنها نمو صناعة الاجواخ في « برابان » ، « هينو » ، وبيكارديا وشمبانيا .

كان انتاج الاجواخ صناعياً ، منذ فجر القرن الثاني عشر ، حافظاً لنشاط التجارة في المنطقة الفلنكية التي قامت فيها ، منذ ذلك التاريخ ، اسواق اقليمية دورية . فكان لا بد من تكوين الانوال الناشطة المتزايدة ابدأً بالاصواف الاجنبية التي ما لبثت انكلترا ان اصبحت سوقها الاولى ؛ كما كان لا بد من الحصول ، في الارياض ، على المواد التلوينية ، الاسليخ ، والقوة التي تُزرع في نورمانديا بنوع خاص ، والوسمة ، او العظم ، التي كانت منطقتا اوديس وبيكارديا اسواقها الكبرى ؛ وكان لا بد ايضاً من استيراد حجر الشب ، وهو مادة خام اساسية تستعمل لتقشير الصوف وتثبيت اللون وصقل الاقمشة ، من شواطئ البحر المتوسط الشرقية . وكان لا بد اخيراً من ارسال المنسوجات الى المشترين المنتشرين في أنحاء الغرب المسيحي ، وحتى في مناطق اخرى نائية . فجاءت هذه التيارات التجارية المتزايدة القوة تعزز التيارات التي تقاطعت تقليدياً في بحر الشمال ناقلة الملح والنبيد من فرنسا ، والتوابل الشرقية نحو البلدان الشمالية . واستقر مركز كافة هذه المقايضات شيئاً فشيئاً في مرفأ بروج الذي جهز تدريجياً ، بفضل بناء ميناءيه الامامين ، دام (١١٨٠) وايكولوز (اواخر القرن الثالث عشر) ، لاستقبال اكبر السفن حوله .

ولكن بروج - وهذا ما يميز نشاطها عن نشاط المدن البحرية الايطالية - لم تكن سوى محطة او نقطة لقاء مفتوحة الابواب للتجار الغرباء ؛ فان سكانها ، الذين لم يتعاطوا الملاحة وتجهيز المراكب ، لم ينصرفوا الى المهن البحرية ، فبقي زمام حركتها التجارية في ايدي الاجانب ، اعضاء شركات التجارة الداخلية اولاً ، ثم الايطاليين في اوائل القرن الرابع عشر .

نشأت الشراكة التجارية بين المدن (الهانس) عن اقامة الالمان في شواطئ البلطيك وعن تأسيس المدن الحديثة - وهي المدن التي قامت على مصاب الانهار وخففت الضغط عن المناطق الزراعية الداخلية من شلسفيغ حتى لتونيا . في النصف الثاني من القرن الثاني عشر اتحد تجار هذه المدن في شراكة تجارية اقامت حوالي السنة ١١٦٠ سوقاً للبضائع المنقولة في فيسبي من اعمال جزيرة غوتلاند ، واستوردت من النروج التي مني اقتصادها بالعجز ، حنطة اراضي المزارعين ، وضمنت رقابة صيادي الرنك الوفير في سكانيا ومونتهم بالملح ، واحدثت سوقاً دائمة في نوفغورود ، فاحتكرت من ثم كل التجارة في البلطيك . وفي اوائل القرن الثالث عشر ، افضت الرغبة في تأمين المزيد من الاسواق للمحاصيل الشمالية ، وللأسماك المجففة بنوع خاص ، والرغبة من ثم في تنظيم العلاقات بين قطاع تجارة البلطيك وقطاع تجارة بحر الشمال ، عن طريق

اتصال بري بين نهري التراف والالب ، بكبار تجار لوبك الى عقد معاهدة صداقة مسح تجار هبورغ؛ ثم انضم الى هذا التحالف تجار مدن اخرى، في الشرق وفي الغرب على السواء، كـ « برمين » في الساحل ، وكولونيا على الرين ؛ وبعد ان قامت هذه الشراكة بين التجار ، في البداية ، بامت ، في منتصف القرن الثالث عشر ، شراكة بين المدن بقيت لوبك والمدن القندية قلبها النابض . واستت فئة « الاسترلين » اسواقاً ثابتة ممتازة في « بروج » التي غدت محطتهم الرئيسية ، ثم في لندن حيث حصلت هذه الشراكة من الملوك الانكليز ، بين السنة ١٢٦٠ والسنة ١٣١١ ، على وضع موافق جداً . وتعاطى هؤلاء التجار المشاركون تجارة المواد الثقيلة التي نقلوها وواكبوها في سفن مستديرة تتسع لمحملة كبيرة وتجهز بسطح يفصل طبقاتها . وقام نشاطهم خصوصاً ، في اواخر القرن الثالث عشر ، بامتياز محاصيل الشمال ، الفراء والعسل والرنك وقمعج مناطق الاستعمار الجرماني (حوالي السنة ١٢٥٠ استهلك القمعج المستورد من براندبورغ في فلاندر وانكلترا) ؛ وامنوا كذلك نقل الصوف الانكليزي الى المدن التي قامت فيها معامل الجوخ ، وتجاوزوا بريطانيا واتجهوا نحو شاطئ فرنسا الاطلسي ، الى جون بورنوف ، واوليرون ولاروشيل ، بغية نقل الملح الى مصايد الاسماك في سكاكيا والنبيذ الذي يباع في فلاندر وانكلترا والمانيا . فغدا هذا الساحل الاطلسي نقطة تألب تجارة دولية ، كما غدت اعراف اوليرون ، التي دوّنت كتابة في اواخر القرن الثاني عشر ، قانوناً بحرياً دولياً لكافة الربانة الشاليين . وكانت التجارة على هذا الساحل بسيطة لا تستلزم رؤوس اموال كبيرة بالنسبة للمحمولة المنقولة واكتفت بالتقنيات التجارية والمالية البدائية . فاختلقت بذلك عن تجارة الايطاليين الذين زاحوا هؤلاء التجار ، في السنة ١٣٠٠ ، ادارة الاعمال التجارية في بروج ولندن .

رجال الاعمال الايطاليون ان النشاط الاقتصادي في المراكز الجنوبية - وهو قد تخطى ايطاليا على كل حال ومال الى دخول مركز بحر الشمال وضمه اليه - كان في الحقيقة اشد تعقداً الى حد بعيد . كان مركزه الرئيسي التجارة البحرية ايضا التي تركزت تدريجياً في مرفأين : البندقية القديمة الشهيرة ، وجنوى التي لم تخلف وراها منذ منتصف القرن الثاني عشر ، مرسيليا وبرشلونة فحسب ، بل توصلت اخيراً الى التغلب على منافستها بيزا. التي سقطت واقتطعت نهائياً بعد معركة « ميلوريا » (١٢٨٤) . اجل كان من شأن الحملات الصليبية ان تعميق تجارة المدن البحرية الايطالية التي اتجهت في البدء نحو الشرق بنوع خاص ؛ ولكن التجار ، في الواقع ، استغلوا الحملات العسكرية المسيحية ما استطاعوا الى ذلك سبيلاً فقدّموا لها مساعدة اسطولهم لقاء اسواق وامتيازات اقتصادية : ولنا في عمل البندقيين الذين نكبوا بعجلة السنة ١٢٠٤ عن طريقها ، خدمة مصالحهم واعمالهم ، فقادوا فرسان الغرب الى فتح مدن مسيحية ، زارا اولاً ثم القسطنطينية ، خير مثل عن هذا الاستغلال ؛ اضاف الى ذلك ان روح الحرب المقدسة ، التي وهبت كثيراً منذ اواخر القرن الثاني عشر على كل حال ، لم تمنعهم ، من جهة ثانية ، من عقد اتفاقات تجارية مع الامراء المسلمين . لذلك ، وبفضل تقدم فن الملاحة

ايضاً ، واستخدام السفن الشراعية الكبيرة والمتينة ، ووضع الخرائط البحرية الاولى قبيل القرن الرابع عشر ، فقد اتسع حقل نشاطهم اتساعاً مستمراً .

فتحت لهم في اوائل القرن الثالث عشر ابواب البحر الاسود الذي كان وقفاً على التجارة البيزنطية . فاتجروا مع شعوب البورات في كافا من اعمال القرم ، وفي ثانا في اقصى بحر ازوف . واستفادوا من ان المفول اسسوا دولة تضم آسيا بكليتها حتى شواطئ البحر الاسود ، فاخذوا يحاولون اقامة علاقات مباشرة مع الشرق الاقصى : فتوصل بعض الجنوبيين والبندقين ، كما رأينا ، الى الهند وبحر الصين واندونيسيا . وتخطى الجنوبيون جبل طارق نحو الغرب وترددوا على «سالي» وساروا ابعد الى الجنوب بمحاذاة الشواطئ الافريقية وعرضوا انفسهم للمخاطر ، من الجهة الشمالية ، بالدوران حول شبه الجزيرة الايبيرية . وفي اواخر القرن الثالث عشر ، وصلت طرق الملاحة الايطالية ، المارة في الاراضي المسيحية والاسلامية على السواء ، (اذ ان سقوط عكا في السنة ١٢٩١ ، وفقدان المراكز اللاتينية الاخيرة في الارض المقدسة ، لم يمتصها التجارة قط) كافة انحاء العالم المتوسطي ، من كافا وطرابزون حتى بيرما ، ومن القاهرة ودمياط والاسكندرية حتى تونس وبوجي وسبته بواسطة مستعمرات ثابتة .

اما نشاطات الملاحين الجنوبيين والبندقين الثانية ، خلال هذه الحقبة فهي التالية : استيراد محاصيل الشرق من شب وتوابل ومصنوعات بدخية الى اوربا ، وتصريف بعض انتاج الصناعة الاوروبية ، ولا سيما الجوخ ونسيج الكتان الى الشرق ، ومساحلة بين الموانئ الاسلامية ابتداء من آسيا الصغرى حتى مراكش . وهي نشاطات وافرة المكاسب حقاً لانها تناولت بضائع ثمينة جداً ، ولان المبيعات ، في المرافئ المغربية الغنية بالمعدن الاصفر ، كانت تسدد ذهباً دونما صعوبة . ولكنها نشاطات خطيرة ايضاً ، لانها تفرض المجازفة برؤوس اموال هامة تكون بالضرورة تحت رحمة البحر والقرصنة . لذلك فان التحسينات التقنية المدخلة ، منذ السنة ١١٥٠ حتى اوائل القرن الرابع عشر ، على العمل التجاري والمالي ، قد استهدفت اول ما استهدفت ، بالاضافة الى تنظيم التصريف ، الحد من هذه الاخطار وتخفيف شدتها . ولكن مثل هذا التقدم لم يتحقق في البندقية اذ ان الجمهورية ، وهي شراكه مصالح واسعة خضعت بكليتها ، منذ الربع الاخير من القرن الثالث عشر ، لرقابة كبار التجار ، قد اخذت ابداء على عاقبها ومسؤوليتها كل الاخطار الكبرى واحتكرت بناء السفن ونظمت ، في مواعيد محددة ، قوافل تجارية جماعية توأكبها سفن الحماية . ولم يؤمن ضمان رؤوس الاموال الا بالاكتثار من عقود الشراكة الفردية : وكانت الغاية من هذه العقود التوفيق بين رجل شاب ونشط يكلف مواكبة البضاعة بحراً وادارة الاعمال في المناطق النائية ، وبين متمول في سن النضج يقدم القسم الاكبر من رأس المال ويوظف في كل رحلة عدة مبالغ مماثلة بغية موازنة الاخطار . اما جنوى ، وهي مدينة خضعت لنظام اكثر فردية ، فقد عرفت انواع شراكات اعظم كمالاً . فقد كان بناء السفن ، وهو الصناعة الرئيسية في كافة هذه المدن البحرية - لان السفينة ، في القرن الثاني عشر ، تخلق بسرعة ويجب ابدالها بعد مرور خمس او ست سنوات - منوطاً بشركات

يملك كل من اعضائها قسماً من السفينة ويبتون بأكثرية الاصوات في امر استخدامها ويستغيثون القبطان ويتقاسمون الارباح . وارتكز تمويل المشاريع التجارية بصورة خاصة الى عقود « طلب » لا تفرض على التاجر البحار اي اسهام في رأس المال بل تكلفه استثمار النقود التي يقدمها الممول . وما لبثت هذه العقود ان تطورت فتركت للشريك العامل مزيداً من الحرية والمبادأة ، فقام في منتصف القرن الثالث عشر ، بين الاسواق الجنوبية المختلفة وبين المدينة الأم ، نوع من نظام القروض البحرية المرتفعة الفائدة ، على ان لا تسدد الا اذا حالف التوفيق الرحلة ، وهي الاشكال الاولى للضمان ضد الاخطار البحرية . فادت هذه الترتيبات الجزأة ، وهذا التعاون بين مقرضي الاموال ، المنحدرين بمعظمهم ، من ارسطوقراطية ملاكي الاراضي ، وبين العملاء الضليعين بامور الملاحة والتجارة ، الى تقدم الاعمال تقدماً مستمراً في المرافئ الايطالية .

وتعاطى بوجوازيو المدن الايطالية الداخلية ، التي تأخرت في الاهتمام باقتصاد المقايضات ، تجارة المسافات الطويلة ايضاً ، باستخدام سفن المدن الساحلية ولا سيما سفن جنوى . ولكنهم القوا شرائك اطول بقاء من شركات « الطلب » وشركات العقود الفردية وجمعوا رؤوس اموال اعظم شأناً ، فتعاطوا ، الى جانب هذا النشاط ، الصناعة والعمل المصرفي : صناعة الحرير في لوبك والصوف في ميلانو حيث الخامات الآتية من سردينيا وافريقيا الشمالية وانكلترا ، وفي فلورنسا حيث حولت الاجواخ المحلية والفنكية الى مصنوعات بذخية من الطراز الاول ، وعمل مصرفي في الاوساط اللومباردية والبيموننتية الصغرى ، اسقي ، وكيري ، ونوفاري التي سلك سكانها منذ القدم طرقاً جبال الالب فانثروا ، صرافين ودائنين وتجاراً ، في كافة انحاء فرنسا الشمالية حيث زاحوا سكان كاهور ، الاختصاصيين الاول في العمليات النقدية ، وفي سينتا التي اخذ رجال الاعمال فيها على عاقبتهم منذ عهد مبكر ، جمع مداخيل الكنيسة الرومانية ، وفي بليزانس التي تعاطت نقل البضاعة والصرافة والاقرض بالاتفاق التام مع جنوى والتي جاء منها ، في اواخر القرن الثالث عشر ، اكبر ممولي باريس . ثم ان فتح ايطاليا الجنوبية على يد « شارل دانجو » (١٢٦٦ - ١٢٦٨) ، وقد انفق عليه البورجوازيون التوسكانيون لقاء الحصول على مركز اقتصادي ممتاز في مملكة صقلية ، وانهزام السينتين واللوكيين بعد ذلك ، جعلوا الحظ يحالف الشركات الفلورنسية ، حوالي السنة ١٣٠٠ ، محالفة مدهشة .

تأسست هذه الشركات حول احدى العائلات بانضمام بعض الدائنين (ويتراوح عددهم بين ٥ و ٢٠ على العموم) المتساوين قانوناً ، المنصرفين عن الاسهام في اي مشروع آخر ، المكرسين كل نشاطهم لخدمة الجماعة ، وكانت تتصرف برأس مال هام جداً قوامه مساهمة الشركاء ولا سيما الامانات الخاصة . وكان يعاونها عملاء مأجورون يوزع معظمهم على مختلف الفروع المؤسسة في شتى مراكز الاعمال الرئيسية في ايطاليا والشرق الادنى والغرب الاوربي (في بروج ولندن وباريس ، وفي افينيون بعد ان امست مقراً للبلاط البابوي) . وزاولت هذه الشركات ، السقي عنيت بصناعة الصوف وكافة الاعمال التجارية ، النشاطات المالية بنوع خاص ، اي نقل الاموال

من مكان الى آخر ، والاتجار بالذهب ، مسكوكات او سبائك ، ولا سيما الاقراض بفائدة تراوح بحسب الاخطار ، بين ٧ و ٣٣ ٪ . وما لبثت ان اضطرت ، توطيداً لمركزها في البلدان الاجنبية ، وتلافياً لخطر الابعاد والحجز المهددة ابداً بالاجانب ، وسمياً وراء الحماية من عسداء البلديين المستتر الدائم ، الى تسليف الأمراء اموالاً طائلة جداً . ثم انتهى الأمر بها ، بسبب تفوقها التقني ، واحتياطها النقدي الذي اتاح لها تقديم مبالغ طائلة ، في قليل من الوقت ، الى ادارة اموال بعض الدول . وهكذا فقد آل كل اقتصاد مملكة ألجو الايطالية ، في اوائل القرن الرابع عشر ، الى ايدي الصيارفة الفلورنسيين ؛ ولعب هؤلاء دوراً متزايد الأهمية في الآلة الجبائية ، المطردة التسلط ، العاملة في خدمة البابوية ؛ وبين السنة ١٢٨٠ والسنة ١٣١٠ سلفت شركة «فرسكوبالدي» ملك انكلترا اكثر من ١٢٢٠٠٠ ليرة استرلينية ، بينما كان اثنان من عملائها «بيش» ، «وموش» مستشارين ماليين للملك «فيليب له بيل» . وجلي ان اعمالاً تجارية على هذا الاتساع ، متوقفة على حسن نوايا الملوك ، ومهددة بالحروب والاضطرابات الشعبية وهبوط اسعار المعادن الثمينة ، لم تكن بآمن من الاخطار ؛ وبما ان الامانات كانت متوجبة الدفع حين الطلب كان من شأن اقل ارتباك عابر ان يفضي الى انهيار الشركة كلها وافلاس الشركاء ، المسؤولين باجسادهم وممتلكاتهم دونما تحديد . ولذلك لم تكن الافلاسات امرأ نادراً في فلورنسا . الا ان هذه الاعمال التي ادارها مركزيا تجار مقيمون في اماكن ثابتة اجمالا ، والتي قامت باطراد على الكتابة والحاسبة الصحيحة (وهي ما زالت بدائية في الحقيقة على الرغم من استخدام الاعداد العربية والصفر منذ السنة ١٢٦٠ تقريباً) ، لم تتوقف ، في الربع الاخير من القرن الثالث عشر ، عن التوسع توسعاً مستمراً في كافة المحاء ايطاليا ، وانتهت تدريجياً الى تطبيق الاقتصاد الاوروبي بكيالته : واذا حافظت الشراكة الهانزية على استقلالها واستمرت في التحكم بتجارة البلطيك كلها ، فهم التجار الايطاليون من سيطروا ، بعد السنة ١٣٠٠ ، على معظم تجارة الاصواف الانكليزية ... حيث حلوا محل التجار الفلمنكيين - والذين كانت مؤسساتهم في بروج اعظم المؤسسات ازدهاراً .

تم الاتصال ، حتى ذاك العهد ، بين المركز الابيطالي ومركز بحر الشمال اسواق شمبانيا الدورية بواسطة الطرقات البرية التي تجتاز جبال الالب ومملكة فرنسا . فقامت منذ القرن الثاني عشر ، في مضارب شمبانيا حيث تتقاطع هذه الطرقات ، اسواق تلاقى فيها التجار الاوروبيون . في القرن الثالث عشر ، غدت هذه الاجتماعات التجارية الستة (واحد في لانبي وآخر في بار - سور - اوب ، واثنان في بروفين ، واثنان في طروا) التي يدوم كل منها ستة اسابيع وتتعاقب في مدار السنة ، المركز الحقيقي للتجارة الكبرى ، الذي لم يؤمه تجار الاجوانح في ارتوا وفلاندر ، والايطاليون بانمو الشب والتوابل فحسب ، بل تجار بروفنسا وانكلترا والمانيا وكاتلونيا ايضاً . انطوت كل سوق على مرحلتين متواليتين ، خصصت الاولى منها (دخول ومبيع) للصفقات التجارية ، والثانية (خروج) لتصفية الحسابات بين التجار وقد احكم فيها نقل الاموال من سوق الى سوق ، منذ اوائل القرن الثالث عشر ؛ ولما كانت

كبار رجال الاعمال في العالم المسيحي هم الذين يشتركون في هذه الاجتماعات شبه الدائمة ، اختيرت الاسواق الشمبانية تدريجياً مكاناً تدفع فيه معظم الديون وامست مركزاً لمعاملات كثيرة تستهدف التمويل عن الديون . وانتشر كذلك ، بواسطة هذه الاسواق وبفضل الايطاليين ، اللجوء الى الاقرار بالديون الذي اعتبر ، بشكل بدائي ، بمثابة سندات دين تدفع في مكان وبعملة يعينان مسبقاً . فلمبت اسواق شمبانيا ، بفضل هذه « السفتجات » ، وعمليات التمويل بين التجار ، دوراً رئيسياً في توسيع التجارة الغربية الكبرى ، اذ انها ساندت اعمالاً مطردة النمو على الرغم من الحاجة الى تغطية نقدية حقيقية .

بلغ نشاطها المتزايد ذروته حوالي السنة ١٢٩٦ . غير اننا نشاهد في السنوات الاخيرة من القرن الثالث عشر ، بروز ظواهر لن تلبث ان تحد من دورها . فهناك في الدرجة الاولى استقرار التجار تدريجياً في مراكز ثابتة ، مما اتاح لهم ، بعد تعدد الشركات ذات الفروع واستخدام الوثائق التجارية المكتوبة ، التفاوض في امور الاعمال دون مواجهة الزن ؛ واقامة الايطاليين في الامكنة الرئيسية من شالي غربي اوروبا ؛ وانشاء شبكة طرق جديدة تحايد شمبانيا . فان بناء جسر فوق نهر الروس قبيل السنة ١٢٣٧ قد فتح طريقاً جديدة وصلت البندقية وميلانو بالفلاندر مروراً بسان غوثار . ثم اتاح تقدم التقنية البحرية ، في السنة ١٢٧٧ ، للسفينة الجنوبية الاولى بلوغ بروج مباشرة ، ثم انكثرت في السنة التالية . وهكذا فقد قامت منذ السنة ١٢٩٨ اتصالات بحرية منظمة ، اقيم في العقد الثاني من القرن الرابع عشر خط بندقي بموازة الخط الجنوبي ، فتم بذلك تجهيز وسيلة نقل نحو الفلاندر افضل الى حد بعيد من النقل بواسطة المرات . وحدث اخيراً تبدل ذو طابع اعم اسهم في انحطاط اسواق شمبانيا ، اعني به تقدم الحياة المدنية المطرد . وقد ارتدى هذا التقدم اشكالا كثيرة - ففي القرن الثالث عشر اخذت المدن الصغرى تظهر في المناطق الدائرية من العالم المسيحي ، المانيا رانكلترا وسكنديناويا ، التي كادت تكون ريفية بكليتها قبل ذلك التاريخ - ولكنه تميز خصوصاً باحداث المراكز المدنية الكبرى ، فغدت هذه الاخيرة اسواقاً نشطة واماكن دائمة لتصرف البضائع في مناطق مطردة الاتساع ، وقامت ، بالنسبة لمثل منطقة ، بدور الاسواق نفسه ؛ وهكذا اتجه النشاط التجاري في فرنسا الشمالية الى التركز في باريس ، المدينة العظيمة ، التي ربما بلغ سكانها ٨٠٠٠٠ نسمة في عهد « فيليب له بيل » . وجاء اخيراً التحول الداخلي في الشركات الايطالية الكبرى ، التي باتت اجهزة ذات فروع ، تتفق والظروف الجديدة الناشئة عن قيام هذه المدن .

ان التوسع التجاري ، الذي تحلق بسرعة لاسيا في العقود الاخيرة من القرن الثالث عشر ، قد احدث تغييراً في الوسط الاقتصادي واستلزم في الدرجة الاولى وضع نظام جديد للتداول النقدي . فقد ارتفعت كمية المعادن الثمينة المتداولة بفعل تجارة المحاصيل الفائضة التي زاولها الايطاليون في سواحل افريقيا الشمالية وانتاج المهاجرين الالمان الذين استثمروا مناجم فضية جديدة في اوروبا الوسطى ، لاسيا مناجم فريبرغ في ساكس التي اكتشفت حوالي السنة

١١٧٠ . ولكن هذا الارتفاع في الكمية المعدنية بقي طفيفاً ، ولم تتعادل نسبة وسائل الدفع ونسبة الصفقات الا بفضل تزايد تداول النقود الذهبية والفضية وتنظيم وسائل الدفع الاخرى والبيع ديناً . ومع ذلك فقد طرأ تحسن ملموس على المسكوكات . ففي الدول التي توطلت سلطتها في كل مكان على السیادات الاقطاعية ، لم يترك اصدار الامراء للنقود الجيدة الثابتة القيمة - كالجنيحات السترلينية الانكليزية في اواخر القرن الثاني عشر او كاهلتر في سواب - سوى دور محلي للنقود الصغيرة السوداء غير القانونية ، التي كانت تسك في المصانع الخاصة . اصف الى ذلك ان مقتضيات التجارة الكبرى قد اوجبت ضرب قطع نقدية تفوق ، عیاراً ووزناً ، تلك التي راجت اثناء حقبة الانكماش الاقتصادي . فمنالك اولا القطع الفضية «الكبيرة» التي تزن اكثر من غرامين وتعادل ١٢ درهماً ، اي انها تعادل القطعة القديمة المعروفة بـ *Sili* التي حصر استعمالها في حسابات بيع الجملة ؛ وقد ضرب القطع الفضية الاولى في البندقية في السنة ١١٩٢ ، فاعتمدتها على الفور المدن الايطالية الاخرى ؛ وفي السنة ١٢٦٦ اصدر القديس لويس القطع التورونية (نسبة الى مدينة تور) الكبيرة ثم القطع الباريسية الكبيرة (وهي اربعة اضعاف القطع التورونية) التي انتشرت في هولندا وواادي الرين عن طريق اسواق شهبانيا الدورية ، وغدت اساساً لحسابات بيع الجملة في الامارات الفلمنكية . وفي منتصف ١٢٣١ اصدر فردريك الثاني في صقلية القطع الاوغسطية ولكنه لم يضرها الا طلباً للنقود وللإستهلاك المحلي فقط ؛ وفي السنة ١٢٥٢ ، اصدرت في جنوى وفلورنسا في آن واحد قطع نقدية ذهبية مرتفعة العیار تزن ٣ غرامات ونصفاً وتساوي عشرين قطعة فضية كبيرة (الجنوي ، الفلورين) وهي القطع التي اصبحت ضرورية لاقتصاد سريع التوسع آنذاك ما كانت النقود البيزنطية او العربية تلبي بحاجاته . ووضعت في التداول قطع مماثلة في ميلانو ، ثم في البندقية ، في السنة ١٢٨٤ . وفي فرنسا وانكلترا اصدر القديس لويس وفيليب له بيل وهنري الثالث ايضاً بعض القطع الذهبية ولكن بكميات محدودة ؛ واذا راج المعدن الاصف في هذه البلدان ، فقد راج بشكله الايطالي بنوع خاص . وان في النجاح الغريب الذي صادفه الفلورين الذهبي ، وهو اساس قوة الشركات المصرفية التوسكانية ، لاوضح رمز لاتساع النشاط الاقتصادي .

ان ارتفاع الاسعار الذي رافق ، منذ القرن الحادي عشر ، نمو المقايضات والتداول النقدي قد تواصل خلال هذه الحقبة ؛ وهكذا ارتفعت الاسعار الزراعية في نورمنديا ، كما ارتفع بدل الارض ، نتيجة لذلك ، بنسبة ٥٠٪ بين السنة ١١٨٠ والسنة ١٢٦٠ . وتميزت هذه الحقبة ، كما سبق ورأينا ، بقيام المدن الكبيرة ، وان في تشييد الكاتدرائيات العظمى لدليلاً على الرخاء الذي عم كافة هذه المدن المطردة النمو . وتنظمت آنذاك من جهة ثانية الحرف الصناعية ؛ فالتف ارباب العمل والرفاق والعمال الاختصاصيون في عمل معين ، حول اخوية دينية خيرية ، والفوا شركات عرفت بـ « الحرف » « والفنون » ؛ وقد نظمت هذه التجمعات مزاولة المهنة وساولت في الدرجة الاولى ، عن طريق رقابة مدة العمل وطرائقه ونوع الانتاج ، الحد من المزاخرة وتأمين المساواة بين ارباب العمل .

تسرب الاقتصاد التجاري في الوقت نفسه تسرباً عيقاً الى الاوساط
تكيف الاقتصاد الريفي

الريفية . فقد انفتحت امام المنتجين الريفيين اسواق متزايدة الاتساع
دعتهم الى تخصيص قسم من محاصيلهم للبيع . ورافقت هذا الوضع الجديد ، الذي تشهد عليه
بعض بنود الاتفاقات حول الاعفاءات ، والذي أجاز للفلاحين اقتناء العيارات وألغى الموائق
المقامة في وجه التجارة والاحتكارات السيديّة ، وحدث في القرى اسواقاً دائمة ومعارض
موسمية للحيوانات ، تبدلات عميقة في نظام المشاريع الاستثمارية الريفية . فنمت زراعة
الكرمة على جنبات طرق التصدير ، وانتشرت من ثم كروم واسعة في مناطق فرنسا الاطلسية
اتصلت اتصالاً مباشراً بمرفأء التصدير ، اوليرون ولاروشيل وبوردو . وانتشرت كذلك
زراعة النباتات الصبغية في شمالي فرنسا وفي المنطقة التولوزية وفي سهل الدو . ونمت تربية
الماشية لتموين المدن الكبرى باللحوم ، فمنذ القرن الثالث عشر امن اللحامون الباريسيون
حاجتهم من « برياء » ونورمنديا ، وقلبت تجارة الصوف اقتصاد الارياف الانكليزية ظهراً على
عقب ، اذ ان الفلاحين والاسياد اخذوا يسمعون وراء اقتناء المزيد من المواشي لتلبية طلب
المصدرين . ويجب هنا ان نذكر واقعين يمتان بصلة الى هذا التبدل في ذهنية المنتجين الذين لم
يهتموا آنذاك للعيش من ارضهم فحسب بل لتحسين انتاج استثمارهم ايضاً رغبة منهم في الكسب
التجاري . فهناك ، من جهة ، تعدد الاشكال الجديدة لاستثمار الاراضي ، الذي لم يعد دائماً بل
حدد باجل قد لا يتجاوز سنوات معدودات احياناً : فقد انتشرت عقود الضمان وعقود المزارعة
انتشاراً سريعاً في فرنسا وابطالياً ، مما اتاح سهولة استبدال المزارعين المهملين بالمزارعين
الاكفاء ، والمطالبة باعتماد افضل الطرائق انتاجاً ، والتوفيق دوراً بين دخل الارض وانتاجها
الحقيقي . ومن جهة اخرى وضعت المؤلفات الزراعية ، كالبحث في « زراعة الكرمة وتربيتها »
لـ « والتر دي هنلي » او بحث « بيير كريستينوس » البولوني (نسبة لـ *Bologne*) في الموضوع
نفسه ، التي كان يجاها ، في كافة انحاء اوروبا ، عظمياً جداً ورائداً . يضاف الى ذلك ان انتشار
الدين في الارياف ، حيث غالباً ما ينص العقد على ان الجبوب هي مادة قرض الاستهلاك حتى
تفرض عليها فائدة موهمة (اذ ان اجل الوفاء يحدد في موعد ارتفاع الاسعار) ، وان عقود
الطلب التي يسلم الممول بموجبها مواشيه لاحد المربين بغية مقاسمته انتاج القطيع ، هما ايضاً من
بوادر هذه الذهنية التجارية التي تسربت الى عالم الحقول .

وبلغت النظر ان اسياد الارض قد أفادوا احياناً اكثر من الفلاحين من هذا التوسع التدريجي
في آفاق الاستثمار الزراعي ومن هذا الارتفاع في نسبة النقد المتداول ، وذلك بمضاعفة الجهود
في الأعمال الزراعية وبفرض المزيد من الموجبات . فكانت هذه اولاً حال البورجوازيين الذين
وظفوا اموالهم في السیادات العقارية بغية استثمارها كما تستثمر في الاعمال التجارية ؛ فقد طبقوا
بشدة الصمغ الجديدة للاستثمار المؤقت ؛ وحدث بسرعة في ضواحي المدن التوسكانية ان
ثقلت وطأة شروط المزارعة في السنوات الاخيرة من القرن الثالث عشر لمصلحة سكان المدن .
وفي الوقت نفسه ، تمیز تقدم المقايضات ، في الارياف الانكليزية ، بتميز وضع السيد وبتميز

الاستثمار المباشر: فقد توسع باستمرار، وعلى حساب أراضي المزارعة ، احتياطي الأرض السيدي التي اطردها تحسين استثمارها بفعل اتقان طريقة استراحة الاراضي سنة كل ثلاث سنوات وبزراعة القرنيات في الاراضي البائرة ايضاً؛ وقد ضوعفت في الوقت نفسه الخدمات المفروضة على المزارعين.

الا ان صفار المستثمرين كانوا ، احياناً اخرى ، المستفيدين الاول من الاتجاه الاقتصادي الجديد . فان نبلاء فرنسا بنوع خاص ، الذين اعتبروا الاهتمام للكسب متعارضاً وشرفهم واحتقروا كل نشاط تجاري ، قد استفادوا من انتشار الاقتصاد النقدي كي يتحرروا من استثمار أراضيهم استثماراً مباشراً . ودون ان يصبحوا يوماً اصحاب دخول من اراضيهم ، انقصوا مساحة احتياطهم وأجروا منه قطعاً كبيراً رؤساء الأعمال القدماء في منزلهم ، وآثروا استيفاء الأتاوات قطعاً نقدية ، فاستبدلوا بالنقد الضرائب العينية القديمة ، وذلك بالاتفاق مع المزارعين الذين لمسوا الفائدة من تصريف فائض حصانهم بأنفسهم في الأسواق المختلفة . وهكذا فان تصريف محاصيل الارض تجارياً قد تحقق ، في معظمه ، بفضل الفلاحين أنفسهم ومصالحتهم ، ناهيك عن ان وضعهم في السيادة العقارية قد تحسن تحسناً مستمراً . فان انقاص الاحتياطي قد أدى بالسيد الى التخلي عن معظم اعمال التسخير التي ما زال يفرضا لقاء تمويزات مالية ؛ ولم يطالب مزارعيه قط ، بعد ذلك ، الا بالدرهم ؛ ولكن الارتفاع المستمر في الاسعار قد خفض قيمة هذه القطع ، فخفض من ثم اعباء الفلاحين : فقد غدا كراء معظم الاراضي ، في اواخر القرن الثالث عشر زهيداً جداً نسبياً . واضطر أسياد كثيرون اخيراً ، للتعويض الى حين عن الهبوط التدريجي في قيمة مداخيلهم وللتخلص من ضائقة عابرة ، الى ان يبيعوا من اقباعهم بعض الحقوق التي كانوا يمارسونها حياتهم : فحصلت الجمعيات القروية ، المتزايدة باطراد ، بموجب اتفاقية اعفاء ، على الغناء أكثر الموجبات ازعاجاً .

التبدلات الاجتماعية
حوّر التطور الاقتصادي من ثم العلاقات بين فئات المجتمع المختلفة التي كانت قد تحددت في مرحلة الانكماش على الارض . كانت هذه التبدلات الاجتماعية معقدة في الواقع ، وكانت أجلى نتائجها ايجاد المزيد من الفوارق بين الطبقات وتبعد المسافات - كما درج التعبير في ايطاليا آنذاك - بين الجسام والهزلى . وآلت على العموم ، كذلك ، الى ازالة التوازن بين الطبقات القانونية : فقد تحسن وضع العديد من غير النبلاء بينما ظهرت بوادر الانحطاط في طبقة الاشراف .

اما داخل طبقة الفلاحين ، حيث كانت الاوضاع الاجتماعية ، في اوائل القرن الثالث عشر ، اخذت في التناقص والتشابه ، فقد ادخل انتشار الاقتصاد النقدي مزيداً من الفوارق . واجه بعض الريفين حركة المقايضات المتزايدة على حين غرة ولم يهياؤا للسعي وراء المكسب وأرغموا على مضاعفة الانفاق ، فتأخروا مادياً واضطروا ، لسد عجزهم ، الى الاستقراض ، ورهن قسم من ارضهم ، وبيع بعض دخول ملكهم ، وتحويل ملكهم الخاص احياناً ، لقاء مساعدة ما ،

الى ارض تابعة لاقطاعة ، والقبول ، في سبيل تأمين المعيشة ، بأوضاع متزايدة الشدة . وما لبثت هذه الطبقة المنحطة المعرضة للاستثمار من قبل الاغنياء ، ان رأت بألم العين اقرار تدنيها ، حين أقدم رجال القانون المحترفون ، خلال القرن الثالث عشر ، وبتأثير من معرفتهم للحق الروماني ، على تطبيق مفردات العبودية الواردة في هذا الحق على أفرادها ، باعثن حيالهم رقاً جديداً يختلف بعض الاختلاف عن الرق القديم ويتميز بأعباء نوعية وبالخضوع لتعسف السيد . كان هؤلاء الارقاء القديادون قليلي العدد في فرنسا ، ولكنهم ألفوا في انكلترا ، بفعل اشتداد النظام الاقطاعي ، سواد سكان الارياف . وانما يبدو بصورة عامة ، باستثناء الارياف الانكليزية وضواحي بعض المدن الايطالية الكبرى ، ان وضع جمهور الفلاحين قد تحسن تحسناً مادياً محسوساً ، وعرف في النصف الثاني من القرن الثالث عشر ، على الرغم من زيادة الحقوق السيدية الاميرية وتكاثر ضرائب الاقتطاع والمساعدات النقدية التي غالباً ما فتحت الثغرات في اذخار الارقاء ، فترة يسار استثنائية تمادت ذكرها لدى الجماهير وأسهمت في فرنسا ، كما نرجح ، في اعلاء نفوذ القديس لويس واطالة التحدث بملكه . وحدث اخيراً ان ارتقت لجة ضئيلة من الريفين سلم الثروات . والدليل على هذا الارتقاء ، الذي اعتبره الفرسان مشيناً ، ان موضوع الفلاح الحديث النعمة ، الهزأة والذير الجدير بالثروة ، قد انتشر فجأة في ادب اوائل القرن الثالث عشر . فنادرة في الحقيقة هي القرى التي لم يتوصل احد فلاحيها ، بفضل مهارته في بيع انتاج عمله ، الى اذخار رأس مال صغير وتحصيل بعض الدخول من اراضي جيرانه وابتلاع بعض الاراضي من الفرسان المتهقرين ، وبالتالي الى تكوين سيادة صغرى ، وفرض سيطرة اقتصادية رابحة على القرية ، والعيش عيشة انبلاء دون عمل ؛ وتزوج العديد من هؤلاء الحديثي النعمة من بنات الاشراف الريفين وتوفى البعض منهم ، بعد السنة ١٢٥٠ ، الى الفوز بلقب اشراف .

جلياً ان الارتقاء الاقتصادي كان أكثر تقدماً الى حد بعيد في المدن حيث يمكن كسب المال واستثماره بمزيد من السهولة . ولكنه لم يكن شاملاً هنا ايضاً ، وأدى التطور الى اخضاع شطر من سكان المدن للشطر الآخر . ولدينا الكثير من الامثلة ، في الاوساط التي مرّت بها الطرقات التجارية الرئيسية في منتصف القرن الثاني عشر ، عن تجار جمعوا ثروات طائلة ، وأخذ الكثيرون منهم منذ ذاك الوقت اموالهم المنقولة الى ممتلكات غير منقولة : فأعادوا بناء مسكنهم بالحجر واسترهنوا العقارات واشتروا الاعشار والدخول والسيادات في ضواحي المدن . فاستقرت من ثمّ الثروات وتكونت شيئاً فشيئاً في كافة المدن طبقة محدودة مسيطرة استمر افرادها في جمع الثروات عن طريق مزاوله الاعمال ، متسلحين ضد تقلبات التجارة بثروتهم العقارية . ولما كانوا يتعاملون العقادة والصيرفة ، فقد احتفظوا لانفسهم ، بفضل اموالهم النقدية ، بأوفر النشاطات كسباً وبتجارة المسافات الطويلة والاتجار بالنقد . وقد سيطرت شركاتهم المهنية سيطرة كلية على « حرف » الصناعيين والسامرة الصغيرة ؛ ولما كانت هذه التجمعات تؤلف هيكل مجتمع المدن وتقوم ، كما هو طبيعي ، بإدارة الشؤون العامة ، فقد راقب اوسع البورجوازيين ثروة ،

برأسطة اقوى الشركات المهنية ، ادارة الشؤون البلدية ، وجمعوا مراكز القضاء الرئيسية في المدن الداخلية في نطاق تكتلهم . وهكذا فقد فرضت طبقة كبار تجار الجوخ الاشراف في مبدن فلاندر الصناعية ، لمصلحتها ، الانظمة على المهن الدنيا ، التي يزاوها عمال الصوف ؛ وهكذا ايضا اديرث شؤون التكتل في فلورنسا من قبل الفنون « الكبرى » الاثني عشر ، وقد احتل المركز الاول بينها كبار رجال الاعمال ، «تجار كالياالا» . فتوصلت فئة البورجوازيين الاثرياء ، بقبضها على زمام المؤسسات المدنية ، الذي اتاح لها ان تنظم حياة المدينة الاقتصادية خير تنظيم لمصلحتها وتدير اموالها العامة ، الى ارساخ تفوقها ارساخا نهائيا ، فاتسعت الهوة التي تفصلها عن الطبقات المتوسطة . ومالت طبقة الاشراف طبعا الى ايصاد ابوابها في وجه حديثي النعمة ، وهذه ذهنية طبقية يعبر عنها افعال المجلس البندقي الكبير في السنة ١٢٩٦ مثلا . وقد فاز بعض اعضائها بالنبل عن طريق القروسية : ففي فلورنسا اختلطت الارستوقراطية المنحدرة من اصل غير نبيل ، خلال القرن الثالث عشر ، بانسال عائلات الفرسان العريقة ؛ ولم يكن ارتقاء النخبة البورجوازية هذا الى مرتبة الاشراف وفقاً على المدن الكبرى دون غيرها . ولكن اولئك الذين لم يتسلخوا اسلحة الفرسان ، وامتلكوا مع ذلك الاراضي الواسعة والقصور ومارسوا حق التصرف وجمعوا بالاضافة الى ذلك كميات ضخمة من الذهب والفضة ، قد احتلوا في مجتمع اواخر القرن الثالث عشر مركزا ارفع مرتبة من مركز معظم الفرسان .

اذا ما استثنينا انكلترا حيث عرف الاسياد كيف يستثمرون اقطاعاتهم بمحاذقة ، واراضي الاستثمار الزراعي في المانيا الشرقية حيث تألفت طبقة قوية هي طبقة الاشراف القرويين ، وايطاليا وبعض مدن فرنسا الجنوبية حيث اقام الاشراف برضام في المدينة واسهموا في النشاط التجاري ، رأينا ان التطور الاقتصادي قد الحق الضرر بالاشراف العريقين . فقد تعددت مناسبات الاتفاق امام الفارس ، الذي لا يأتي عملا ، والذي يعتبر التبذير فضيلة كبرى . ولم يعد في القرن الثالث عشر ليرتضي بمعيشة اجداده الريفية القانعة ؛ بل ثابر على التردد على الجمعيات والبللاطات ، ولم يكن جائزاً له ، من باب اللياقة ، الدخول اليها اذا لم يرتد ملابس « شريفة » الالوان يبتاعها من التجار ؛ وما زالت العدة العسكرية تتعقد يوماً بعد يوم ، واذا هي أمست أكثر فعالية ، فقد أمست أكثر غلاء ايضاً . وتكامل كذلك فن التحصين ومهاجمة الحصون ؛ فتوجب تحويل البرج الحنشي والتراپي القديم الى جهاز مركب من الاسوار الحجرية ؛ وغالباً ما اضطر حكام الحصون آنذاك الى تجنيد المتطوعين المحترفين المأجورين - انتشر الارتزاق العسكري في الغرب في الثلث الاخير من القرن الثاني عشر ، وبعد مرور مئة سنة غدت الجيوش كلها مأجورة - كما اخذ صفار الاشراف ايضاً يحفرون الخنادق حول مزارعهم ويشيدون بجانبها الحصون ويحولونها الى بيت محصن . وجلي ان كل ذلك تطلب مالا وفيراً ، لا سيما وان الأسعار كلها كانت آخذة بالارتفاع . وانتشر استعمال الدراهم من جهة ثانية في كل مكان ؛ وكفوا عن اعطاء البنات نصيبهن من الارث العقاري مبدلينه ببائنة نقدية ؛ وأخذوا يهبون الكنائس قليلا

من الارض ومزیداً من النقد ؛ وطلبوا في وصياتهم احياء الاعياد السنوية واقامة القداديس وتشيد الكنائس بفرضهم على املاكهم دخولاً نقدية دائمة تضخمت قيمتها جيلاً بعد جيل ورتبت أغباء ثقيلة على الورثة . أجل لقد ساعد امتلاك الاعشار والاستمرار في استثمار احتياطي ضيق استثماراً مباشراً على ايدي الخدام المنزليين على تأمين معيشة العائلة وتلافي النفقات الغذائية ؛ ولكن الفارس يفتقر الى المال لكافة الحاجات الاخرى . فعلى الرغم من ان استبدال الأتوات وأعمال التسخير بضرائب نقدية واتساع الحقوق الاميرية السيديّة - فجميع الأشراف طالبوا أقباعهم آنذاك بالمساعدة المالية ، وأخضع الفدادون الجدد في فرنسا للاقتطاع التسعفي - قد زادا موارد الأشراف النقدية ، فان هذه الموارد باتت غير كافية واختل باستمرار ، في السنوات الاولى من القرن الثالث عشر ، ميزان حسابات الفرسان . فالجاء الأشراف ، للمحافظة على مستوى معيشتهم ، الى الاستدانة - لا من انسابهم واصدقائهم ، كما فعلت الاجيال السالفة ، وكلهم يتخبطون في الضائقة نفسها - بل من المؤسسات الدينية المزدهرة ، ومن البورجوازيين و « لومباردي » المدن والامراء . ثم اخذوا ، بعد استنزاف المال المستدان ، يبيعون اراضيهم قطعة قطعة : فكان هناك بيع الخضوع (لقاء مال مسلف او تسديداً لدين) وبيع الحقوق او الاراضي النبيلة التي كثيراً ما اشتراها فلاحون افرياء او متمولون بورجوازيون يبعثون عن توظيف مضمون لامواهم .

كان من شأن هذا الاضطراب الاقتصادي وهذا الافتقار التدريجي - الذي اعتبره الفرسان ضيقاً عابراً لن يلبثوا ان يتغلبوا عليه - وهذا الهبوط الذي يستلزم الانتباه اليه ارتقاء بعض الطبقات من غير النبلاء ، ايجاد ردة فعل دفاعية في اوساط الأشراف . فتدخلوا تدريجياً ، بغية حماية الاملاك العقارية ، عن العادة القديمة العاقضية باجراء قسمة متساوية بين ورثة من درجة واحدة ، ودرج العرف على ابقاء النصيب الأكبر للبكر ، او ادخال كافة اخوته الحياة الرهبانية . وتسلك الأشراف في الوقت نفسه بعد ان فقدوا تفوقهم عملياً ، بامتيازاتهم الشرفية وبالشارات الخارجية لتمييزهم الطبيعي . واحتفظت لهم انظمة السلم الالمانية ، في اواخر القرن الثاني عشر وخلال القرن الثالث عشر ، ببعض الملابس وبعض الالوان المعينة ، وحظرت حمل الاسلحة على غير الأشراف ؛ وقد حاولت المجموعات الفرنسية ، التي تبحث في الاعراف ، اظهار استخدام المؤسسات الاقطاعية وكأنه وقف على الأشراف ، واعارت اعتبار النبلاء اهمية اعظم - على الاقل - من اعتبار العامة . اما نتيجة تفاقم الروح الطبقيّة هذه ، فهي ان الفرنسيين نظروا الى النبيل في السنوات الاولى من القرن الثالث عشر ، وكأنه صفة مميزة من صفات الرسالة العسكرية ، اي الفروسية ، ومن ثم الثروة ، تنتقل بالوراثة طبعاً ؛ فبرزت نعوت جديدة (« الفارس » في الشمال و « الشريف الشاب » في الجنوب) تظهر تفوق انسال الفرسان اجتماعياً الذين لم يتوفقوا الى حل الاسلحة على الرغم من بلوغهم السن القانونية لذلك . أجل ان اثبات الطابع الوراثي للنبيل قد حصره ضمن حدود معينة ، ولكنه لم يمنع الارياء الجدد من اجتيازها :

قلة اجتازتها بالكذب بعد ان عاش افرادها حياة الاشراف مدة طويلة كافية لانساء اصلهم ، وكثرة بالحصول من الامير على تعديل القانون لمصلحة افرادها والاجازة لهم بالانخراط في صفوف الفرسان المسلحين .

ان هذه التبدلات الاجتماعية كلها : اثره النخبة من غير الاشراف الذين كانوا بحاجة الى عضد السلطة لتثبيت ارتقايتهم ، ولا سيما افتقار النبلاء الذي عرضهم لكل اذى وارغمهم على بيع حقوقهم وخدماتهم من العظماء ، اتاحت لبعض الامراء ، الذين عرفوا ، بفضل مركزهم الماوتي ، بالنسبة للثروات النقدية كيف يستغلونها لمصلحتهم ، توسيع بسط سيطرتهم . وكانت هذه ، احيانا ، حال بعض اصحاب القصور الذين تحكمت حصونهم بالطرق الكبرى او بسوق تجارية أو بمدينة مزدهرة ، والذين جنوا مكاسب هامة من الضرائب التي فرضوها على مرور البضاعة وبيعها ، واستطاعوا ارساء دعائم امارتهم الصغيرة . ولكن الحركة امنت الربح الوفير ، في الدرجة الاولى ، للملوك ولورثة المناصب الكبرى في القرون الوسطى الاولى الذين مارسوا سلطتهم الجبائية على مناطق فسيحة وتمتعوا من جهة ثانية بوجاهة كافية ، واعتمدوا وسائل عمل ذات فعالية كافية أيضاً للحصول من الممولين على قروض بشروط حسنة جداً .

٢ - رسوخ أركان الملكيات

يتضح من ثم ان انتشار الاقتصاد النقدي ، يضاف اليه اطراد سهولة العلائق بين البشر وبرزو الأفكار الجديدة التي بثها التعمق في دراسة الحق الروماني ، كان احد الاسباب الرئيسية للتبدل الذي نشاهده ، بين منتصف القرن الثاني عشر واول القرن الرابع عشر ، في نظام الغرب السياسي : فقد حلت محل تلك الكتلة الواحدة الكبرى ، التي لم تتميز عن المسيحية اللاتينية ، والتي تألفت من خلايا صغيرة مستقلة كثيرة العدد ، هي السيادات ، ملكيات كبرى متميزة ، هي الصور الاولى لدول أوروبا المعاصرة . بيد ان هذا التبدل قد ارتدى ، بحسب المناطق ، مظاهر على بعض التباين .

الملكية الفرنسية ليس من ريب في ان تجمع السلطات قد تم بزيد من الاعتدال والاستمرار في مملكة فرنسا على الرغم من انها قاست أكثر من غيرها من الانحلال الاقطاعي . فقد كان فيها للملكية مركز مرموق منذ منتصف القرن الثاني عشر . وحدث خلال ستة اجيال متعاقبة ان الملوك لم يرزقوا سوى ابن واحد ، فساعدت هذه المصادفة ، في الدرجة الاولى ، على ارساء مبدأ الوراثة في الملك تدريجياً ؛ وبفضل هذه المصادفة ايضاً ارتبطت الثروة العقارية العائدة للسلالة الكابيتية ارتباطاً بمنع الانفصال بالتاج ، فأعطته مركزاً سيدياً ثابتاً ، على ما يتسم به من تواضع . فنذ السنة ١٠٨٠ تقريباً ، توصل الملوك ، الذين أحاطوا هذه الاملاك بكل عنايتهم ، الى تخليتها سليمة ، وموسعة احياناً ، الى وريثهم ، وسعوا من جهة ثانية ،

داخلة حدودها ، الى اخضاع الأسياد الملمانيين لسلطتهم . وحوالي السنة ١١٦٠ ، حين أخذت القوى الاقتصادية المتفاعلة تشجع ، في كافة أنحاء فرنسا ، قيام سيادات اقليمية ليست دون املاك الكابيتيين الساعاً ووحدة ، صمم هؤلاء على تخطي حدود الـ «ايل دي فرانس» . فأخذت السلطة الملكية منذ ذاك الحين ، وطوال قرن ونيف ، تتمكن وتتقوى ، ولكنها لم تتغير في جوهرها ولم تفقد الطابع الخاص الذي طبعت به في ظل النظام الاقطاعي .

كان ملك فرنسا ، شأن أي صاحب قصر آخر ، سيداً عقارياً وسيداً حاكماً مطلقاً التصرف . وقد ألغت هذه الامتيازات الخاصة المعقدة ، التي يستحيل حصرها في اطار واضح الحدود ، ما اطلق عليه بالضبط اسم « التراث » . فاستفاد لويس السابع وفيليب اوجست ولويس الثامن والقديس لويس من كل ساحة لتوسيع هذه السيادة : الفتح العسكري ، او الصفقات الحقة ، او التطلعات التي أضفى عليها العرف ، شيئاً فشيئاً ، صبغة قانونية ، او سياسة المصاهرات ، او حماية المؤسسات الدينية مقابل الاشراف مناصفة في ممتلكاتها . ووجهوا هذا التوسع احياناً بضم مساحات كبرى الى تراثهم (كضم دوقية نورمانديا في السنة ١٢٠٤) ، وقد كانت أهم من الامارة الكابيتية الاولى (او بمكاسب صغيرة متعاقبة كثيرة ليست دون الضم فعالية) ، وان حصلت في الحفاء او بتقدم تدريجي بطيء . وقد سعى الملوك في الحقيقة ، من وراء هذه المكاسب ، الى تجميع الكلف من الاراضي لتأمين المال اللازم لانعاماتهم والاقطاعات لأبنائهم غير الابكار ، فلم يهتموا لاقتناء سيادة شخصية واسعة الاطراف اهتمامهم لمستقبل أنسأهم ولضمان اخلاص اصحاب الأخاذات ، وقد اعترفوا في قرارة أنفسهم بأن املاك الملك ، المدة لتأمين معيشة البلاط والمحاكمة بامارات تابعة ، لا يجب ان تسير في توسع لا نهاية له . ومع ذلك فان التراث الملكي ، بفضل المصادفات السلاية ومباداهات العملاء الملكيين الجادة ، قد شمل ، طوال السنة ١٢٧٥ ، القسم الاكبر من المملكة ، ففدا الناس لا يميزون بين املاك الملك والسيادات الملمانية الصغيرة الداخلة فيها وبممتلكات الكنائس الملكية ، ويعاملونها المعاملة نفسها . ولم ينبج من التوسع الكابيتي آنذاك سوى أربع امارات قامت عند حدود المملكة وتوطدت دعائمها بعد تطور داخلي شبيه بذلك الذي ألح توسع سيادة الملك وألغت كيانات ذات طابع خاص تميزت عن فرنسا الملكية بلقتها احياناً وبأهراقها وذميتها ابدأ : فلاندر ، غويان ، بورغونيا ، بريتانيا .

وكان ملك فرنسا من جهة ثانية ، شأن أي صاحب قصر آخر ، سيداً اقطاعياً ، وقد أعطاه مجموع الاراضي الخاضعة له حق الاستفادة من خدمات شخصية يؤديها له بمض اصحاب الاقطاعات . فسمى الكابيتيون كذلك وراء استفلال هذا الوضع ، واستخدام التفاني الذي يفرضه الاقطاع - والذي اعتبر في ولاية القديس لويس نفسها خير وسيلة مضمونة لاستئالة الاشراف - وتنظيم الملائق الاقطاعية داخل المملكة بحيث يتألف منها شبه هرم يكون التاج رأسه الوحيد ، هل ان يشمل كل الاراضي النسيبة التي لم تدخل بعد في الاراضي الملكية . ولعل هذا الهدف ترامي لهم بمزيد من الوضوح بعد ضم نورمانديا التي ارتدت الانظمة الاقطاعية فيها

طابعاً خاصاً من التنظيم والوحدة . أجل ، لم يتوقفوا قط الى تحقيق هدفهم تحقيقاً كاملاً . ولكن فرنسا ، حيث كانت معظم اراضي الفرسان أملاكاً خاصة بجهة ، وحيث الف اتباع جماعات محلية صغيرة غير وثيقة الارتباط ، قد سارعت ، بفعل عملهم وعمل اسياذ الامارات الاقليمية الموازي له ، الى اتباع النظام الاقطاعي ، فخفضت الطبقة العليا كلها لنظام من العلائق الشخصية والعقارية بات متلاحماً ومتجهاً بكليته نحو شخص الملك . فأقرت في الدرجة الاولى المبدأ القائل بأن الملك لا يقدم خضوعه لأحد ؛ ثم حصل الملك تدريجياً ، اما عنوة ، بعد حملة تأديبية ضد سيد سجس ألحق الضرر بكنيسة يحميها الملك ، واما بشراء امتيازات احد الاشراف المدنيين في هذا القصر من قصوره او تلك الارض من اراضيهِ ، على خضوع كافة الاشخاص البارزين في المملكة الذين لم يخضعوا له بعد . وقد سمي بصورة خاصة الى ان يدخل في تراثه الحصون وأعظم الحقوق مرتبة وأوفرها كسباً ، ودعا مرؤوسيه المباشرين من رجال الاقطاع الى ان يستميلوا اليهم بهذه الطريقة اشراف الجوار من المرتبة الثانية . وحرص الملك وعلاؤه اخيراً على الاستفادة من تفوق السيادة ؛ ولما كانت هذه الاقطاعات جديرة بأن «تخدم» ، فقد غدت الموجبات الاقطاعية آنذاك موضوعية وملزمة مع انها لم تزل ، في معظم المقاطعات ، مستهمة ومتقلبة : خدمة السلاح وخدمة البلاط ، والمساعدة المالية ايضاً ، وقد اوضحها العرف في بعض الظروف ، ايضاحاً تاماً ؛ وحق الاقطاع المحدد ، كلما حمل اللقب شخص جديداً ؛ وخصوصاً قدرة مساعدي الملك على التدخل في السيادات المستقلة ، واستخدام الحصون «المنتجة» ، والنظر في دعاوى الدرجة الثانية والتلاعب بروح العرف الاقطاعي لاكتداد صاحب الاقطاعة . فأثبت النظام الاقطاعي ، يطبقه امير يقوي مركزه استمرار توسع املاكه ، بينما اضعفت الصعوبات المالية العدد الاكبر من الاشراف ، انه اداة ذات فعالية نادرة . وقد استخدمه فيليب اوغست حتى ينتزع من «جان سان تير» ، تابعه خير ممتلكاته في فرنسا ؛ وحين ضحى القديس لويس بشطر من فتوحاته الحديثة ، بغية حمل هنري الثالث ملك انكلترا على الاعتراف به سيداً عليه بالنظر لممتلكاته في اليايسة ، كان مقتنماً بأنه انما يقوم بصفقة رابحة ؛ وان في المصير الذي انتهت اليه دوقية غويان في النصف الثاني من القرن الثالث عشر ، التي انكشنت رقعته باستمرار بفعل مصادرات متعاقبة تليها ردود ناقصة ، انه كان مصيباً في اعتقاده .

أفضى توسع سلطة ملك فرنسا الخاصة ، السيدية والاقطاعية ، الى توسع اجهزة الادارة . كانت هذه الاخيرة ، في القرن الثاني عشر ، بدائية جداً : فالملك ، شأن أي صاحب قصر آخر ، يلجأ ، لمساعدته على ادارة ثروته العقارية واعمال حكمه ، الى اهل بيته او «زله» ، أي انسابه وخدامه وبطانته ؛ وان هذا الجمهور الصغير ، الذي انضم اليه ، بين حين وآخر ، اصحاب الاقطاعات الآتون لتأدية واجب المشورة ، هو ما الف «بلاط» الملك . واستخدم الملك اخيراً ، بغية المحافظة على مركزه في السيادات التي تؤلف تراثه وممارسة حقوقه فيها وجمع دخوله منها ، مأمورين من اصل وضع ، هم المثلون ، الذين يلتزمون وظيفتهم التزاماً بغية تبسيط عملية جمع

المال . وعندما توسع التراث في اوائل القرن الثالث عشر ، بات لزاماً على الملك تعيين ممثلين اضافيين أكثر امانة وارفع نسباً ، هم القضاة الذين اختار العدد الاكبر منهم بين صفار فرسان حاشيته . وتميزت في الوقت نفسه اجهزة الادارة المركزية . فبينما تنظمت شتى ادارات «نزل» الملك ، شيئاً فشيئاً ، وفي توارين يصعب تحديدها لأن قيامها كان تلقائياً دون ان تقره قوانين نظامية قبل القرن الرابع عشر ، تفرعت عن البلاط ادارات ذات اختصاص ما لبثت ، تدريجياً ، ان أصبحت مستقلة ودائمة : ادارة أسندت اليها شؤون القضاء وعرفت بـ « محكمة البرلمان » ، وأخرى انيطت بها رقابة الأموال الملكية ، وعرفت بـ « غرفة الحسابات » . غير ان الموظفين الذين دخلوا في خدمة الكابيتيين ، قد حفظوا من اصلهم الوضعية الخاص ميزتين أساسيتين . فهناك أولاً وحدة ذهنيته وثقافتهم : فلم يرق قط أي تمييز او تعارض بين «النزل» ، منبت الخدام ، والبلاط ، وبين حاشية الملك واجهزة الحكومة . وهنالك خصوصاً الانقياد : فبعد هجوع مصالح البلاط الكبرى منذ اوائل القرن الثالث عشر ، بات كل رجال الملك وضيعة الاصل واستمدوا قوتهم من قوة الملك وحدهما وبرهنوا عن انصياع تام وعن قفان كلي في الدفاع عن الامتيازات الكابيتية . وهكذا فانت سيطرة ملك فرنسا تعززت تعزراً عظيماً حوالي السنة ١٢٧٥ بفعل حركة يعود الفضل الاكبر في بعثها الى هؤلاء المساعدين . اجل ربما تعاطلت هذه السلطة بفضل المركز الفكري الذي احتلته باريس ، مدينة المدارس ، وقد غدت عاصمة الكابيتيين الحقيقية الدائمة ، ولكنها تعززت من جهة أخرى بالاشعاع الروحي القوي المنبثق عن الملك السابق ، القديس لويس ، الذي اهتم أكثر من اسلافه بالعدل ، اي بالفضيلة الملكية بالذات ، والذي كان اول ملك في سلالة وضع انظمة تشمل المملكة بأكملها في المجال الاخلاقي الصرف . وعلى الرغم من ذلك لما زالت سيطرة سيد اقطاعي توسعت سلطته الخاصة حتى شملت معظم أنحاء المملكة .

الا ان السلطة الملكية ، التي ما زالت تتوطد باستمرار ، اخذت في الربع الاول من القرن الثالث عشر ، تتطور في جوهرها ، وذلك بفعل تأثير مزدوج . هناك اولاً تأثير فكرة السلطة العامة التي بعثت حية في اعقاب الدراسات التي تناولت الحق الروماني منذ اوائل القرن . فان هذا المفهوم الجديد للسيادة ، الوثيق الصلة بالاعتناع بأن السلطان ، المستخدم « للخير العام » ، لا يمكن ان يكون ملكاً خاصاً ، قد انتشر خصوصاً بفضل « قانوني » القسم الجنوبي من الاملاك الملكية الذين تلقوا علومهم في مدارس « مونبلييه » . وهنالك كذلك تأثير اهل البطانة أنفسهم الذين ارتفع عددهم ارتقاعاً عظيماً بفضل تعقد الادارة المتزايدة واطراد استخدام الكتابة : فقد نشأت طبقة جديدة آنذاك ، هي طبقة ممثلي السلطة واهل القانون والقلم . ولما كان هؤلاء قد عمووا مفهوم السلطة العامة ، مؤكدين ، بصيغ واضحة ، ان الملك وحده ، في حدود مملكته ، يتمتع بالسلطة الملكية ، بات لجردهم وجودهم افره الهام ايضاً . فان هيئة الموظفين الحاكمين ، المؤمنة جماعياً على سلطة اعتبرت آنذاك مثالية ومغفلة ، والباعثة الحياة في آلة ادارية امست

قادرة على السير بمجرد حركتها ، اخذت في تلك الايام تتفوق على شخص الملك نفسه : ولعل «فيليب له بيل» هو اول ملك فرنسي تدنى تأثيره على تسيير الشؤون العامة .وبينما اخذ الاحتفال بتكريس الملك يفقد الكثير من اهميته اخذت السلطة الملكية ترتدي طابعاً اشد تجرداً وابهاماً ان هذا المظهر الجديد للسلطة المطلقة ، المتفوقة على كل سلطة اخرى والمختلفة في جوهرها عن سلطة الاسياد ، ساعد التأثير الملكي على احراز تقدم جديد . فقد نهياً الناس شيئاً فشيئاً للأقرار بان للملك ، الذي يعمل بعد اليوم للخير العام ، ويعبر عن ارادة المجموع بحسب المبادئ التي استقتها الفلسفة الكلامية من مؤلفات ارسطو السياسية ، ويدعو احياناً ممثلي الطبقات المهيمنة في المملكة كي يعرض عليهم الاسباب الموجبة لقراراته - ذاك كان الهدف من استشارات السنوات ١٣٠٢ و ١٣٠٨ و ١٣١٤ - الحق في ان يوجب على رعاياه ، خارج نطاق املاكه او نطاق العلائق القطاعية ، الخدمة العسكرية او ضرائب نقدية تقوم مقامها . غير ان التقدم ، بصدد هذه النقطة الاخيرة ، كان في الحقيقة بطيئاً : فان الرأي القائل بان للملك الحق في فرض الضرائب ، بالإضافة الى دخول سيادته العادية ، لم يكن غالباً قط في اوائل القرن الرابع عشر . ومرد ذلك الى ان الاجهزة المالية في الملكية ما زالت ابتدائية في عالم لعب المال فيه دوراً متعاظماً الهامية وفي الوقت الذي انتشر فيه دفع المرتبات في الجيش الملكي وأُحِلَّ الارتزاق المأجور محل الخدمات القطاعية .

انكلترا في كثير من الامارات ، كفلاندر ، وبورغونيا ، والفويان في داخل مملكة فرنسا ، وبروفنسا او هينو عند حدودها ، تمززت السلطة بالطريقة وبالسرعة نفسها تقريباً ، اي بتوسع الاملاك وتعدد اجهزة الادارة وتوطيد السيادة بفضل القانونيين . ولكن التطور لم يتم دائماً في زمن واحد . فهو قد تأخر في مناطق اسبانيا المسيحية التي نجت من خطر العرب منذ اوائل القرن الثالث عشر وسارت في طريق التوحيد حول تاجي قشتالة واراغون لأن السلطة الملكية فيها كبحتها ارستوقراطية هوسها معارك استعادة البلاد وحدثت منها قوة الامتيازات المحلية وخضعت لرقابة جمعيات الممثلين القانونية . ولكنه كان مبكراً وحثيئاً في مملكة صقلية حيث استطاع « فردريك الثاني دي هوهنستوفن » ، في الربع الثاني من القرن الثالث عشر ، وفي بيئة تميزت بانقيادها وطواعيتها ، تنظيم سلطة ملكية واسعة الصلاحيات تركز الى ادارة تسلسلية مغلصة جداً ، وتسيطر على الكنيسة نفسها حيث تتصرف بموارد جبائية وافرة . واتجه التطور اخيراً ، في انكلترا والامبراطورية ، اتجاهاً آخر مختلفاً تماماً .

افضى الفتح في المملكة الانكليزية الصغيرة الى اقامة نظام تبعية اقطاعية ومشاركات زراعية على الطريقة النورمندية يخدم مصلحة الملك ولا يتساهل ، باستثناء الحدود العسكرية في الشمال والغرب ، بقيام امارات اقطاعية متراعة . بعد ان كبح الفاتح جهاج الارستوقراطية الانكلو-نورمندية ، حاولت هذه الاخيرة الاستفادة من المنازعات السلالية التي عقيبت موت هنري الاول (١١٣٥) ، بغية الحصول ، على غرار ارستوقراطيات اليايسة ، على استقلال حرمت منه :

فاستولت على شطر هام من الاملاك الملكية واستأثرت بالقصور وشيدت حصوناً جديدة وواجهت سلطات اقليمية اعظم تلاحماً. ولكن هذه الحركة كانت سريعة الزوال. بيد ان اصلاح الملكية، الذي مهد له هنري الثاني بلاتاجنيه في السنة ١١٥٤، قد تم بمزيد من السهولة، لا سيما وقد ابقى على معظم أنظمة العهد السكسوني الاساسية التي جمعت الشعب كله، بفعل جمعيات الكونتية والمئات المحلية، في ظل « قانون مشترك »، هو قانون الملك، يؤمن لهذا الاخير، في احوال الغزو، وبحسب الكيفيات التي نصت عليها اتفاقية الاسلحة في السنة ١١٨١، الخدمة العسكرية المفروضة على كافة الرجال الاحرار الذين ينضم اليهم، عند الحاجة، الاتباع الخاضعون لتجنيد الزامي ايضاً. لهذه الاسباب، وعلى الرغم من ان الملك المفتقر الى املاك واسعة والحريص ايضاً على الاستفادة من حق المأوى، لم يقيم اقامة دائمة في عاصمة واحدة، اتيح للسلطة الملكية فيها ان تنطلق دون ان يعيقها عائق. والدليل على انطلاقها المبكر أن أجهزتها الرئيسية توطدت منذ النصف الثاني من القرن الثاني عشر: ممثلون محليون، مأمورو أحكام مدنية، يعملون بسلطة الملك، وقضاة يقومون بجولات دورية، واداة رقابة مالية، هي رقعة الشطرنج، ومحكمة قضائية مركزية ما لبثت ان تجزأت محكمتين، احدهما ثابتة (المحكمة المشتركة) والثانية متجولة ترافق الملك (محكمة الملك)، فاعطى كل ذلك المملكة هيكلًا متيناً. وكان هنري الثاني وريكاردوس قلب الاسد اعظم ملوك عهدهما اطلاقاً، واستطاعا وحدهما منذ ذاك العهد الاعتماد على تفاني وغيره موظفين محترمين، « كتبة الملك »؛ وكانا اوسع ملوك عهدهما ثروة ايضاً لانها استثمرا، الى اقصى حدود الاستثمار، حقوقها الاقطاعية ومكاسبها القضائية. ولكن شدة هذه الاعباء نفسها، التي فاءت بثقلها على اسباب عقارين عززت نزعتهم الاقتصادية مركزهم - بينما هي قد اذلت الاشراف في فرنسا - جعلت السلطة الملكية، على نقيض سلطة الكابيتيين، تقبل الى الانكماش والحصار. وحدث مرتين خلال القرن الثالث عشر ان ارغم اوسع اقباع الملك ثروة البارونات، تساندم الكنيسة، على الحد من ادعاءاته؛ لا بل حدث مرة في السنة ١٢٦٤، انهم اخذوا على عاتقهم ادارة شؤون المملكة طيلة اشهر عدة. ووضعت وثائق خطية، كميثاق السنة ١٢١٥ الذي تأيد تكراراً، اظهرت بجلاء الحدود النظرية لتحكم ملكي استعالت ممارسته دون رضى عليا الاشراف ومساعدتهم. اصف الى ذلك اخيراً ان القوة الجديدة التي استمدتها جمعيات الكونتيات من اثناء الفرسان، تلك الطبقة العسكرية التي بات افرادها اعياناً ميسورين وولاة محليين، جاءت بدورها تزيد الطين بلة في الحد من بطانة الملك وممثليه، باحتفاظها للمأمورين الذين تنتخبهم هذه الجمعيات، اي جماعة من الفرسان المحلفين، بادارة العديد من الشؤون، ولا سيما المحافظة على النظام. بيد ان ما يجدر لفت النظر اليه هو ان تضامن البارونات والجماعات المحلية في ممارسة السلطة قد حققت، بين الامة والملك، وحدة لا مثيل لصفاتها في اي مكان آخر. واذا كان الملك حاذقاً وشعبياً، توفر له وسائل عمل قوية.

كانت هذه حال ادوارد الاول في الربع الاخير من القرن الثالث عشر. فقد كان اول ملك

انكليزي الاسم منذ الفتح ، ان لم يكن انكليزي النزعة ، وملكا ظافر توصل بفضل ضم بلاد
الويلز وحملاته العسكرية في سكتلندا ، الى الحد من دور وتأثير عظام البارونات في اطراف
المملكة ، فقام باستقصاءات واسعة للحفاظ على الحقوق الملكية أو استعادتها ، في اطار العلائق
الاقطاعية ؛ واستفاد في الحكم من خدمات قصره المتميزة بالسرعة والمرونة ووسع بصورة
خاصة اجهزة « الصوان » المالية . واستفاد كذلك من انطلاق التجارة ، فوجد موارد وافرة
في استثمار الجمارك ولا سيما الرسوم المستوفاة على استيراد الخمر وتصدير الاصواف والجلود ،
وعقد قروضا ضخمة لدى رجال الأعمال المقيمين في لندن . فاستطاع بذلك ، الا في بعض
فترات الشدة ، تمويل سياسته دون أن يثقل بالاعباء مملكة تفتقر الى الثروات الكبرى .
وغالبا ما أمر أخيراً ، رغبة منه في ابراز الجلالة الملكية بكل سناها ، باجتماع مجالس الممثلين
ومجالس البارونات ، وجمعيات اصحاب الاخذات المكلفة مساعدة الملك على توزيع العدل ،
« والمجلس المشترك » الذي يقر الاعتمادات التي يطلبها الملك ، وفرسان الكونتيات وبورجوازي
المدن الناشئة . وباستطاعتنا القول ، بعد كل اعتبار ، ان الملكية الانكليزية ، وان مرت في
فترات عاكست مصالحها واضطرت الى تراجعات غير ذات نتيجة ، لم تكن في اوائل القرن
الرابع عشر دون ملكية فرنسا متانة ورسوخا .

اما السلطة الملكية فقد اذلت اذلالا تاما في الامبراطورية آنذاك .
مناطق الامبراطورية
ومع ذلك فان احياء الحق الروماني والعلائق الوثيقة ببيزنطية
وشخصية فردريك بربروس نفسها قد عززت المفهوم الامبراطوري تعزيزاً قوياً . اجل لقد
تلاشت آنذاك الامبراطورية والملكية الالمانية بحيث كاد مسح الامبراطور من قبل البابا يعتبر
بمجرد اجراء طقسي واخذ امراء جرمانيا يعتقدون بانهم هم الذين ينتخبون الامبراطور فعلاً ،
وارتبطت ارتباطاً وثيقاً بالتقليد الكارولنجي ، كما ابرز ذلك اعلان قداسة شارلمان في السنة
١١٦٥ ، واختارت « إيكس لا شابيل » والمناطق الرينانية مركزاً للشايطا ؛ ولكن الامبراطورية ،
مع ذلك ، بدت وكأنها امتداد مباشر لامبراطورية الرومانيين التي مجد قانونيو بولونيا عظمتها
الفريدة وطابعها المقدس . وفي الوقت نفسه الذي اعلن فيه الامبراطور اوغسطس ، في ممالك
جرمانيا وابطاليا وبروفنسا ، عن حقه في الامتيازات المطلقة ، كان يستخدم الانظمة الاقطاعية
لتوسيع سلطته . وقد طالب أخيراً ، على غرار اسلافه ، بالسيادة على العالم ، اي بادارة كافة
الدول المسيحية ، وبمراقبة البابوية على الطريقة الكارولنجية ، وبالسلطة الادبية على ملوك الغرب
الآخرين المعتبرين تابعين للامبراطورية . وسعى هنري السادس ، في الواقع ، الى بلوغ هذه السلطة
بواسطة العلائق الاقطاعية ، فظفر بخضوع ملوك قبرص وانكلترا ، وحاول الظفر بخضوع
فيليب اوغست .

غير ان هذا البناء الساحر ما عثم ان انهار لانه لم يقيم على اسس متينة . فالملكية الالمانية
التي كانت بمثابة ركيزة للامبراطورية قد افتقرت الى الاستقرار والعزيمة : ومرد ذلك الى انها

كانت ملكية غير وراثية تضعفها ، بمناسبة كل خلافة ، ألتنازلات التي يضطر الملك المنتخب الى القبول بها لمصلحة العظماء كي ينتخبوه ، وملكية دون املاك ، هائلة ، منسرة في كل مكان وغير ثابتة الاركان في اي مكان . فكان متعذراً عليها والحالة هذه الاحتفاظ بنفوذها على المملكتين الاخرين . فالى الغرب من جبال جورا والالب ، لم تكن السلطة الامبراطورية آنذاك سوى كلمة لادلالة لها ، وقد امسى تأثيرها السياسي دون التأثير الفرنسي بمراحل . وكان لزاماً لاحكام سيادتها على ايطاليا ، الجموحة ، الوافرة المدن ، اعمال الارياف الجرمانية ، ونحلى الاباطرة الالمان كذلك عن ادارة عملية التوسع نحو الشرق التي تمت بدونهم لمصلحة امراء الحدود . ثم اتجهت الامبراطورية تدريجياً شطر الجنوب : فقد رغب هنري السادس ، سيد صقلية ، في السيطرة على المتوسط ، كما صمم ابنه فردريك الثاني على تشييد سلطته في روما . اضاف الى ذلك ان مطالبات ملك المانيا ببسط سلطته على كافة الدول المسيحية اثارت معارضة ضارية قضت في ايطاليا وجرمانيا على ما تبقى له من سلطة حقيقية . فقامت معارضة الممالك الغربية حيث اخذت تتضج الفكرة القائلة بان الملوك ، وهم اباطرة في ممالكهم ، لا يمكن ان يرتضوا باية وصاية : وهكذا فان فردريك الثاني ، الذي سبق له وتحلى عن كل حق حماية مراعاة منه لشعور غيره قد فشل فشلاً ذريعاً عندما دعا ملوك الغرب لتأليف ما يشبه وحدة روحية تكون بمثابة حلف يقاوم الهرطقة وادعاءات الكنيسة الزمنية في آن واحد . وقامت معارضة اشد نضالية نهضت بها البابوية المتمسكة تمسكاً متزايداً بأوليتها الروحية .

زالت الامبراطورية اذن ، كنظام ، في منتصف القرن الثالث عشر ، حين عجزت عن التغلب على هذه العقبات الكثيرة ، ولم يعرف الديومة ، كحكم وحدة وسلام ، سوى المثل الامبراطوري الذي احياء تيار فكري مسيحي غذته مؤلفات الكاهن الايطالي « يواكيم دي فلور » ، وقوته في الآونة الاخيرة أبحاث عقائدية وضعت بايعاز من فردريك الثاني أثناء صراعه مع البابا . وقضى هذا الانهيار على الوحدة التي ربطت ايطاليا بالمانيا وأحدث في المناطق التي كانت خاضعة خضوعاً مباشراً للامبراطور تقهقراً سياسياً عميقاً ، اذ انه ، على نقيض ما حدث في الممالك الاوروبية الغربية المتلاحمة ، أدى بها الى التجزئة والمنافسات . ففي المانيا عرفت السلطة الملكية الذل والهوان خلال فترة شغور العرش التي عقيبت موت فردريك الثاني وتجاوزت عشرين سنة وتميزت بأعمال العنف والحروب الأهلية واستباحة السلب في املاك الملك وامتيازاته وتوطد السلطات المحلية في ظل الفوضى الشاملة . فباتت هذه الدولة من ثم مجموعة امارات مستقلة استأثرت بكافة الامتيازات الملكية اما اغتصاباً واما بفضل الامتيازات الخاصة التي منحها فردريك الثاني والمطالبون بالعرش من بعده . وكانت هذه الامارات في الشرق متراعة وواسعة الرقعة بينما هي كانت في الغرب متشقة ومتناثرة جداً ، لا سيما في وادي الرين ؛ وقد أفسحت مكاناً لمدن الحرة الداخلة في اتحادات تستهدف الدفاع السياسي ، كما أفسحت احياناً ، في جبال الالب ، مكاناً لطوائف مستقلة من الجبلين اخذت في سويسرا تؤلف الاتحادات .

وعرفت ايطاليا الامبراطورية تجزؤاً أعظم في السلطات التي توزعت على بعض الامارات الاقطاعية وراء الالب ، ولا سيما على المدن . ولكن التكتل البورجوازي ، الذي ما زال قوياً في توسكانا ، والذي اخذ - وهذه ظاهرة من ظواهر شمول انتصار المبدأ الملكي - يتوارى في لومبارديا امام قوة « مستبد » يتولى « السيادة » هو الذي عاد اليه السلطان وكافة الحقوق التي أحيتها دراسة التشريع الروماني ، وخضعت له الارياف المجاورة . ولكن خلافات دائمة قامت بين هذه المدن المتنافسة تجارياً ، وحتى بين جماعات المدينة الواحدة احياناً حيث تباينت مصالح الاشراف والأثرياء وصغار الصناعيين فتبعه وفئات متخاصمة متزاحمة . في هذه البيئة المضطربة بالذات ، وبين المبشرين الذين تاقوا في منفاهم الى وطنهم السليب ، استمر الامل الوطيد بالامبراطورية ، أي امبراطورية رومانية حقاً متملصة من التأثير الجرمانى .

وهناك اخيراً ادعاءات البابوية بإدارة العالم السياسية ، وقد تعاطمت بفعل انهيار السلطة الامبراطورية نفسه . فقد رسخت عقيدة الأولوية البابوية في مقاومتها فرض الامبراطور سيطرته على العالم المسيحي وعلى الكنيسة ؛ وقد وجدت عضداً لها في الانظمة الاقطاعية وفي المفهوم الجديد للسلطان كما جاء في مجموعة القوانين *Corpus Juris* . وفي القرن الثالث عشر اعتمر البابا تاجاً ثانياً دلالة على تفوقه . ثم قام انوشنتيوس الثالث بمشروع يقابل مشروع الامبراطور هنري السادس ، فبذل الجهد كي يؤلف حول الكرسي الرسولي شبكة واسعة من التبعيات الاقطاعية كان من شأنها ان تجمع وراء الكنيسة الرومانية كافة ملوك العالم المسيحي ؛ وقد امست أراغون ، وبلغاريا ، وسيادة سيمون دي موفنور في لنغدوك ، ثم مملكة انكلترا ، اقطاعات تابعة للكنيسة وبرهنت عن خضوعها بدفع فريضة سنوية . وقر الرأي شيئاً فشيئاً على ان الامبراطور نفسه صاحب اقطاع خاضع للبابا ؛ واستند البابا بونيفاسيوس الثامن ، في ابهة يوبيل السنة ١٣٠٠ ، الى اطروحات جبل الرومي وجاك الفيتري التي بنيا فيها مذهباً متراصاً من آراء القانونيين حول السلطة البابوية ، فاحتفل بسلطة اسقف روما ، المرشد الوحيد للشعب المسيحي زمنياً وروحياً .

الا ان هذه الادعاءات جاءت متأخرة في الواقع . فلم يكن باستطاعة البابا ، كما لم يكن باستطاعة الامبراطور ، ان يفرض حمايته على الدول التي تقاسمت اوروبا آنذاك . وكان من شأن هذه التأكيدات إثارة عدد متزايد من اولئك الذين تأثروا بتحذير المؤلفين السابقين ؛ ابتداء من القديس برناردوس ، للعبر الاعظم ، من مغريات السلطة ، واعتبروا ، بفعل الدعاوة العنيفة التي يشنها المناضلون في خدمة فردريك الثاني ، ان البابا انما يتنكر لرسالته الحقيقية بسعيه وراء السيطرة الزمنية . فالعالم المسيحي الذي توحد في العهد الاقطاعي وفي الحملات الصليبية الاولى قد تجزأ في الواقع نهائياً . وقد احدث هذا التجزؤ نفسه ، وتمزز السلطات العلمانية من جهة ، والتطور الاقتصادي من جهة اخرى ، وتعاطم قوة المال وما انتهى اليه من تحول في الاخلاق ، منذ منتصف القرن الثاني عشر ، قلقاً متزايداً داخل الكنيسة .

٣ - تعرض وحدة الكنيسة للاخطار

بيد ان السلطة الملكية قد تعززت باستمرار في الكنيسة ، كما تعززت في الممالك الغربية وامارات المانيا الشرقية والسيادات المدنية في ايطاليا الشمالية ، بفضل الصراع نفسه الذي جعلها تبدي تلك المقاومة الطويلة في وجه السلطات العلمانية بنسبة التوليات اولا ، و « السيطرة على العالم » ثانياً . فقد جعل توسع الحق القانوني من اسقف روما ، الذي نظمت المقررات الجمعية انتخابه تدريجياً ، المشترك الاعظم في العالم المسيحي ؛ ومعصوماً عن الخطأ ، لان « حكم البابا وحكم الاله حكم واحد » كما اعلن ذلك في اوائل القرن الرابع عشر مؤلف وضع بحثاً حول الاولوية البابوية . وكما ان الاجهزة المركزية في الملكيات الزمنية قد تميزت وُفرق بينها تدريجياً ، كذلك توزعت الشؤون الكنسية على لجان مختصة من الكرادلة الذين تعاضلهم شأنهم تعاضلهم مطرداً ، والذين استلموا في منتصف القرن الثالث عشر شارة مميزة هي القبعة الحمراء . وقد تزايدت هذه الشؤون في الواقع تزايداً مطرداً ؛ التدخلات المتعددة في تعيين الاساقفة ، والدعاوى القضائية المتكاثرة المقامة امام محكمة روما . وتوسعت اخيراً ، خلال القرن الثالث عشر ، الاجهزة المالية التابعة لهذه السلطة المتعاضلة : فبينما طوالب بشدة آنذاك باعفاء رجال الاكليروس من الموجبات الجبائية الزمنية فرضت رسوم على الكنائس والمستفيدين من الارباح وفرت موارد نقدية شعرت الباباوية ، على غرار السلطات العلمانية ، بالحاجة اليها . فساعدت هذه المركزية وهذا التقدم في الجهاز الاداري على غرار ما حدث في الدول الاخرى ، على تلاحم الكنيسة ووحدها .

الا ان هذه المركزية اصطدمت بنزعات معاكسة قوية جداً حرّكت جمهور القوى المعادية الشعب المسيحي نفسه . فبحسب النظر عن التطور السياسي العامل على خلق الحواجز والمهيب بالامراء وسكان المدن ، الفياى على امتيازاتهم ، الى مقاومة الحصانات الكنسية ومقاواة رجال الاكليروس واخضاعهم واستغلالهم اسوة بغيرهم من الرعايا - وان في موقف الملك حيال رجال الكنيسة ، منذ القرن الثاني عشر ، في انكلترا ، حيث بلغت السلطة الملكية مرحلة النضج قبل غيرها ، لمغزى عظيماً في هذا المجال - قامت حوالى السنة ١١٥٠ ، بتأثير من تقدم الحضارة نفسه ، ثلاث حركات تناهض النظام الادبي والفكري والروحي الذي فرضته الكنيسة الرومانية بوسائل اعظم قوة .

فهناك ، في الدرجة الاولى ، ترايد التهاافت على ملذات العالم ، وهو نتيجة مباشرة لتحسن ظروف المعيشة ونمو العلائق بين الناس . فان ميل الفرسان الى الاجتماعات العالمية ، الذي ظهر منذ اواخر القرن الحادي عشر في فرنسا الجنوبية وفي بروفنسا وتسرب تدريجياً الى كافة أنحاء اوروبا خلال القرن الثاني عشر ، وارتفاع المرأة في مجتمع الاشراف ، وانتشار تلك الآراء واللياقات التي اطلق عليها اسم « الأنس » واستهدفت المحبة قبل اي شيء آخر وخدمة السيدة المختارة ، خارج انظمة

الزواج المسيحي ، واطراد التطفل في المذات على انواعها ، كل ذلك صرف افراد الطبقة العليا تدريجياً عن المفاهيم والموجبات التي فرضتها الكنيسة وافضت رويداً رويداً الى نوع من التبدل في القيم الاخلاقية . فنشأت من ثم في هذه الاوساط محبة للعالم ظهرت اولاً في القصائد الغنائية للفرسان الفرنسيين في اواخر القرن الثاني عشر وفي الاطراء البريء للبهجة الدنيوية وادت اخيراً الى الخشية من الموت الذي لم يعد ينظر اليه كنهاية السفر وبداية الافراح الصافية ، بسل كالتزاع وحرمان ، وما يؤيد هذه الخشية ، في السنوات الاخيرة من القرن الثالث عشر ، التغير الذي طرأ على المواضيع التصويرية . اصف الى ذلك ان الرغبة في الكسب ، في اوساط التجارة -- وغالباً ما رافقها عند البورجوازيين المحطاط كبير في الاخلاق -- والحرص على جني الارباح من البيع والاقراض ، لم يأتلفا تماماً مع ممارسة المحبة . وهكذا فقد افضى التقدم المادي ، عند رجال الاكليروس وعند العلانين على السواء ، الى التنكر الصريح للتعالم المسيحية .

وهناك ، في الدرجة الثانية ، تقدم العلوم العقلية النظرية . فان الاداة الجدلية التي استنبطت في النصف الاول من القرن الثاني عشر استخدمت بعد ذلك بحماس في عالم رجال الفكر وانتهت الى توجيه تفكيرهم توجيهاً كلياً . ولعل الحضارة العربية لم تعرف حقبة أشد اهتماماً بالمنطق والبرهنة والنقاش والتبويب والتجريد من القرن الثالث عشر . وتفسر حتى هذه الابحاث النظرية اهتمام المفكرين المسيحيين وشغلهم بمؤلفات ارسطو التي نقلت تباعاً من العربية الى اللاتينية في اسبانيا وإيطاليا منذ القرن الثاني عشر . وكان من شأن اعادة الملائق الثقافية بينزطية . وهو حدث رئيسي في تاريخ ذاك العهد يسره فتح القسطنطينية وتأسيس الامبراطورية اللاتينية في الشرق ، مع انه مدين في الدرجة الاولى لتقدم المواصلات بوجه عام ولتقص المسافات -- انما ادخلت مزيداً من الخلو على مخالطة المذاهب الفلسفية السابقة للعهد الميلادي . ولقد اعطى المخطوطات اليونانية بنوع خاص دروساً اعظم صراحة عن مؤلفات الستاجيري (ارسطو) بمقدان نزع عنها غشاء المفسرين المسلمين المشوه ، ومبنى اعظم سحراً ايضاً . واخذ اساتذة المدارس الباريسية حوالي السنة ١٢٢٥ ، يحدون حدو غليوم دوفارنيه في تطبيق اساليب الفلسفة العقلية على بحث المسائل اللاهوتية ، وهو اتجاه حاسم لعمري اذ ان العقل ليس سوى حرية الانسان واقفة امام « المراجع » وجبروتة استقلال في وجه الافتسارات الفكرية . وقد زاد من اقلاى هذا الموقف ان الاساتذة والطلاب ، وسلمهم من الاكليروس ، لم يجدوا بواسطته آنذاك منجاة من نظم الكنيسة القائمة . فمنذ اوائل القرن الثاني عشر اخذ رجال الفكر يقصدون بعض المراكز الكبرى حيث يجتمع خيرة الاساتذة وتتوفر افضل الكتب ؛ وهكذا تكونت بدوات الباحثين الاولى ، في بولونيا لدراسة القانون الروماني ، وفي باريس لتعليم الفنون العقلية والاستقصاء اللاهوتي . فزاحت هذه المدارس ، المتميزة بمزيد من الحرية ، مدرسة الاكليروس المحلي ؛ ولم يعد باستطاعة الاسقف ورئيس ديوانه ، على الرغم من احتفاظها بامتياز منح ، اجازة التعليم ، لاساتذة المد ، مراقبة التعليم والفكر مراقبة فعالة .

وهناك اخيراً نزعاً اعم انتشاراً ورسوخاً في الطبقات الشعبية وعلى جانب كبير من القوة ، كما يبدو ، في عامة سكان المدن ، برزت اشد خطراً على الانظمة الكنسية ، مع انها كانت ، على نقيض النزعتين الاخرتين ، عامل اثراء وتجديد للروحانية المسيحية . وقوامها تحول عميق في الموقف الديني وممارسة التقوى يؤيده استمرار تلطيف المواضيع التصويرية الدينية وتفهمها وانتشار عبادة العذراء التي باتت آنذاك ، للعديد من النفوس ، محور الحياة الدينية ، والرواج الغريب الذي عرفته الروايات المزيفة المعطفة المنسوجة حول النصوص الانجيلية ، وازدهار المأساة الطقسية التي كانت نقطة الانطلاق للمسرح الديني باللغة العامية . وقد سعت هذه الحركة الصوفية الطابع وراء التأثيرات العاطفية القادرة على ادخال مزيد من الحرارة على مجموع الطقوس التي تفرسها الكنيسة ، ووراء كل ما من شأنه ان يؤثر مباشرة على الحواس ويتيح للبسطاء من الناس الاتحاد ، بدون مداورة فكرية ، باله عطوف ومعز ، فهالت من ثم طبعاً الى الحد من دور الكنيسة القائمة . والكنيسة القائمة هي بالضبط موضوع اللوم والتعير بسبب تعلقها المفرط بالماديات ، اذ ان تطور العاطفة الدينية هذا كان في الواقع امتداداً مباشراً للجهود المبذولة منذ منتصف القرن الحادي عشر ، اي منذ حدوث النهضة الحاسمة في الاقتصاد النقدي ، بغية احياء الفقر الانجيلي ضد رغبة الرؤساء الروحيين .

استهدف هذا التوق الاتحاد العاطفي المباشر بالمسيح ، باحتقار وساطة الاكليروس الفاطس في الزمنيات والمشغول بالشؤون الادارية ، واصلاح اجهزة المجتمع الديني اصلاً جذرياً . وقد افضى ، في اشكاله القصوى ، الى قيام نخبة مختارة من « الصالحين » المنحدرين من المجتمع المداني مباشرة ، « الانقياء » حقاً اي فقراء واطهار ، المكلفين ايصال الروح القدس ، بطقوس غاية في البساطة ، الى جمهور الشعب واقتياد هذا الجمهور نحو الخلاص بقراءة العهد الجديد عليه بلغته الخاصة . عرفت هذه الحركة انتشاراً واسعاً وافضت في بعض النقاط ، خلال النصف الثاني من القرن الثاني عشر ، الى هرطقات شهيرة . نذكر منها « هرطقة الاطهار » السقي سببت اضراراً بالغة في جنوبي مملكة فرنسا ، ونحن لا نعرف الشيء الكثير عن تعاليمها ، وليس القول بشنوية ماثوية ، نعيم اله الخير في وجه اله الشر ، سوى احد اشكالاتها المتطرفة في الاربع الذي زاده تطرفاً الثالوث من اتباعها ، وهي قد جاءت متأخرة على كل حال وانسحبت المبالا لاقتباسات كثيرة ودخلت غربي اوروبا بفعل الاتصالات التي جرت حوالي السنة ١١٦٧ مع بعض الاحبار البوغوميليين في البلقان . وهي مدينة بنجاحها - الذي تجسلى باهراً لدى الفرسان الجنوبيين المنجرفين وراء المذات الارضية - لتكشف رؤسائها المسؤولين الذين تحملوا وحدهم ، على نقيض الاكليروس الكاثوليكي الفاسد ، اعباء الموجبات الاخلاقية القاسية وسمحوا لجمهور المؤمنين بالاشراك بسلام في افراح العالم . ونذكر هرطقة اخرى هي « الفالدية » التي كانت في البدء شيمة فقراء اقتفوا خطى احد بورجوازي ليون وحرموا انفسهم من ممتلكاتهم بغية التوفيق بين حمايتهم وحياة المسيح ، اصطدمت هذه الحركة الانجيلية المصدر بمعارضة الرؤساء

الروحانيين حين اراد اتباعها الملمانيون ، حوالي السنة ١١٨٠ ، الاستغناء عن الكهنة وادعوا حق تفسير نص العهد الجديد بعد ان آمنوا ترجمته ، وطالبوا كذلك بحق الوعظ ؛ ولكنها في الاربع حركات استجابت لرغبات عميقة اذ انها ، على الرغم من معارضة الكنيسة ، ما لبثت ان انتشرت انتشاراً سريعاً جداً غربي وشرقي جبال الالب .

رد الفعل البابوي كانت الكنيسة من ثم مهددة بخطر فقدان الاخلاق ، ورقابة الفكر ، ورسالتها نفسها ، أي دورها كوسيلة بين البشر والاله . ولكن مقاومة هذه التيارات الثلاثة جاءت قوية تحت ادارة الكرسي الرسولي المتوطدة وبفضل كافة الموارد التي أتمنها تنظيم الكنيسة الجديد . فبغية استعادة تأثير الكنيسة على سلوك النبلاء مع النساء ، استمر في الدرجة الاولى المجهود الذي بذله رجال الاكليروس منذ منتصف القرن الحادي عشر لطبع طقوس وذهنية الفرسان بالطابع المسيحي ولجعل هذه الطبقة العسكرية « جمعية » بالمفهوم الديني لهذا التعبير تكون اشبه بالاخويات ، وذلك بالصلاة على الاسلحة اولاً ، ثم بادخال بعض الممارسات الطقسية على الاحتفال بتسليم الفارس اسلحته ، كالغتسال المطهر وحراسة الاسلحة ليلاً والمناولة سلفاً ، وباليمين المفروضة على المبتدئين بالسلوك بحسب بعض القواعد الاخلاقية . ويجب الاعتراف هنا بان المثل الاعلى الذي وضع نصب اعين الفرسان كان قدينا ، بالشكل الذي ارتداه ، في اوائل القرن الثاني عشر ، في اسطورة « غرال » ، بارضاء النزعة الصوفية ، التي جعلت الفرسان اللغندوكيين سريعي التأثر بهرطقة الاطهار .

الا ان رد الفعل الاول للكنيسة ضد الانحرافات في الاخلاق والفكر وممارسة التغوى كان على العموم عنيفاً وزجرياً . فهي قد أقدمت ، بغية استئصال عادات التجار الخالفة للمعجبة ، على اعلان تحريم الربى . وأصدرت حكماً على أدهى الابحاث خطراً في مؤلف (ارسلو الجديد) وفي السنة ١٢١٠ ، منعت في باريس تفسير كتابي « ما وراء الطبيعة » و « الطبيعيات » ؛ وفي السنة ١٢٢٨ دعا البابا اللاهوتيين الى الكف عن الاستماع بمبادئ الفلسفة الوثنية في براهينهم لاثبات الحقيقة . وطورد الفالديون من قبل السلطة الاسقفية . وشتت في السنة ١٢٥٨ ، للمرة الاولى ، حملة صليبية على مسيحيين ثبتت هرطقتهم ، أعني بهم « اطهار » اللغندوك ، نظمت في البدء كوسيلة ضغط على الامراء الهلبيين لمجملهم على الاسهام في عملية القمع ، ولكنها انتهت الى عزلهم والى انتقال ممتلكاتهم الى الصليبيين الآتين من « ايل دي فرانس » . اما استنهاء وقبح المخرافات المعقدة ، اللذان تركا لمبادأة الاساقفة حتى ذاك التاريخ ، فقد نظما ونسقاً خصوصاً على يد بعض الامراء اولاً . وضع فردريك الثاني ، ما بين السنة ١٢٢٥ والسنة ١٢٢٨ ، ٣٠٠٠ لشريع متلاحم في هذا الحقل فرضت بموجبها عقوبة النار على الهرطقة ثم على يد الباباوات الذين تسلموا ، ابتداء من السنة ١٢٣١ ، ادارة التحقيق ، او « التفتيش » . ولكن هذه التدابير الزجرية ، التي لم تأت بالنتيجة المتوخاة منها على كل حال ، تكاملت في النصف الاول من القرن الثالث عشر بما بذلته الكنيسة من جهد واع - ويعود الفضل في ذلك الى انوشنتيوس الثالث

الذي تمثل حبريته اوج السلطة الرسولية - لماشة التيارات الجديدة وجفي أكبر فائدة منها .

جميعات التسول
فقد بات لازماً على الكنيسة ان تضم اليها الحركة القوية الداعية الى الفقر
والى ممارسات دينية اسهل منالاً على الوضعاء . وضع انوشنيوس الثالث
تحت حمايته جماعات العلمانيين المتقطعين للعمل المشترك والزاهدين في الثروات الذين أطلق عليهم
اسم « المتواضعين » في ميلانو ، واستمال اليه بعض جماهير الفالديين الذين رجعوا الى الرأى القويم
باسم « الكاثوليك الفقراء » . وشجع البابوات بصورة خاصة تاليف وانتشار فرقتين دينيتين
داخل الكنيسة ، تجيش فيها الروح الجديدة ، أعني بها جميعي التسول ، الدومينيكان
والفرنسيسكان . تأسست الاولى أبان الحملة على « الاطهار » : فقد جاء اتفاقاً الى لنفدوك في
السنة ١٢٠٦ كاهن اسباني قانوني يدعى دومينيك (عبد الاحد) ، واستقر في تولوز ، وحاول
مع عدد صغير من رفاقه ، اقناع الهراطقة ، بكلامه ولا سيما بسلوكه الذي لم يكن دون سلوك
« الصالحين » تقشفاً وزهداً ، واعتمد في رسالته الجديدة قانون القديس اوغسطينوس الرهباني ،
فتغلى عن كل ثروة زمنية وصمم على العيش من التسول وكرّس نفسه بالكلية للوعظ والتبشير .
اما ملشاً الفرنسييسكاني فقد كان شبيهاً بمنشأ الحركة الفالدية : تأثر فرنسيس ، ابن احسد التجار
الاسيزيين الاثرياء ، بالارشادات الانجيلية فوزع في السنة ١٢٠٦ كافة ممتلكاته على الفقراء وسلك
حياة زهد تام وفرح كامل في خدمة « السيدة الفاقسة » ، وأسس في السنة ١٢٠٩ ، مع بعض
الشبان المتأثرين بمنشأ ، أولى الأسر الأخوية . وقدر لنوع حياة هؤلاء العلمانيين - وهو تقشف
غنائي في الاتحاد صوفي مع المسيح بلغ من خلوصه انه انتهى عند فرنسيس بظهور آثار جروح
المسيح في جسمه الذين درجهم ، دون ازعاج أنفسهم بالموجبات الطقسية الكثيرة ، على التنقل
والتبشير بالاخلاقيات الانجيلية ، مستهطين خبزهم ، او طالبيين عملاً لكسبه بشغلهم اليومي في
المشاريع الزراعية الكبيرة ، ان يعرف لدى سكان مدن ايطاليا انوسطى نجاحاً شبيهاً بذلك
الذي أحرزه الفالديون .

ان هاتين الرسالتين ، المتباينتين أهدافاً وطابعاً روحانياً ، الهادفتين الى الاتصال المباشر
بالاله عن طريق الفقر ، نشأتا تلقائياً على غرار العديد من الهراطقات ، ولكنها بقيتا على اتصال
وثيق بروما . فقد احسن انوشنيوس الثالث الالتفات الى دومينيك وفرنسيس ، وعرف خلفاؤه
كيف يظلمون هاتين الجمعيتين ويستخدمنهما : في السنة ١٢١٧ استقر دومينيك في روما نفسها ،
وما لبثت جمعية الوعاظ (الدومينيكان) ان عرفت ازدهاراً مفاجئاً ، فان أديرتهما ، التي تم
تنظيمها الداخلي آنذاك ، انتشرت من ثم انتشاراً سريعاً في كافة أنحاء العالم المسيحي ، وتجاوز
عددها الـ ٣٠٠ في السنة ١٢٣٥ . وسبق للقديس فرنسيس ان أوفد بعض رفاقه الى فرنسا
واسبانيا ، ثم ان الكردينال هوغو لين الذي فوض اليه البابا ، في السنة ١٢١٩ ، حماية ورقابة
الاخوة « الصغار » (الفرنسييسكان) ، اصبح بدوره حسيباً أعظم باسم غريغوريوس التاسع في
السنة ١٢٢٧ ، أي بعد مرور سنة على وفاة فرنسيس ، فباتت الجمعية من ثم تخضع خضوعاً تاماً

لإدارة الكنيسة الرومانية . باستقبال هاتين العائلتين الدينيتين ، المتميزتين عن الجمعيات الرهبانية ، استعادت الكنيسة نشاطها ووضعت تحت تصرفها قوى ذات قيمة كبرى ؛ فقد وفرت لها جمعيات التسول وسيلة بزت بها شيع الهرطقة ، واستجابت لنزعات التدين الشعبي الجديدة التي لم تؤمن لها الكتلركة ، حتى ذاك العهد ، ما تصبو اليه . وقد عرف الدومينيكان و «الآخوة الرماديون» ، في الواقع ، نجاحاً منقطع النظير ، لأنهم مثلوا ، على غرار الأخويات التي ترعرت فيما مضى ، قريبة من الهرطقة ، عقيدة مسيحية صوفية زاهدة بالخيرات الزمنية ، ناشطة وعاملة في الخارج ، متألصة في قلب المدن بين الجماهير الغلقة ، مشركة العلمانيين ، بواسطة العوام الخاضعين للقانون الرهباني ، في اصلاح الاخلاق والتطهير الجماعي ؛ وعقيدة مسيحية تبشيرية ، لا طقسية فحسب ، تؤمن بالوعظ الحر ، الملقى بلغة عامية ، معرفة الانجيل معرفة مباشرة ؛ وبهذا الاتجاه الجديد ترتبط التعديلات المدخلة على المعابد المشيدة بجانب أديرة الدومينيكان والفرنسيسكان التي غدت أسواقاً فسيحة تلقى فيها المواعظ وتفتح لجماهير المدن الفقيرة . ولم يلبث «الوعاظ» و «الصفار» - ولهذا السبب أصبحت هذه الجمعية العلمانية الأخيرة ، في عهد مبكر ، وبدافع من البابا ، أخوية كهنة - ان حلّوا محل الإكليروس العلماني العاجز عن القيام برسالته .

حاولت البابوية كذلك استعادة الاشراف على الحركة الفكرية في المدارس .
الجامعات
وهم باباوات النصف الاول من القرن الثالث عشر ، أي انوشنتيوس الثالث أولاً ، ثم خلفاؤه ، من انتصروا لأساتذة ومستمعي المدارس الجديدة على مجالس كهنة الكاتدرائيات والسلطات العلمانية وساعدوهم على تأسيس شركات مهنية متلاحمة ، هي الجامعات - أي نقابات المعلمين والطلبة المهلفين - وعلى تحقيق امتيازاتهم واستقلالهم الاداري . واذا استمرت الجامعات الفقهية في ايطاليا الشمالية ، أي جامعة بولونيا ، التي تأسست في عهد مبكر وحظيت بحماية الأباطرة ، وجامعات بادوا ومودينا وفيتشنسا ، في ترمدها على التأثير البابوي ، فإن هيئة المعلمين والطلبة الباريسيين قد سعت ، ما بين السنة ١٢١٢ والسنة ١٢٤٦ ، وراء نصره الكرسي الرسولي على ممثل ملك فرنسا ومستشار مجلس كهنة الكاتدرائية ؛ وقد أوجدت البابوية في ايطاليا جامعات روما وسينّا وبليزانس ووضعت تحت حمايتها مدارس مونبيليه ، وأسست في السنة ١٢٢٩ جامعة تولوز لئلاشر العقيدة القوية في بيئة أفسدتها هرطقة الاطهار ، وعطفت أخيراً على انطلاقة او كسفورد حيث ادخل بعض المعلمين الاسكليز بنجاح باهر أساليب التعليم الباريسية . بفضل هذه المساندة ، وبينما كان المحسنون الجوّادون يؤسسون المدارس والنزول بغيّة رعاية واياء الطلبة الذين لا مورد لهم ، انتظمت هذه الجمعيات التعليمية وترعرت الى كليات أعدت احداها ، كلية الفنون ، للتربية التحضيرية ووجهت الاخرى شطر البحوث التخصص ، كاللاهوت او القانون او الطب . اما في باريس فكان طلاب الفن ، أكثر الطلاب عدداً على الاطلاق لأن درس الفنون العقلية كان يستغرق بين سبع وتسع سنوات اجمالاً ويجمع قرابة مئة معلم وأكثر من ألف طالب في الأرجح . وقد توزع هؤلاء بدورهم ، وفقاً للغاتهم ، الى أربع «امم» يوجه كلا

منها وكيل منتخب؛ وما لبث الرئيس الذي عينه الوكلاء رئيساً عليهم ان أصبح مع الزمن رئيس الجامعة كلها والناطق الرسمي باسمها .

ولكن السلطة الرسولية أصرت على رقابة هذه المؤسسات المتحررة، وقد استخدمت جميعات التسول لبلوغ هذه الغاية دون عناء . أجل لقد تنكر القديس فرنسيس أساساً للنشر العلم بين افراد الأخوية التكفيرية التي أسسها والتي كان عليها ، في رأيه ، ان تستميل النفوس بمنثلهم الصالح في ممارسة المحبة والفقر والتواضع ؛ ولكن الكهنة الذين ارتفع عددهم تدريجياً في صفوف « الصغار » ، لا سيما بعد مماته ، وجهوا الرسالة الفرنسية شطر الوعظ العلمي ، ناهجين من ثم نهج الدوميليكان ، وقد شجهم الباباوات في ذلك . اما الدوميليكان المنقطعون لمناقشة الهراطقة فكانوا منذ تأسيسهم رجالاً فكرياً حريصين على تلقي دروسهم في أشهر المدارس ؛ انتشرت جمعيتهم في البداية ، انطلاقاً من باريس وبولونيا ، في المدن الجامعية الكبرى ؛ اضيف الى ذلك انها تقيدت بقانون صارم بإدارة رؤسائها العامين ، فقدمت بذلك خير ضمان لمعتقدها القويم أسند الباباوات الى هؤلاء ، اولئك النهوض بشؤون التفتيش أولاً ثم وجههم شطر التعليم ، فدخل « المتسولون » من ثم الى الجامعات . وقد حدث ذلك اما عرضاً ، باهتمام بعض المعلمين العلمانيين ، كالاستاذين الباريسيين الانكليزيين التابعيين ، ايمنون دي فاغرشام والكسندر دي هيلز اللذين ارتدوا لثوب القديس فرنسيس في السنة ١٢٢٤ والسنة ١٢٣١ ؛ اما مباشرة : ففي السنة ١٢٢٩ ، حين أعلنت جامعة باريس الاضراب ضد الاسقف ، أسند هذا الأخير تعليم اللاهوت الى دير الدوميليكان القائم في شارع سان - جاك . ومنذ السنة ١٢٤٠ ، تولت الجمعيات الجديدة ، العاملة باشراف الكرسي الرسولي المباشر ، ادارة الدروس اللاهوتية ، وتصدت للسئلة الكبرى الناشئة منذ سنوات عن انتشار الفكر اليوناني . فحاولت التوفيق بين فلسفة ارسطو - التي انتشرت في المدة الأخيرة بعض أبحاثها : « السياسة » ، و « البيان » ، و « الاقتصاد » - والوحشي ، والاحترار بذلك من خطر القطيعة المتزايد بين النشاط الفكري والتعليم الكنسي . فنجحت بالفعل في تحقيق هذا التآليف العسير : واذا مال الفرنسيكانى بونافنتورا ، الذي لم يثن بالمنطق العقلي ، الى المثالية الافلاطونية ، وهي في الواقع امتداد للاختبار الصوفي الذي قالت به مدرسة سان - فكتور ، فقد توصل استاذان من الدوميليكان في جامعة باريس ، هما البير الكولوني وتوما الاكويني ، الى التوفيق بين لباب فلسفة ارسطو والعقيدة المسيحية . وكانت ثمرة الجهود المبذولة منذ قرنين لتكييف الاداة الجدلية المؤلفين اللاهوتيين غير المنحيزين اللذين وضعها توما والذين يؤلفان اول مذهب لاهوتي كامل قام في العالم المسيحي الغربي .

بيد ان الكنيسة ، على الرغم من هذه النجاحات الثابتة وهذا التجدد الذي دانت به للروحانية الفرنسية والفكر الدوميليكاني ، لم تتوصل الى استعادة وتوطيد مركزها الذي أخرجته التطورات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والعاطفية . ويمكن القول ان المسافة قد ازدادت اتساعاً ، في الثلث الأخير من القرن الثالث عشر ، بين حاجات المؤمنين الروحية والنظام الكنسي السائر سيراً مطرداً نحو التصليب والقوة .

نور الروح العلانية فقد برز الخلاف اولا بين العلانين ورجال الاكليروس . فما عند هؤلاء

المسيحيين الذين ارهف حسهم والذين بحثوا آنذاك عن غذاء روحهم في قراءة العهد الجديد - وتلبية لهذه الرغبة أنجز حوالي السنة ١٢٥٠ في جامعة باريس نقل نص « الترجمة العامة » نثراً بعد اعادة النظر فيه - شعور عميق بالسخرية والحذر وحتى بالعداء الصريح نحو رجال الكنيسة . ولكن لا نخدعن بهذه الظواهر : فان هذا الانطباع ناجم جزئياً عن ان العلانين ، وقد استطاعوا التعبير عن مشاعرهم ، بفضل تقدم العلم ، لم يعودوا بحاجة لقلم رجال الاكليروس لافراغها في قالب الكتابة الدينية . ومهما يكن من الأمر ، فان هذا الموقف العدائي من رجال الاكليروس ، الذي ربما زاده تصلباً وعظ الأخوة المتسولين أنفسهم ، وقد ثاروا في مواعظهم على امتيازات الكهنسة العلانين ، فباتوا من أشد المنافسين لهم في أغلب الاحيان ، قد كان في جوهره موجهاً ضد وضع الكنسيين الزماني . أي انه استهدف هذا الوضع في المقاطعات الايطالية والفلمنكية حيث طمع رجال الاكليروس بأن يعمفوا من الفرائض المالية؛ وفي مملكة انكلترا ، اقطاعة الكرسي الرسولي ، حيث عينت الادارة الرومانية عدداً كبيراً من الاجانب في مناصب الكنيسة العليا ، فاستثمرت الادارة البابوية هذه الكنيسة أيما استثمار ؛ وفي فرنسا ايضاً حيث رأى الفرسان المفتقرون أملاكهم العائلية القديمة ، التي تبرع بها اجدادهم احساناً ، أملاكاً كنسية مزدهرة جداً ، وحيث تحالف البارونات للدفاع عن امتيازاتهم القضائية ضد تجاوزات المحاكم الكنسية وطالبوا القديس لويس ، في السنة ١٢٤٥ ، بأن يعاد رجال الاكليروس ، الذين اثروا بافقارهم ، الى وضع الكنيسة الاولى ، ويعيشوا حياة تأملية ... ويحبوا المعجزات التي حرم منها العالم منذ زمن بعيد ، وحيث ثار « روتبوف » بشدة ، يؤيده الجميع ، على اثراء الفرنسيين ، الذين تخلوا آنذاك ، في أديرتهم المدة للدوس ، عن زهدهم الأول ، وكشف الستار عن نزعتهم الخفية الخطرة الى المذهب الصوفي القائل بمحبة الله وجود النفس .

الا ان الانتقادات ، التي حركتها حملة فردريك الثاني العنيفة ضد روما ، قد نخطت هذه التفاصيل وتصدت بالقدح لكيان الكنيسة نفسها ، ولا سيما للملكية البابوية التي غيزت في أواخر القرن الثالث عشر بايثاريتها وتعاطيها السياسة واندفاعها وراء المادة . وقد وجدت هذه الانتقادات لها ، في بعض أفراد الجمعية الفرنسية ، مناصرين نشيطين جداً ، بعد وفاة بونافنتورا (١٢٧٤) الذي كان قد أفلح في الحفاظ على وحدة الأخوة التي أصبح هورئيسها العام . فقد اعتبر بعض « الاخوة الصغار » تلطيف مبدأ الفقر ، أي حق امتلاك العقارات وقبول الاوقاف وتمهد الخدام ، الذي شجعه البابوات لتقوية عمل الجمعية والسماح لها بالقيام بوظيفتها الدراسية والدعائية قياماً افضل ، بمثابة خيانة كبرى لروح القديس فرنسيس . وهكذا فان أقلية « الروحانيين » الضئيلة ، التي حركها في ايطاليا خصوم السياسة البابوية وأفسدتها من جهة ثانية نزعات صوفية تتنافى كلياً والعقيدة القويمة ، ولا سيما النظرية اليواكيمية القائلة بارتقاب مجيء المسيح ثانية ،

قصد وثقت بعنف في وجه « الديريين » المثقفين الساعين وراء سعة العيش ، وقاومت السلطة الرومانية . وفي مستهل القرن الرابع عشر زلت بها القدم خارج الكنيسة فالتحقت بالفالديين ، ورثة هرطقة « الاطهار » في رينانيا والاخويات التقوية العلمانية العديدة وراحت تضخم التيار الصوفي ، الهرطقي او القريب من الهرطقة ، الذي لم ينضب معينه في يوم من الايام .

في الوقت نفسه اقامت ادعاءات بونيفاسيوس الثامن الشوقراطية في وجه الكرسي الرسولي كافة المدافعين عن الملكيات العلمانية ولا سيما القانونيين العاملين في خدمة « فيليب له بيل » : فكان للشبتائم التي أطلقها جاكوبوني دي تودي باسم «الروحيين» الفرنسيين صداها في هجمات « غليوم دي نوغاريه » العنيفة . فجاء الحكم الصادر بأشارة من ملك فرنسا على جمعية الهيكلين - التي استفادت من توزيع فروعهما في كافة أنحاء العالم المسيحي وتعودت جمع الاحسانات للعمليات للصليبية ، فلم يمت ، قبل الشركات الايطالية ، دور مصرف الايداع والتحويل ، والتي أدى بها فقدان المؤسسات اللاتينية في الارض المقدسة الى هذا الدور المالي - انتصاراً للسلطة العلمانية ، وزاد من النعمة على رجال الاكليروس بتشييده على اندفاع الكنيسة وراء الزمنيات . وحين اقامت الادارة البابوية ، بعد السنة ١٣٠٥ ، في جنوبي فرنسا ، قبل ان تستقر في افينيون ، هرباً من جو روما الفاسد وسحبها ، على مقربة من المملكة الكابيتية او تحت كنفها تقريباً ، كانت قصد فقدت الكثير من قوتها الروحية . فتسرب الى العالم المسيحي قلق واضطراب لم يكونا عميقين حقاً -- ويجدر بنا ، الى جانب مظاهر العداء للاكليروس هذه التي اتسم معظمها بطابع المرح ، ان نشير هنا الى قوة وبسالة ايمان اكثرية المسيحيين الساحقة -- الا ان خطرهما كان في تفاقم مستمر .

ان الجمود التأليفية التي بذلها القديس توما الاكوييني لم تسفر آنذاك عن اية العلم والمقيدة
نتيجة ، فحصلت اللطيمة بين العلم والبحث العقلي ودراسة العالم والانسان من جهة ، وبين حقيقة الايمان التي تخضع لرقابة الكنيسة من جهة اخرى . فالجامعات لم تنقصد انقياداً - سلباً للنظام الفكري الذي رغبت روما في فرضه عليها . وقد حدثت في باريس ، ما بين السنة ١٢٣٣ والسنة ١٢٥٧ ، ازمة عنيفة اقامت في وجه السلطة البابوية الاساتذة العلمانيين الراغبين في تخفيض عدد منابر التعاليم المسندة الى الدومينيكان والفرنسيسكان لانهم شككوا في تضامنهم معهم واخذوا عليهم خضوعهم الاعمى لسلطة غريبة عن سلطة النقابة . وكان مقدراً لهذا الصراع ان يتجدد جيلاً بعد جيل ويمم مدارس انكلترا نفسها . وقد تعرضوا كذلك ، في الجامعة ، لتوابع فكرية انطوى التعرض لها على المزيد من المغامرة ، ضارين بانذارات الكرسي الرسولي والاساقفة عرض الحائط . وقد رافق انتشار مؤلف « ارسطو الجديد » انتشار فلسفة ابن رشد بواسطة اطباء مدرسة ساليرن بصورة خاصة ، فتغلغلت في المدارس الباريسية ؛ اجل انها كانت مستوحاة من ارسطو ، ولكنها اقل منه استساغة مسيحية الى حد بعيد . ان هذه التعاليم الخطرة التي ابرزت استقلال البحث العقلي حيال العقيدة ، عرضت للخطر ،

منذ السنة ١٢٧٠ ، محاولات القديس توما للتوفيق بين العقل والايان ، فصرفت ابعاد المفكرين المسيحيين بصيرة، ولا سيما الاساتذة الفرنسيين، عن الابحاث الفلسفية ووجهتهم نحو الافلاطونية الصوفية ؛ واعدت الطريق للتأليف الجديد الذي اقترحه « جون دونز » السكوتلندي ، في مستهل القرن الرابع عشر، ليحل محل تأليف القديس توما، المستخف به آنذاك ؛ فهو قد تحلى ، بتأثير من تشربه تعاليم القديس اوغسطينوس ، عن التوفيق بين الفلسفة واللاهوت وبين العقل والايان ، وفتح امام هذه الابحاث طريقاً متباعدة: « ان الله لم يوح للانسان الحقائق التي يستطيع العقل بلوغها ؛ كما ان العقل لا يبلغ الحقائق الموحاة من الله » ، ويستنتج من ذلك ان كل ما ليس منزلاً يمكن مناقشته بحرية . اما الاساتذة الباريسيون المشهورون بحجراتهم ، وعلى رأسهم « سيجر دي برابان » ، فقد استمروا في تفسير ارسطو وابن رشد على الرغم من الاحكام التي استهدفتم في السنة ١٢٧٠ والسنة ١٢٧٧ ؛ فميزوا هم ايضاً بين امور الايمان - التي 'يسلم بها بدون مناقشة - وامور العلم التي يمكن ان يتناولها العقل بكل حرية .

فتحت هذه الآراء امام البحث ، باستخفافها بالمراجع وبمبادئها باولوية الاختبار ، الذي اعتبر بمثابة مصدر لكل معرفة ، حقلاً متحرراً من كل وصاية كنسية . وبينما اخذت اسفار المبشرين والتجار تعطي صورة اكمل ، ان لم تكن اصح ، عن مساحة العالم وتنوع الطبيعة ، وبينما اخذ ينتشر استخدام اللغات الاجنبية ، اليونانية والعربية والعبرية ، التي فكر الراهب الكاثالوني « رامون لول » بتلقيها المبشرين في فترة اعدادهم لرسالتهم ، بات ممكناً ، منذ ذاك التاريخ، اخضاع اخلاق الكنيسة وسياساتها وحتى كيانها للبرهان العقلي، خارج نطاق الايمان فتبدل المناخ الفكري تبديلاً اساسياً حتى بالنسبة لاولئك الذين لم يتأثروا مباشرة بفلسفة ابن رشد . ففي جامعة اكسفورد ، انقطع الكاهن العلماني « روبرت غروسست » ثم « الاخوان الصغيران » « جون بيكشام » و« روجيه بيكون » ، وهم اقل اهتماماً بالمنطق منهم بالعلوم الطبيعية والرياضيات ، لملاحظة الاشياء ، اي للطريقة التي كان بيكون اول من وصفها بالاختبارية . واذا لم تقترن هذه الابحاث آنذاك بنتائج حاسمة ، فقد تأيدت مع ذلك ، في اوائل القرن الرابع عشر ، بحصر نطاق الوحي حصراً دقيقاً ، حرية البحث الشخصي وعلمنة العلم التي تقدمت علمنة المجتمع في الاربعينيات .

٤ - اشعاع الحضارة الفرنسية

كان لتطورات العقلية في طبقات المجتمع العليا، خلال هذه الحقبة التي تداعت تقدم التدريس فيها انظمة الاقتصاد الريفي والعالم الاقطاعي والعالم المسيحي ، انعكاسها الطبيعي في تطور التعبير الادبي . فنحن نلاحظ فيه توسعاً مائلاً ، اذ منذ منتصف القرن الثاني عشر تجملت المواضيع الغربية بتأثير سير القديسين والطقس البيزنطي وادب القصة العربي

والعادات المحلية الكلتية ، كما اننا نرى ميلا متزايداً الى الجدل الحر وملاحظة الانسان والطبيعة ملاحظة مباشرة ، وتحرراً متاثلاً ، أخيراً ، حيال الانظمة الكنسية .

ان الحدث الرئيسي في هذه الحقبة هو انتشار الثقافة الادبية التي تمت بصلة الى تحسن ظروف الحياة المادية . لقد تطلب توسع الاعمال من البورجوازيين دراسة مهنية منسقة ؛ وبات لزاماً عليهم ان يعرفوا القراءة والكتابة والحساب وفهم اللغة الفرنسية التي كانت آنذاك لفسة التجارة الكبرى . فتأسست لاجلهم ، منذ اواخر القرن الثاني عشر ، في المدن الايطالية والفلمنكية مدارس عامة لا تخضع لسيطرة الاكليروس وتلقى الدروس فيها باللغة العامية ، وقد ساعد ذلك على رسوخ هذه اللغة . وانتشر التعليم كذلك في طبقة الفرسان من قبيل اللياقة العالمية اولاً ، خلال القرن الثالث عشر ، فتباهى فرسان كافة البلاطات الاوروبية وسيداتهما ، على غرار نبلاء الأكيوتين ، بانهم يعرفون القراءة ؛ ومن قبيل الحاجة التقنية ايضاً ، لأن استخدام الكتابة في المعاملات القانونية ، وكان محدوداً جداً في السنة ١١٠٠ بسبب ارتكاز العقود والحقوق المتبادلة الى الحركة الطقسية او الذاكرة او الشهادة الشفهية ، قد تقدم تقدماً سريعاً منذ منتصف القرن الثاني عشر : فقد حررت الوثائق، ونظمت السجلات وجمعت العادات المحلية في كتب .

توجب من ثم على الفرسان أن يعرفوا القراءة لتصرف شؤونهم الخاصة ، ولا سيما اذا اسندت اليهم وظيفة ادارية في خدمة الامير . وادى تنظيم الدول وتوسع اجهزتها السياسية ، في القرن الثالث عشر ، الى تكوين فئة متزايدة العدد من الكتبة ومسجلي العقود ومقيدي الدعاوى وماسكي الدفاتر الذين حصلوا من العلم مبادئه على الاقل . وبات الكتاب اقل ندرة أخيراً .

فمنذ القرن الثاني عشر اخذ بعض الخطاطين المحترفين ، في الاوساط الجامعية الكبرى ، يستنسخون المؤلفات استنساخاً سريعاً ويعرضونها للبيع ، بلبية للطلبات المتعددة .

افضى انتشار الثقافة الادبية في الاوساط العلمانية الى تقاص للادب اللاتيني . اجل الادب

لقد وضعت باللغة اللاتينية ، حتى في النصف الثاني من القرن الثاني عشر ، مؤلفات هامة كيوميات اخبر الالماني « اوتون دي فريسنج » ، و « الانتيكلوديانوس » ، وهو بحث فلسفي رمزي كبير للاستاذ الباريسي « ألان دي ليل » ، والانشيد الكنسية الرائعة التي ألفها « آدم دي سان - فكتور » ؛ ولكن اللغة اللاتينية ليست بعد السنة ١٢٣٠ - اقله في فرنسا - سوى لغة التعليم العالي واللغة الطقسية فعسب ، مما أدى الى فصل النشاط العلمي عن المشاغل الجمالية بعد ان كانت هذه المشاغل وهذا النشاط وثيقة الارتباط في الحضارة الغربية منذ النهضة الكارولنجية . فارتفعت بالنسبة نفسها منزلة اللغات الشعبية التي انبثقت منها لغتان ادبيتان جديدتان اضيفتا الى اللهجات المحلية ، لغة الاوك من جهة ، التي استخدمها الشعراء الغنائيون في كافة المناطق الجنوبية من العالم المسيحي اللاتيني، ولهجة ايل - دي - فرانس ، من جهة ثانية ، التي تبسطت في اوساط شمبانيا وبيكارديا الادبية والتي كان انتشارها شاملاً . ومرد ذلك - اذ ان الصفة الاخيرة هي ما يميز هذا المهد - الى ان فرنسا احرزت في حقل الادب اولوية مطلقة يفسرها عظم المملكة بالذات ، وهي المتقدمة على كل ملكة غيرها في اوروبا من

حيث عدد السكان ، وازدهارها ، والدور الذي لعبته في الاقتصاد الغربي الاسواق الدورية
الشمبانية ، وتوسعها العسكري في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الذي احل نخبة فرنسية
اللغة في انكلترا والارض المقدسة وقبرص وموريا ، وبث الفرسان الفرنسيين في اسبانيا
المسيحية وايطاليا الجنوبية ، وقيام اهم مركز فكري في باريس اخيراً . ومهما يكن من الامر
فان الادب الفرنسي هو ما يجب ان نتبع فيه التيارات المختلفة التي استجابت على التوالي
لاذواق الجمهور .

حوالي السنة ١١٥٠ ، اخذت العادات الجنوبية تنتشر في فرنسا الشمالية ؛ ويغلب ان نقبل
بلاط بواتيه الى « ايل دي فرانس » ، في اعقاب زواج لويس السابع من « اليا نور داكيتين »
في السنة ١١٣٧ ، واقامة بنات اليا نور ، أليس في « بلوا » ، وماري في شمبانيا ، قد ساعدا
مساعدة كبرى على هذا الانتشار . وفي المناطق المحيطة بالأملاك الكاينيتية ، درج أسياد الامارات
الاقطاعية الآخذة في التثبت والتوطد ، وكونتية فلاندر وشمبانيا ، والبلانتاجنيه ، على ان
يضموا حولهم ، في الثلث الثاني من القرن الثاني عشر ، جمعيات زاهية زاهرة ، ويرعوا الأدباء في
منازلهم . ثم خفت نصرة الأمراء هذه للأدباء قبيل القرن الثالث عشر حين آلت لنجاحات السلطة
الملكية الحاسمة الى اكفهرار سنى الدول الدائرية . الا ان تذوق الشؤون الفكرية كان ، في ذلك
الحين ، قد شمل أوساطاً اعظم رسوخاً في المجتمع ، فبلغ أهل القصور انفسهم : ففي السنة ١٢٠٠ ،
أخذ الكونت « دي غين » نفسه ، الذي كان محاطاً بالمشعوذين ، يتعود نظم الشعر . وأففى
انتشار هذا الادب البلاطي ، الجنوبي المنشأ ، في البداية ، الى تغيير الشكل الخارجي للمؤلفات
الشعرية التي لم تعد معدة للانشاد ، على غرار الملاحم العسكرية الاولى ، بل للقراءة بصوت عالٍ ،
ولذلك بات الشعر مقفّى . وحدث في الوقت نفسه ، تحت تأثير لغة « الاوك » ، ان انتشرت
وتبسّطت عواطف العشاق المتدلين وعاداتهم . لذلك فقدت الاغاني الايمائية ، بعد السنة ١١٥٠ ،
ميزاتها الاولى وتشربت روحاً أعظم رقة ، ارستوقراطية الطابع ، واهتمت بالتحليل السيكولوجي
وتناولت المواضيع الغرامية في جو لا يخلو من كل مدهش وعجيب . الا ان لونا أدبياً اكثر
انسجاماً مع المشاغل الجديدة ، هو القصة المتدلة ، قد ازدهر آنذاك مديناً بشهرته لـ « ماري
دي فرانس » و « غوته داراس » وخصوصاً لـ « كريتيان دي طروا » الذي أعطى هذا اللون
رائعته بكتاب « ايفين » (حوالي ١١٧٢ - ١١٧٥) . وقد تحولت فيه الملحمة الحربية ، تحت
تأثير « اوفيد » وبعض الملاحم القديمة ، وربما القصص البيزنطية ، وخصوصاً تحت تأثير التقاليد
الاسطورية الكلتية التي وفرت حوالي السنة ١١٧٠ ثلاثة مواضيع روائية كبرى هي مواضيع
« تريستان » و « دي غرال » و « ارثور » ، الى سلسلة من المغامرات المدهشة و « التسولات »
التي تتخللها دسائس عاطفية تناولها وصف دقيق . فجاءت القصة من ثم منسجمة مع تهذب
الاخلاق وتسرب عادات التدلل الى طبقة الاشراف التي أشاد هذا اللون بقيمتها الرئيسية :
« الفروسية » ، أي الشجاعة والاناقة ؛ و « العلم » ، أي الثقافة والعدالة .

في السنوات الاولى من القرن الثالث عشر، طرأ تطور محسوس على هذه النزعة الارستوقراطية التي يختلط فيها الواقع بالخيال . فقد تقلص الشعر امام النثر اولاً بفعل تقدم المطالعة الفردية . ثم جعل ازدهار الطبقة البورجوازية من المدن مراكز رئيسية للحياة الأدبية ، كان أشهرها ، بالإضافة الى باريس ، آراس ، مدينة صناعة الاجواخ والاعمال المصرفية الكبرى ، ومقر جمع اشبه بمجمع ادبي عرف باسم (le Puy) أسسته جمعية مهنية ودينية من المشعوذين ؛ ونحن نعرف أكثر من ١٨٠ كاتباً عملوا فيه خلال القرن الثالث عشر . ثم اصيب ادب التدلل بالنهكة ، ولم يعد ليلبي رغبات المجتمع العالمي فأبدى مزيداً من الاهتمام للواقع المحسوس وتأثر كذلك بالمفهوم المسيحي للفروسية وأساليب الفلسفة الكلامية وتطور الفكر الشامل نحو الرقة والسرية ، فانهى مع مؤلفسات لانسلو (١٢٢٠ - ١٢٣٥) و « قصة الوردة » « لغلوم دي لوريس » ١ حوالي (١٢٣٦) الى رمزية غالباً ما تتكلف تهذيب الاخلاق . وانتشر بالمقابلة ادب المناسبات المعاصرة ، بشكل روايات عن الحملات الصليبية - فقد ألف « روبير دي كلاري » و « فيلوهردوين » ، بمناسبة حملة القسطنطينية ، التاريخيين الاولين اللذين وضعوا نثراً باللغة الفرنسية - وبرزت الرغبة في وصف التفاصيل الواقعية والمزاج البذيء التي لبستها الحكايات القصيرة وطابقتها كذلك الاوصاف الدقيقة التي طلع بها جان رينار في القصة الغزلية ؛ كما برزت اخيراً السخرية الرشيدة المرححة التي استهدفت النساء والاكليروس وتعرضت للتدلل والاخلاق الارستوقراطية ، كما يتضح ذلك في قصة « اوكاسين ونيكوليت » .

ان هذه النزعة الى الواقعية والهجاء ، التي أظهرت تفوق العقل على العاطفة ، وهو موقف جديد بنم عن بصيرة وذكاء ، قد توصلت نهائياً بعد السنة ١٢٤٠ بينما اهتمت الجماهير اهتماماً متزايداً المؤلفات الهادفة الى جعل العلوم في متناول الجميع . كما ان المكتبات الخاصة ، التي اخذت تتكون في منتصف القرن الثالث عشر ، قد عبرت عن الاتجاه المزدوج ، المتزايد تباعداً ، نحو الورع الشخصي والصوفي من جهة ، ونحو معرفة الانسان والعالم معرفة عقلية طليقة من جهة ثانية ، واشتملت بصورة خاصة على الكتب التالية : المؤلفات التعليمية ، كدوائر المعارف ، « الكنوز » ، و « صور العالم » ، المستوحاة من مؤلفات « فنسان دي بوفيه » (حوالي ١٣٥٤) ، ومؤلفات تقوية كترانجم القديسين ونصوص الكتاب المقدس او « مدائح المذراء » . لذلك فان الميزة التي تلتسم بها المؤلفات الادبية الكبرى حوالي السنة ١٢٧٥ ، أي في الوقت نفسه الذي اخفق فيه مشروع توما الاكوييني ، هي عودة ، لا تخلو من الجفاء ، الى الحقيقة والبساطة والملاحظة المتحررة من كل اقتدار صريح او معنوي . وفي نسود آراس بثرت ألعاب آدم دي لاهال الموسيقية (١٢٦٢ - ١٢٨٠ تقريباً) بمسرح متحرر من اصوله الطقسية منقطع لتصوير المجتمع ؛ وازدهر ، بفضل الباريسي روتبوف ، شعر بسيط صادق يعكس مشاعر عامة البورجوازيين ويشدد بالمقابلة على الخطايا فضائل الفرسان . اضيف الى ذلك ان جان دي مونج وهو خير ممثل للروح الجديدة ، قد هاجم بقعة ، في « قصة الوردة » التي وضعها حوالي السنة ١٢٧٥ في باريس ،

كافة الآراء الاجتماعية المسلّم بها وكافة العواطف المصطنعة والمعقدة؛ فهدم أسس الاخلاق التبدلية وسخر من عبادة المرأة وانكر تفوق شرف النسب؛ وان في المركز الاولي الذي يحلّ فيه الطبيعة والعقل لاجلاً مباشراً لمفاهيم فلسفة ابن رشد . فانتهى بهذا العمل الهدام عهد عظيم من عهود الادب الفرنسي .

الا ان هذا الادب قد استمر ، حتى وفاة القديس لويس ، ادباً دولياً تتذوقه النخبة في كل مكان ، فأوحى من ثم ، في مظاهره المتعاقبة ، كافة الانتاجات الموضوعية باللغة العامية في اوروبا الغربية . ففي كاتالونيا ، ولا سيما في البرتغال ، سار الشعراء منذ اواخر القرن الثاني عشر على خطى شعراء جنوبي فرنسا المتجولين ، وكان للأغاني الايمائية في فرنسا الشبالية تأثيرها على ملحمة « السيد » القشتالية في الارجح . وفي أثناء الرحلة التي قام بها فردريك بربروس الى آزل كي يتوّج فيها ملكاً على بروفنسا ، تعرف المشعوذون الالمان الى الشعر الغنائي الجنوبي واقتبسوا عنه مقومات ادب التدلل . فنقلوها الى المنطقة الريمانية حيث اعطت النور للأغاني الايمائية الالمانية؛ وبمسد السنة ١١٧٠ ترجم « وولفرام فون اشنباخ » ومنافسوه القصص الفرنسية الجديدة . وغزا الشعر البروفنسي المدن الايطالية ، ولا سيما جنوى ، وحتى البندقية ، فأكبّ عليه بلاط فردريك الثاني في صقليا اكباباً مثابراً . وآثر الفلورنسي « برونيتو لاتيني » ، حتى ما بين السنة ١٢٦٢ و ١٢٦٨ ، ان يضع بالفرنسية كتابه « الكنز » الذي كان قد أُلّفه لتعليم حكام المدن الايطالية ، لأنه اعتبرها « اعذب اللغات وأعظمها شمولاً » .

لعلّ اشعاع فرنسا هذا يبرز بمزيد من القوة ايضاً في المظاهر الفنية لحضارة الفن القوطي القرن الثالث عشر . في الموسيقى اولاً: فنذ حوالي السنة ١٢٠٠ حتى منتصف ولاية القديس لويس ، توسع الفنانان الباريسيان ليونين وبيروتين في أبحاثها حول الموسيقى المتعددة الاصوات ووضعوا الاسس النهائية لبعض الالوان الجديدة التي ازدهرت من بعدها . وفي الفنون التصويرية خصوصاً : ففي فرنسا الشمالية تكون اعظم فنون القرون الوسطى أي الفن القوطي ، قبل ان ينتشر في كافة انحاء اوروبا باسم « الفن الفرنسي » . وهو فن مقدس شأن الفن « الروماني » ، ولكنه اعظم منه انسانية وواقعية ، فاستجاب من ثم للتطور الفكري العام ؛ وهو فن المدن ايضاً يعبر عن ارتقاء البورجوازيات واشعاع كنائس المدن واحتجاب الأديرة الريفية بفعل تأثرها بصعوبات الاقتصاد في السيادة .

تحرر النمط القوطي من الاشكال « الرومانية » في النصف الثاني من القرن الثاني عشر ، ولكن هذا التحرر كان بطيئاً . فقد ادخل الفنانون السيسترسيون ، منذ السنة ١١٤٨ في ستيو ، ومنذ السنة ١١٥٠ في بونتينبي ، الأقواس المتقاطعة الجارية بين الزوايا المتقابلة في سقوف كنائسهم النسقية العارية ؛ وقد استعملت أساليب التسقيف الجديدة كذلك في انجور وواتو ، ولكن دون ان يفضي هذا الاستعمال الى تعديلات هامة في هندسة الأبنية التي ما زالت رابعة متراسة .

وتحققت النجاحات الحاسمة في الأراضي الملكية بتأثير من الهندسة البنائية في « سان - دني » .
وحاول مهندسو العمارة ، في كاتدرائيات نويون وسنليس ولان وباريس وسواسون التي شرع
بتشييدها ما بين السنة ١١٤٥ والسنة ١١٨٠ ، مختلفة كل الاختلاف عن بعضها شأن الكنائس
« الرومانية » ، وقريبة كلها ، في تصميمها العام ، من الفن « الروماني » في نورمنديا ، استثمار
كافة الامكانيات التي يوفرها تقاطع الأقواس والتسنيذ بالزوافر ، فتوقفوا في « لان » الى جبهة
تتألف من ثلاثة مداخل عميقة مسقوفة يعلوها موضوع هندسي تجميلي وردي الشكل ، يسين
برجين ، وتوصلوا في باريس الى رفع القباب الى أكثر من ٣٠ متراً . اما الرسامون والنقاشون
المكلفون تزيين الاغلاق ، فقد حوّلوا النقاشة « الرومانية » شيئاً فشيئاً باضفاء مزيد من الاناقة
والعذوبة على التماثيل - الاعمدة والاشكال ، وخصرماً بطرق مواضيع حياة العذراء في سنليس
اولاً ، ثم في لان ، واخيراً في باريس حوالي السنة ١٢٢٠ .

ادت هذه المحاولات ، بين السنة ١٢٠٠ والسنة ١٢٥٠ في فرنسا الكاثوليكية هذه بالذات ، الى
خلق علم الجمال القوطي الذي نجد أمثلته النموذجية في شارتر ، وقد شيدت بين السنة ١١٩٤
والسنة ١٢٢٠ ، وفي « رمس » التي بوشر بتشييدها في السنة ١٢١٢ ، وفي اميان التي ابتدأ العمل
فيها حوالي السنة ١٢٢٠ . فجاء هذا العلم نمطاً استبدادياً سيطر على الابنية كلها فحدت من تنوعها ،
وتميز هندسياً بتشامخ تدريجي نحو العلاء . في هذه الكنائس التي احتل فيها الخورس مكاناً متزايد
الاتساع ، والتي قامت بمجدها صحنها المنخفضين كنائس جانبية - هي اوقاف عائلية خاصة تم
عن ثروة بعض الفئات الاجتماعية وبرز بعض المظاهر التقوية المتميزة - تحققت الوثبة العمودية
بارتفاع القباب ، ونحول القسم العلوي من ابراج الاجراس ، والانسجام بين الزوافر الخفيفة وبين
دعائها ، وايقاف الركائز الكثيرة المنحرفة من التيجان حتى لا يعيق صعودها عائق . وقد بلغ
هذا الشموخ حده في ابنية « بوفيه » القصيمة التي ارتفع خورسها ، قبل انهيارها ، الى قرابة ٥٠
متراً وابراجها الى أكثر من ١٥٠ متراً . وفي الوقت نفسه تجوفت الجدران وكادت الابنية تصبح
مجرد هيكل يقوم على الركائز والأقواس ؛ فانتسعت الأبواب واستطالت النوافذ العلوية باتجاه
أقسامها السفلى بحيث زالت تدريجياً المسافة الوسيطة الفاصلة بينها وبين اقواس صحن الكنيسة ؛
وبانت من الاتساع بحيث توجب تقويتها ببعض عناصر التقوية الداخلية . وتمثل كنيسة « سانت
شابيل » الشاهقة في باريس ، التي ليست سوى هيكل زجاجي ، اكتمال هذه التهوية التدريجية .

تتميز الطريقة القوطية اساساً ، في النقاشة ، باستعداد روحي آخر حيال مواضيع الصور
المقدسة . اجل لم تزل هذه المواضيع مقدسة ، ولكن الفنانين لم يحاولوا اذ ذاك ، تحت تأثير
التبدلات التي طرأت على الشعور الديني ، تمثيل قوة الاشخاص الفائقين الطبيعة ، بل ما يمكن ان
يحملهم اعظم عاطفة اخوية نحو الانسان . ولا يعبر هذا الفن عن عظمة الاله بقدر تعبيره عن
محبه . لذلك فاننا نشاهد في الحركات والوجوه جنواً ورقة ، وفي الابتسامة تصنعاً ، وفي العيون
تغضناً وفي الجفن تناقضاً يطبعان النظر بلطف بشري يناقضه التحديق الساهي في الوجوه

« الرومانية » . وكانت المخلوقات ، في الوقت نفسه ، موضوع اهتمام خاص . فبات للكائنات ، من نبات وحيوان ، ولأعمال الانسان ، مكانها في النقاشة التزيينية التي رقت ووجهت بكل اتقان . وقد أفضى هذا الترتيب الجديد ، الذي لا تزال تنعكس فيه نزعتا النفس الرئيسيتان في القرن الثالث عشر - البحث الآتي عن العطف الالهي وملاحظة الأشياء بتبصر - في الحقل التصويري ، الى اهمال المواضيع الخيالية (اذ ان المزيين لم يستوحوا الرؤى الجليانية آنذاك ، بل المواضيع الواقعية وسير المسيح والعذراء والقديسين) ، واتقان تقليد النماذج النباتية التي عم استخدامها في التزيين وانتشرت في كل مكان ، ومراعاة القياسات والتناسق في الشكل البشري . فبرزت النقاشة شيئاً فشيئاً في الجدار وغدت تمثالاً (فالصحناء ، بعد تاج العمود ، سائرة نحو الزوال) ، وانتهت ، بفعل قبلتها الانسانية ، الى الاقتراب اقتراباً غريباً من فن صناعة التماثيل القديمة : فان اشخاص مشهد الزيارة في رسم لا تختلف بوجوهها وملابسها عن التماثيل اليونانية .

وأدى تجوّف الجدران اخيراً ، بمجؤله دون النقوش والرسوم التزيينية ، الى ازدهار تقنية الزجاج التي اعتمدت في الغرب منذ القرن العاشر على الاقل يحدد منها ، حتى ذاك التاريخ ، ضيق النوافذ « الرومانية » . فانتشر استعمال ذاك الزجاج المقطع بواسطة مصانع الزجاج الكبرى التي قامت على التوالي في سان - دني في منتصف القرن الثاني عشر ، ثم في شارتر ، وأخيراً في سانت - شابيل ، وسيطر على كافة الطرائق التصويرية الاخرى ، وفرض على تزاويق المخطوطات نفسها ، التي أنتج أجمعها في المصانع الباريسية ، اسلوبه الخاص : الاصباغ المتماثلة التي تفصل بينها دوائر سوداء تقوم مقام الفواصل الرصاصية بين القطع الزجاجية ، والخطوط المنكسرة ، والتبسيط الكلي .

تكوّن هذا النمط في الحوض الباريسي ثم انتشر في كافة أنحاء اوروبا . ويرد هذا الانتشار الى الاسباب التالية : تعاظم الدولة الكابيتية ونفوذ القديس لويس في العالم المسيحي ، والمنشأ الفرنسي لبعض التيارات الدينية ولا سيما للجمعية السيسترسية التي انتشرت اديرتها في كل مكان ، وشهرة المراكز الفكرية في « ايل دي فرانس » - فقليلون جداً هم ذوو المقامات الكنسية الذين لم يترددوا على جامعة باريس في القرن الثالث عشر والذين لم يستطيعوا من ثم نقل قبس من الطرائق الفنية الفرنسية الى الكنائس التي اسندت اليهم ادارتها في عهد لاحق - ، وتأثير المصنوعات الصغيرة ، كالتماثيل العاجية الباريسية او المذاخر الليموسينية النحاسية المزدانة بالملينا ، التي قلّدت اشكال الفنون الكبرى خيرة تقليد وصدرت الى كل مكان .

تميز هذا الانتشار بعمقه وشموله في الارض المقدسة بصورة خاصة ، وفي البلدان الجرمانية بعد السنة ١٢٠٠ على الرغم من أمانتها الطويلة للتقاليد الكارولنجية . ادخل السيسترسيون أولاً استعمال الاقواس المتقاطعة في مناطق المانيا المختلفة وحق في اسوج ؛ ثم استوحى بناؤو كاتدرائيات ببيرغ ومغديبورغ ولنبورغ منجزات لان وسواسون ، كما استوحى بناؤو ستراسبورغ وكولونيا الكاتدرائيات الفرنسية الكبرى التي يعود تاريخها الى اوائل القرن الثالث عشر ؛ وعلى شواطئ

البطليك سقت الكنائس الكبرى المبنية بالقرميد ، في كل مدينة من مدن الشراكة الهانسية ، وفقاً للطرائق القوطية . وتم التقليد نفسه في النقاشة حيث انتشر النمط الجديد ، في الغالب ، كما في ستراسبورغ مثلاً ، بفضل الفنانين الآتين من فرنسا ؛ ولكنه تقليد مكثار : اذ ان تماثيل نومبورغ وبمبورغ الجميلة هي ، خارج فرنسا ، التماثيل القوطية الوحيدة التي يمكن مقارنتها بتماثيل شارتر أو رمس .

اما في البلدان الجنوبية ، وهي مهد النمط « الروماني » وأرضه المختارة ، فلم يكن لفن « ابل دي فرانس » هذا الأثر الكبير . فحتى أواخر القرن الثاني عشر بقيت غالباً الجنوبية أمينة كل الامانة للطرائق التقليدية : والى هذا التاريخ يعود ازدهار النقاشة الرومانية في بروفنسا وتحقيق النقوش في فيك وفي كاتدرائية « بوي » . ولم يدخل الفن الشمالي الا بدخول الجمعية السيسترسية وبسط السيطرة الكلاسيكية ، أي بعد حروب الالبين في لندوك ، ومع سلالة انجو في بروفنسا - وبصورة سطحية جداً - أي بعد السنة ١٢٥٠ . ثم انتقلت تقنية الاقواس المتقاطعة عبر طرق الحج ، فظهرت في السنة ١١٦٨ في سان - جاك دي كومبوستيل ، ولكن كاتدرائيات لوغو وسينغونيا ، المعائدة الى اواخر القرن الثاني عشر ، ما زالت آنذاك رومانية ، على غرار النقاشة الكبرى في كثالونيا وروسيون التي تمادى عهدها زمناً طويلاً بعد ذلك العهد ؛ ولم يشع علم الجمال الفرنسي حقاً ، بعد ان نشره السيسترسيون في بوليه أيضاً ، الا في اوائل القرن الثاني عشر ، اذ فرض نفسه ، في طليطلة وبورغوس وليون ، على مهندسي الكنائس الجديدة . وهناك اخيراً بلدان ، هما ايطاليا وانكلترا ، لم يتأثرا بالنمط الجديد الا تأثراً جزئياً .

ففي انكلترا ، التي بلغ من تشرها الثقافة الفرنسية وانقيادها ، في حقن التصوير ، للتقنيات الفرنسية المصدر ، اننا لا نستطيع التمييز ، في القرن الثالث عشر ، بين النقوش الباريسية ونقوش ونشستر المزوقة ، واصلت الطرائق القوطية ، التي اختبرت فيها قبل سواها ، تطوراً مستقلاً منذ عشية الفتح الكلاسيكي لدورمنديا ، واستغرق تحررها من طرائق النمط « الروماني » النورمندي مزيداً من الوقت . فحتى حوالي السنة ١٢٥٠ ، نرى ان كنائس « الفن الانكليزي البكر » ، وأشهرها كنيسة سالسبورج ، تتألف من اجزاء متجمعة متلاحمة وتمت عن اثار فنانها - الذي سنشاهده في العمود اللاحقة - لانبساط الاجزاء القائمة وراء المذبح ، ولا تزال محتفظة بأبواب وضعية . اما النمط « المزخرف » الذي عقبه ، وهو يتميز ببروز خطوط طفيلية ، فقد تحرر تدريجياً من التأثير الفرنسي . وسواء غطت النقاشة الجبهة كلها بالتماثيل ، كما في كاتدرائية « ولز » ، او اعتمدت في الابنية المدفنية لتمثيل الموتى تحيط بهم مواكب النواحين مذر في الدموع ، فانها على مزيد من التميز والتفرد أيضاً . اما في ايطاليا ، حيث لم يرسخ النمط « الروماني » نفسه في يوم من الايام ، فان المستوردات السيسترسية الى فوسانوف وسان غالغانو ، ثم استخدام الاقواس المتقاطعة في الكنائس الدومينيكية والفرنسيسية الكبرى ، الذي انحصر هنا في السقف ولم يفض الى العمودية ولا الى تجويف الجدران ، لم تتوصل الى تفسير اتجاهاتها الفنية الاصلية الحاضرة اما

التأثير البيزنطي وأما للتقاليد القديمة .

اضف الى ذلك ان الفن الفرنسي قد اصاب حوالى السنة ١٢٧٥ بنهكة ضعف التأثير الفرنسي شبيهة بتلك التي اصاب بها الانتاج الادبي . فقد نضبت القريحة الخلاقة ؛ حلت المسائل التقنية كلها ، ولم تتجدد المفاهيم قط ، وافرط الفنانون في التدقيق والرقعة ، دون ان يتجرأوا بعد ، كما في انكلترا ، على نهج تزيين مستهجن . ساروا في النقاشه شطر التصنع والتفه . وليس هذا سوى مظهر من مظاهر الانحطاط التدريجي في الحضارة الفرنسية : فالمملكة الكاثوليكية قد فقدت آنذاك المركز الرئيسي الذي احتلته في تطور الثقافة الغربية . ويرد هذا التواري الى اسباب عديدة نذكر منها في الدرجة الاولى التغييرات التي طرأت في اواخر القرن الثالث عشر على الاقتصاد الاوروبي . استفادت فرنسا في ما سبق ، أكثر من أية دولة اخرى ، من التوسع الزراعي ؛ ولكن هذا التوسع قد توقف خلال القرن الثالث عشر ، فأدى توقفه ، بفعل فقدان التوازن بين السكان المتزايدين عدداً والانتاج الذي انتهى الى الاستقرار ، الى أزمة كانت مجاعة السنة ١٣١٦ - ١٣١٧ الخطيرة اوضح دليل على واقعها . واتضعت في الفترة نفسها مظاهر انحطاط الاسواق الدورية في شمبانيا ؛ وغدا الاقتصاد الفرنسي المزدهر ، بعد نمو التجارة الكبرى المطرد ، وتوسع الأعمال المصرفية ، وانتشار النقود الذهبية ، خاضعاً لسيطرة رجال الأعمال الايطاليين ، كما يبدو ذلك بوضوح في باريس نفسها .

الى هذا العامل الاول من عوامل التراجع انضم تقهقر السيطرة الفرنجية في الشرق الادنى : ففي السنة ١٢٦١ استعاد اليونانيون القسطنطينية وحصروا اللاتين في بعض السيادات في شبه جزيرة موريا حيث لم يلبثوا ان تطليقوا ، وفي السنة ١٢٩١ سقطت عكا آخر معقل مسيحي في سوريا ؛ واذا لم يؤثر هذا التقهقر بشيء على التجارة الإيطالية ، فانه قد حدة من نفوذ الثقافة الفرنسية . ويجب ان نأخذ بعين الاعتبار كذلك توسع الدول الدائرية : المانيا التي امتدت نحو الشرق وقامت فيها المدن الكثيرة وازدهرت اقتصادياً بفضل الطرقات التجارية الجديدة المنحدرة اليها من جبال الالب ، وانكلترا التي احيت بعض تقاليدها المحلية بعد ان فقد الملك والارستوقراطية ممتلكاتها في اليابسة الاوروبية ، وقشتالة التي توصلت الى حصر العرب المغاربة حول غرناطة ، واراغون التي نمت تجارتها في المتوسط والتي انتزعت ، منذ السنة ١٢٨٢ ، صقليا من أيدي امراء النجو الذين محصروا في ما خضع من شبه الجزيرة الإيطالية لمملكة نابولي . ففرنسا ليست وحدها بعد اليوم ، وبمكنتنا تكوين صورة عن هذا التنافس في تاريخ جامعة باريس الداخلي : لا تزال المدارس الباريسية ، في منتصف القرن الثالث عشر ، تحتل مركزاً اولياً معترفاً به ، ولكن المفكرين العاملين فيها والاساتذة الذين يوزعون التعليم على طلابها ينتسبون بأعداد كبيرة لبلدان أجنبية ، كـ « البير الكولوني » و « توما الاكويني » والقديس « بونا فنتورا » . واحتلت مدرسة او كسفورد ، التي ما زالت تتقدم باستمرار ، مركز الصدارة في بعض حقول البحث . وأفضت

النزاعات التي قامت في مستهل القرن الرابع عشر بين البابا وملك فرنسا الى هجرة بعض الاساقفة والطلاب - وهي هجرة اولى . اضيف الى ذلك ان تجزئة العالم المسيحي الى دول مستقلة متميزة قد حدثت من مكانة المراكز الفكرية الكبرى ، كجامعة باريس مثلا : وهذا ما حدث في السنة ١٣٠٢ حين نفى فيليب له بيل جون دونس ، المعروف بدونس سكوت ، بسبب مناصرته لروما .

لهذه الاسباب جميعها ، تدنى شأن النفوذ الفرنسي . فبينما لم يبق من أثر لاتشار اللغة الكايبيتية الواسع في الشرق الا في قبرص وموريا ، ازدهر في البورتغال واسبانيا شعر غنائي بلغة الشعب . اجل لا يزال افراد الطبقة العليا في انكلترا يتكلمون اللغة الفرنسية ، ولسكنها لغة فرنسية مشوهة باطراد ، وبقوا امناء لقصص الفروسية التي تؤلف بهذه اللغة ، ولكن اللغة الانكليزية ، وهي لغة الاريايف ، اخذت تنتشر في المدن وتستعمل في الكتابة مرة اخرى . وتحلى الشعر كذلك عن اللغة الفرنسية في ايطاليا الشمالية ثم في ايطاليا الجنوبية بعد تدهور « شارل دالمجو » . وفي الواقع انتقلت ادارة الثقافة من فرنسا الى ايطاليا في هذه الحقبة الممتدة من السنة ١٢٧٠ الى السنة ١٣٢٠ التي هي بمثابة مرحلة نضج نهائي بالنسبة للملكيات الغربية اشتدت فيها الانتقادات الموجهة الى البابوية ، وقد افضى الحكم فيها على ارسطو الى الحكم على فلسفة توما الاكويني ، ومرحلة توسع التجارة الكبرى توسعا عظيما ، ونهضة البندقية وجنوى البحرية والعمليات المصرفية الفلورنسية الكبرى .

تباشر النهضة الايطالية ان ايطاليا هذه ، التي خيتم عليها الالمحطات حتى ذاك العهد وخضعت خضوعا متاديا للغزوات والحميات الاجنبية ، والتي تأثرت أكثر من أية دولة اخرى ، منذ القديس فرنسيس الاسيزي ، بالرسالة الوحيدة القادرة على تجديد مسيحية القرون الوسطى ، قد استعادت بفضل التجارة التي أحياها البحر ، استقلالها الروحي وقوتها الخلاقة . فقامت في مدنها ، حيث تكدست اعظم الثروات المنقولة في الغرب ، ثقافة خاصة متميزة أغنتها العلائق بالشرق ورواسب الثقافة الرومانية التي اخذت تستعيد نشاطها ، فهي ايطاليا اذن التي تسلمت إرث فرنسا الادبي ونفخت حياة جديدة في الألوان التي وهنت فيها بعد ان ازدهرت في ما وراء الجبال : ان تقليد قصص الفروسية الذي تلاثى ، داخل المملكة الكايبيتية ، في اكثار معقد لا رونق له ، قد وجد له موطناً ، في اوائل القرن الرابع عشر ، في بلاطات حكام لومبارديا المستبدين ، كما ان الشعر الصقلي اولا ، والشعر التسكاني والبولوني ثانيا ، قد اقتبسا وجددا شعر الشعراء المتجولين في فرنسا في « النمط المذهب الجديد » . اضيف الى ذلك أخيراً ان ثقافة القرون الوسطى الكلاسيكية ، المدرسية والصوفية على السواء ، قد حققت آنذاك ، في « المهزلة الالهية » ، التي تجمع بين الايمان العميق وانتقاد الملكية البابوية بمرارة والاعجاب بفرجيل وارسطو ومعرفة ابن رشد وتجميع حبة التدلل ، منتهى كمالها وأعظم منتجاتها . وأدت ايطاليا للفنون قسطاً اعظم تميزاً ايضاً . وهذا القسط هو بعث تدريجي للأشكال

القديمة نهضت به إيطاليا الوسطى بصورة خاصة ، في تلك المقاطعات ، الملاجىء ، التي لم تتأثر شأن غيرها بسيطرة المفاهيم الجمالية الأجنبية . فلم ينقطع السكان قط في هذه المناطق عن تشييد الكنائس ذات الأعمدة الداخلية والجدران العارية المغطاة بالاختشاب وفقاً لنمط الكنائس الملكية الصافي : فان كاتدرائية اورفيانو التي بوشر بتشبيدها في السنوات الأخيرة من القرن الثالث عشر ، أشبه بكنيسة ملكية قسطنطينية ، على غرار كنيسة « سانت ماري دي ترانستيفير » التي شيدت قبل ذلك التاريخ بقرن ونصف ؛ وبرزت مثل هذه الأمانة للطرائق القديمة في التزيين أيضاً سواء في الجبهات حيث تتعاقب القطع الرخامية بأشكال هندسية ، كجبهة « سان مينياتو » في فلورنسا ، أم في أشكال التبليط بالفسيفساء التي رسمها آل « كوزماتي » اليونانيو المنشأ للكنائس الرومانية . أما النقاشة التي تأثرت تأثراً أطول عهداً بالطرائق المستوردة من الخارج ، فقد رجعت بدورها إلى الماضي الروماني ، منذ أواخر القرن الثاني عشر ، في « بارم » حيث تتميز الأشكال الرومانية التي حققها « بندتو انتلامي » بتوازن وجمال رشيق لا يتميزان عنها في النقوش الناتئة . وفي الربع الثاني من القرن الثالث عشر ، غدت صقليا ، التي أعدها فردريك الثاني ، في تفكيره ، لأن تصبح مركز الامبراطورية بعد تجديدها ، مركزاً لنهضة صناعة التماثيل القديمة التي أنتجت ، في الفترة نفسها التي أنتج فيها « الإله الجميل » في اميان ، التماثيل النصفية العظيمة المتسمة بطابع روماني عميق التي حققها ازميل « نيكولو دي فوجيا » . واقتبس جمهور من فناني توسكانا أخيراً ، ابتداء من نقولا البيزي وانتهاء بـ « تينو كايينو » مواضيع النقوش المقدسة المستوردة من فرنسا مستوحين في عملهم نقوش النواويس استيحاءاً مباشراً . وفي أواخر القرن الثالث عشر شملت هذه الحركة التصوير أيضاً . ولما كان هذا الأخير مستقلاً عن فن التزيين الزجاجي الذي لم يجد له مكاناً في كنائس إيطاليا المعتمدة ، فقد تأثر تأثراً عميقاً بالفن البيزنطي الذي كان مزدهراً جداً في أواخر عهد النهضة المقدونية ، فجاء التزيين الفسيفسائي الذي انجز في بيت العباد في فلورنسا ، بين السنة ١٢٣٥ والسنة ١٢٨٠ ، تقليداً خالصاً للنماذج الشرقية . ولم يهتم « شيايوى » (١٢٤٠ - ١٣٠٢) إلا لاضفاء الحنان الفرنسي على الصور البيزنطية ، وقد واصل محاولاته ، في سينتا ، دوشيو و « سيمون دي مرتيني » . أما في روما فقد انصرف الفسيفسائي توريتي في كنيسة « سانت ماري » الكبرى (١٢٩٦) ، والمصور الجداراني كافاليني في كنيسة « سانت - سيسيل » ، عن تقليد صور الشرق اليوناني الجاهدة المستوية واهتدوا إلى حياة الصور القديمة ودقة قياساتها . فكانا كمن مهتد الطريق لـ « جيوتو » الذي ادخل العاطفة القوطية على الأشكال « الرومانية » فأحيها في صور جدران كنيسة « اسيز » العليا (١٢٩٦ - ١٣٠٤) وفي ارينا دي بادوا .

ولكن الفترة (١٣١٧ - ١٣١٨) التي صور فيها جيوتو ، تلبية لطلب آل « باردي » ، وهم من كبار صيارفة فلورنسا ، مشاهد حياة القديس فرنسيس على جدران كنيستهم الخاصة المعروفة باسم كنيسة « الصليب المقدس » ، تصادف في الغرب فترة عفت مجاعة كبرى انهارت فيها الاسعار الزراعية وأفضى القلق الاقتصادي وتوسع السلطة الملكية في فرنسا إلى قيام التكتلات

الاقطاعية ، بينما بدأت اعمال حربية شبه مستمرة مع انكلترا عند حدود غويان ؛ وتصادف ، كذلك الفترة التي اخنارها البابا يوحنا الثاني والعشرون لتوسيع القصر الاسقفي في افينيون وللدخول في نزاع معلن ضد « الروحيين » ؛ كما تصادف اخيراً الفترة التي وضع فيها دانتي ، في كتابه « المللكية » ، نظرية امبراطورية لم يعد لها من وجود ، ومجدد ، في كتابيه « المطهر » و « الفردوس » ، العظيمة الايطالية . فقضي آنذاك نهائياً على التوازن بين العناصر السياسية والاقتصادية والدينية والفكرية لحضارة القرون الوسطى الذي قدّر له ، قبل خمسين سنة ، في عهد القديس لويس ، ان يتحقق بصورة عابرة في « ايل دي فرانس » . فاعترض العالم الغربي ، الذي ما زالت قوته الخلافة شبه سليمة ، قلق فكري وصعوبات مادية ما كان ليرتقب مدى ديمومتها .